

المقدمة :

الحمد لله الذي خلق الإنسان، وأوجد له اللسان ليكون دليلاً على الجنان، وخطباً ببنانه البيان، ليعبر عن حاله في كل الأزمان، والصلاة والسلام على خير المرسلين، هادي البشرية جمعاء نحو الرشاد والسؤدد والخير إلى يوم المعاد، وبعد،

فإن حب النبي من أخص خصوصيات المسلم، به يستطيع أن ينال الشفاعة، ومن خلاله يرقى إلى أعلى الدرجات، إن هو تمسك بهديه وسنته، ومهما حاول الإنسان أن يثني على الرسول، فإن القصور سيلاحقه نظراً لعلو رتبة النبي محمد صلى الله عليه وسلم، فعندما دعاني الحب النبوي، لبّيت مباشرة، فوجدت نفسي أمام مديحه من قبل الشعراء، فالنبي مدح منذ غابر الأزمان، ورطب الشعراء عليه ألسنتهم بالثناء، حيث تفتنوا وبرعوا، وجادت قرائحهم بصنوف شتى من المدائح التي بقيت خالدة في الأذهان والعقول نظراً لقوة الوشيجة التي تربطها بسيد الأمة.

وعبر تاريخ آدابنا العربية منذ الجاهلية حتى العصر الحديث، وجد كثير من الباحثين الذين تناولوا المدائح النبوية في العصور الأدبية المختلفة، حيث تعرّضوا لمفردات تلك المدائح، وبيّنوا ما تمتاز به من خصائص فنية جعلتها وأصحابها يصلون إلى الرتب العليا، على صعيد الشعراء وشاعريتهم، وعلى صعيد فهمهم ونظمهم، ولكنني وجدت فترة تعدد من أحلك الفترات التي عصفت بالمسلمين خطورة وتأزماً، فقد كان للمدائح النبوية أثرها البارز في تلك الأحداث ومجرياتها، فبعد خطر الصليب الداهم، وفي ظل غياب الحاكم المسلم الذي يرعى مصالح الأمة، نجد أن الشعراء هرعوا لمدح الرسول وفرّوا إليه ليخلصهم مما ألمّ بهم، ونشطوا في بعث الحمية في نفوس الأمة عبر استحضار شخص الرسول - من خلال صفاته وأخلاقه ومعجزاته، وصحابته ومعاركه - حيث قاموا ببث آيات الشكوى طلباً للخلاص، ورغبة في تقوية النزعات الإيمانية عند أفراد الأمة عندما ساورتهم الشكوك، وأصبحوا في ضنك من العيش، جاءت المدائح النبوية لترسم لنا لوحات فنية بمبناها ومعناها، وأقصد بذلك فترة الحروب الصليبية، وأخصّ تحديداً عصر الزنكيين والأيوبيين، فقد تغافل الباحثون عنه كثيراً، وإذا ما تعرّضوا للمدائح النبوية فيه، فإنهم

يمرون عليه مرور الكرام، لذلك وجدتها فرصة ملائمة لخدمة الرسول من جهة، واستجلاء موقف الشعراء الذين مدحوه . في العصرين الزنكي والأيوبي . من جهة ثانية، وذلك من خلال التعرف إلى تلك الأشعار عن قرب، من حيث الكم والكيف، مبرزاً جوانبها الفنية والجمالية، عساني أبلغ الهدف من خلال دراسة علمية جادة ، وبذلك أسدّ ولو القليل من تلك الثغرة.

ومما قوى الرغبة في إقامة هذه الدراسة هي سلسلة الطعون التي وجهت لذينك العصرين، حيث وسما بالانحطاط على صعيد الشعر، والتخلّف والتراجع على صعيد الشعراء، وقد رغبت في أن أبين مهمّة المدائح النبوية على الصعيد السياسي، وأبين أن الشعراء ساروا موافقين لأبهي العصور الإسلامية في صناعة الشعر، حتى غدت المدائح النبوية من الشهرة ما لا يدعو مجالاً للشك على قدرة الشعراء وتمييزهم في إيصال رسالتهم، محاولة منهم لرفع الوصب والمخمصة عما لحق بالأمة، وهذا ما يقوم به الشعراء عندما يأخذون على عاتقهم أمانة المسؤولية في حمل الهموم والتعبير عنها بكل أريحية.

والدراسات السابقة التي تناولت المدائح النبوية في هذين العصرين قليلة، وإن وجدت فهي لم تتناول الموضوع بشكل مفصّل، وإنما جاءت عامة تتناول موضوع المدائح منذ فجر الإسلام، حتى بدايات العصر الحديث كما فعل المرحوم زكي مبارك في (المدائح النبوية في الأدب العربي) وهي فاتحة الدراسات التي تخصّ فنّ المدائح في أدبنا العربي، فقد اعتمدت الدراسات التي جاءت بعدها عليها، ودراسة محمود علي مكي التي عنونها بـ (أدبيات المدائح النبوية)، ومن الدراسات المتخصصة ولكنها اقتضرت على العصر المملوكي دراسة غازي شبيب (فنّ المديح النبوي في العصر المملوكي)، ودراسة محمود سالم محمد بعنوان (المدائح النبوية حتى نهاية العصر المملوكي)، ودراسة حلمي القاعود (محمد صلى الله عليه وسلم في الشعر الحديث)، و مخيمر صالح التي جاءت على شكل موازنة بين شاعرين عاشا في عصرين متقاربين، وحملت عنوان (المدائح النبوية بين الصرصري والبوصيري)، ودراسة ناظم رشيد وعنونها بـ (المدائح النبوية في أدب القرنين السادس والسابع للهجرة) وهي دراسة قريبة إلى حدّ ما من هذه الدراسة، إلا أنّ صاحبها قد عني بذكر أشهر الشعراء الذين نظموا في المدائح النبوية في العصرين، وأورد أمثلة

ونصوصاً شعريّة على فنّ المديح عندهم دون الغوص في أعماق النصوص بالتحليل والدّرس.

وتدخل هذه الدّراسة في مجال التحليل والتمحيص، ومعاينة الشعراء، ومحورها الأساس قصيدة المديح النبويّ في العصرين الزنكيّ والأيوبيّ، من خلال منهج تكامليّ قصدت من ورائه النصّ الشعريّ وقائله وتلك المؤثرات التي تعرّض لها الشعراء عند نظم المدحة النبويّة.

واعتمدت في جمع مادة البحث وتوثيقها على دواوين الشعراء ومصادر الأدب المتنوّعة، منها النقدية والبلاغية، وكتب التراجم القديمة والحديثة، هذا بالإضافة إلى مجموعة من المراجع الحديثة التي تخدم البحث.

وقد اقتضت طبيعة البحث أن أقسّمه إلى أربعة فصول مسبوقه بتمهيد موجز تحدّث فيه عن الزنكيين والأيوبيين من خلال الأحداث الجسام وموقف أشهر القادة وأسباب تكالب الصليبيين على أرض العالم الإسلامي ومدى حرص القادة على تشجيع العلم والشعر، وصدى الأحداث في شعر العصرين خاصّة المدائح النبويّة، وأوردت في باب الملحق قائمة بأشهر شعراء العصرين ممن نظم في المديح النبوي، وجاءوا مرتّبين ترتيباً زمنياً، وعددت صفوان بن إدريس وابن جبير من شعراء المشرق لأنهم عاشوا وماتوا وهم متعلقون بالمشرق.

خصّصت الفصل الأوّل للحديث عن مديح الرسول في فجر الإسلام، حيث كان الرسول حيّاً بين ظهراي العرب والمسلمين، حيث نشط المدّاح كأبي طالب والأعشى، وحسان بن ثابت وغيرهم من الشعراء في العصور التي تلت عند الأمويين والعباسيين، حيث تميّز شعر هذه المرحلة بالذود عن الرّسول والإسلام، والوقوف صفاً ضدّ الشرك وأعدائه، هذا بالنسبة للمسلمين، ومحاولة الحصول على مكاسب خاصّة الماليّة منها عند بعض الشعراء من أمثال الأعشى.

أمّا الفصل الثاني فقد تحدّث فيه عن عناصر المدحة النبويّة في شعر العصرين الزنكي والأيوبي، من حيث المقدّمة التي اشتملت على نواح تجديديّة من حيث دخول المقدّمة

الحجازية، وعرض القصيدة الذي تكون من مجموعة كبيرة من المفردات التي لم تكن موجودة في قصائد المديح التي سبقت، وخاتمة القصيدة بما حوت من توجه إلى الرسول مع استخدام التوسل كوسيلة للوصول وتبليغ المطلوب..

كما خصّصت الفصل الثالث للحديث عن أثر المدائح النبوية في العصرين الزنكي والأيوبيّ فيمن جاء بعدها من العصور وصولاً إلى العصر الحاضر، حيث تناولت أشهر الشعراء الذين نظموا في المدائح النبوية، مستعرضاً بعض الجوانب التي تأثروا فيها بشعراء العصرين، ومتحدثاً عن أوجه التميّز، وبمن تأثروا من شعراء الزنكيين والأيوبيين، مبرزاً بعض الخصائص والمزايا.

أمّا الفصل الرابع فجعلته للحديث عن التشكيل الفنيّ في قصيدة المديح النبويّ في العصرين الزنكي والأيوبيّ وذلك من حيث الأسلوب الشائع، واللغة التي استخدمها الشعراء في العصرين، وهل وافقت روح العصرين؟، والصور الفنية من حيث المصادر التي اعتمدها، وكذلك الخيال، والموسيقى التي حافظ فيها الشعراء على أوزان الشعر وقوافيه، ثمّ التواصل بالتراث. التناسل أو التضمين النصّي، إذ تميّزت قصيدة المديح النبويّ في العصرين بأنها جاءت على غرار القصيدة العربية، وهو دليل على تأثر الشعراء بالموروث العربيّ الأصيل.

ومن الصعوبات التي واجهتني في هذا البحث، قلة المصادر والمراجع التي تناوله في المكتبات العامة والخاصة، وقلة الدواوين الموجودة في البلاد مما استدعاني إلى السفر باحثاً عنها في الدول المجاورة.

والله أسأل أن تكون هذه الدراسة خالصة لوجهه، وأرجو أن أكون قد وفقت فيما حاولت، وأن ينتفع بها طلاب الأدب، كما أطلب من ربي أن يغفر لي تقصيري، وأن يعينني على تدارك سقطتي وزلتي، إنه على ذلك قدير وبالإجابة جدير.

كرمة - دورا - الخليل (1426هـ 2005م)

الباحث:

طلال عبد الرحيم أبوشيخة.

التمهيد :

العصران الزنكيّ والأيوبيّ (492 - 662هـ)

لقد تشابكت الأحداث السياسيّة في مشرق العالم الإسلاميّ في أخريات القرن الخامس الهجري، وكان ذلك على صعيدين، الصّعيد الدّاخلي حيث تفرّق الحكام، وتشتت المسلمين على شكل دويلات متصارعة ، كان هدف الحكام فيها واحدا وهو توطيد أركان حكمهم وبسط سيطرتهم ونفوذهم، حيث كان هذا الهدف الأسمى المقصود، أمّا الصعيد الخارجيّ فتمثل في تلك المحاولات الغاشمة التي تمثلت فيما يعرف بالحروب الصليبيّة التي عرفها سعيد عبد الفتاح عاشور بقوله: " حركة كبيرة نبعت من الغرب الأوربيّ المسيحي، في العصور الوسطى، واتخذت شكل هجوم حربيّ استعماريّ على بلاد المسلمين، وبخاصّة في الشرق الأدنى، بقصد امتلاكها "(1).

من ذلك التعريف يمكن الاستدلال بأنّ الهدف الذي سعت إلى تحقيقه تلك الحروب، كان هدفا دينيّاً بالدرجة الأولى، فقد هدف هؤلاء الصليبيّون إلى محو معالم المسلمين، وتدمير مقدّساتهم، وتدنيّسها وليس أدلّ على ذلك ما فعلوه ببيت المقدس عندما اتخذوا المسجد الأقصى اسطبلًا لخيولهم، وعملوا على النيل من دينهم، فضلا عن سلسلة الإطاحة بالنفوس التي حدثت في كنف الأقصى وبيت المقدس، وجاء ذلك من أجل إنقاذ قبر السيّد المسيح من حكم المسلمين كما كانوا يدّعون.

وهناك عوامل أخرى ذكرها المؤرّخون والباحثون منها ما هو اقتصادي، واجتماعي، وسياسي⁽²⁾، تضافرت جميعا من أجل تحقيق الأطماع، وسهّل مهمّة الصليبيين الانقسام الحادث في صفوف المسلمين، وغياب التنسيق بين حكامهم ، فضلا عن تضعف الخلافة في بغداد الرّشيد؛ لأنّ الخلفاء انشغلوا بتحقيق مآربهم، وعكفوا على التلذذ بأهوائهم مع ترك شؤون المسلمين لمن هو عاجز عن القيام بها.

¹ - الحركة الصليبيّة، 25/1.

² - لمزيد من التوسّع في تلك الأهداف، ينظر عبد اللطيف حمزة، أدب الحروب الصليبيّة، 16. و محمد علي الهرفي، شعر الجهاد في أدب الحروب الصليبيّة، 37. و عمر عبد الرحمن السّاريسي، نصوص من أدب عصر الحروب الصليبيّة - دراسة وتحليل - 14-15.

ومهما يكن من أمر فإن الله يقيض في كل زمان ومكان رجالا يذودون بما أوتوا من قوة عن حمى الإسلام والمسلمين، فالأمة الإسلامية أمة ولادة، وأبناؤها يحملون الغيرة على أمّتهم ودينهم وحياتهم، لذلك نجد في كل عصر رجالا نذروا أنفسهم من أجلها، منذ الفتن الأولى التي عصفت بالمسلمين من بعد موت الرسول مرورا بعماد الدين⁽¹⁾، ونور الدين⁽²⁾ زنكي⁽³⁾، وصلاح الدين الأيوبي⁽⁴⁾، وصولا إلى العصر الحديث، وإلى ما شاء الله، فهذا عماد الدين الذي عمل على توحيد الإمارات تحت حكمه، أخذ يهاجم الفرنج ليستردّ منهم الرّها⁽⁴⁾ سنة (539هـ) وهي عاصمة أول إمارة للصليبيين في المشرق⁽⁵⁾، وهذا نور الدين محمود زنكي يرفع شكايته إلى الخليفة العاضد ضدّ شاور وظلمه وتحالفه مع الفرنجة لتحقيق ما يصبو إليه، وتوطيد دعائم حكمه، وظلّ يقارع الصليبيين حتى أخرجهم من الشام، وعادت الشام بكاملها ملكا للمسلمين⁽⁶⁾، وتمّ ذلك بعد محاصرة دمشق، وتسلمه لها صلحا، وقد وجد فيها من الحكام الذين تعاونوا مع الصليبيين، وكان ذلك سنة خمسمائة وتسع وأربعين هجرية⁽⁷⁾، وهو من جهّز الحملات إلى مصر بقيادة أسد الدين شيركوه الذي أصبح وزيرا من قبل الخليفة الفاطمي العاضد، وبعد وفاته تسلم الوزارة ابن أخيه صلاح الدين الأيوبي⁽⁸⁾، الذي أعاد مصر إلى الخلافة العبّاسية بعد أن ألغى حكم الفاطميين فيها⁽⁸⁾، وكان ذلك بوفاة العاضد حيث تمّ لصلاح الدين ما أراد⁽⁹⁾،

¹ - كان حسن الصورة، أسمر اللون، ملح العينين، وخطه الشيب وكان قد زاد عمره ستين سنة، كان شديد الهيئة على عسكريه، ملك الشام خلا دمشق، وكانت الأعداء تحيط به من كلّ جهة، ولكنه كان ينتصر عليهم، ويستولي على بلادهم، ولما قتل كان ولده نور الدين حاضرا عنده، وأخذ خاتم والده وهو ميت. ابن فضل الله العمري، مسالك الأبصار، 27. مخطوطة محفوظة في الجامعة الأردنية تحت رقم (1066).

² - ولد سنة إحدى عشرة وخمسمائة، نشأ بالعراق، ملك حلب بعد وفاة جدّه آق سنقر ولي حلب، امتاز بعدله، وإصلاحاته ببناء المدارس والمساجد، كان شجاعا ثابت القدم ضدّ الأعداء، كان يتحرى العدل والإنصاف، مات سنة تسع وستين وخمسمائة، ودفن بدمشق. ينظر أبو شامة المقدسي، كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية، 138-96/1.

³ - زنكي: كلمة تعني الشاطر، وهي معربة من اللغة الفارسية. آدي شير، معجم الألفاظ الفارسية المعربة، 81.

⁴ - الرّها أو الرّهاء: مدينة بالجزيرة بين الموصل والشام، سميت باسم الذي استحدثها الرّهاء بن البلندي بن مالك. ياقوت الحموي، معجم البلدان، 107-106/3.

⁵ - ينظر أبو شامة المقدسي، كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية، 178-170/1.

⁶ - ينظر ابن الأثير، التاريخ الباهر في الدولة الاتابكية بالموصل، 108.

⁷ - ينظر ابن قاضي شهبة، الكواكب الدرية، 130.

⁸ - ينظر ابن الأثير، التاريخ الباهر، 162.

⁹ - ينظر أحمد إبراهيم الحنبلي، شفاء القلوب في مناقب بني أيوب، 9.

وعندما توفي نور الدين، رثاه الشعراء رثاء كثيرا (1)، وقد أثنوا على أصله، وذكروا أباه وجدّه، ومن الشعراء الذين أكثروا من مدحه ابن منير الطرابلسي (2).

ويخلف نور الدين ولده الصالح إسماعيل، حيث كان صغيرا عند وفاة والده، ونتيجة لتفرّق أهواء الأمراء الذين كانوا يتولون شؤون الحكم، طمع الفرنج، وأرسل صلاح الدين رسالة يطلب فيها من الصالح إسماعيل أن يقيم الخطبة له بمصر ويضرب السكة باسمه (3)، وظلّ الأمر على ما هو عليه حتى وفاة الصالح إسماعيل سنة خمسمائة وتسع وسبعين هجرية، وبذلك استولى صلاح الدين على مصر والشام، وكانت نهاية الحكم الزنكي (4).

وتأتي الدولة الأيوبية (5)، ويقف على رأسها السلطان المظفر صلاح الدين الأيوبي، الذي وحد المسلمين وحرّر البلاد والعباد من أذى الصليبيين، ففترة حكمه التي دامت أربعاً وعشرين سنة، قضاها كلها في حروب وانتصارات، وكانت أعظم تلك الانتصارات في سوريا وبلاد الشام وفلسطين، وأعظمها على الإطلاق انتصاره في حطين، حيث أخضع الأرض المقدّسة بأسرها، وعندما انتصر على ريتشارد قلب الأسد ملك إنجلترا، طار اسمه في أوروبا، حيث تردد على كلّ لسان فيها (6).

وقد حمل صلاح الدين من الصفات التي أهلته أن يحتل مكانة بارزة على الصعيد الأدبي من ناحية، وعلى الصعيد القيادي من ناحية أخرى، فهو من خالص العالم الإسلاميّ من كوارث داخلية وخارجية كادت تعصف به وتوقعه في شراك الأعداء، فقد كان سياسياً فذاً من الطراز الرفيع، وقائداً محنكا، محبا للعلم والعلماء، مخلصا ووفيا للأصدقاء والأعداء، فما عرف عنه أنه نقض عهدا قطعه على نفسه البتة، وامتاز عهده بالرخاء على الصعيد الاقتصاديّ والعمرانيّ، وبنى الكثير من المدارس، ونهضت في ظلّه الحركة

1- ينظر أبو شامة المقدسي، كتاب الروضتين، 1/ 128-138. وابن منير الطرابلسي، الديوان، تحقيق عمر عبد السلام تدمري، صفحات متفرقة من الديوان.

2- ينظر محمود فايز السرطاوي، نور الدين زنكي في الأدب العربيّ في عصر الحروب الصليبية، 46-47.

3- ينظر ابن واصل، مفرج الكروب، 4/2.

4- ينظر ابن شدّاد، النوادر السلطانية، 59.

5- يرجع الأيوبيون في نسبهم إلى الجدّ شادي، وهم من الأكراد الروادنية، عاشوا في بلدة دوين في أذربيجان.

ينظر ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة في أخبار مصر والقاهرة، 6/3-4.

6- ينظر أحمد بن إبراهيم الحنبلي، شفاء القلوب في مناقب بني أيوب، 18.

العلمية، لذا يعدّ عصره من أبهى العصور، اتكأ صلاح الدين على هيئة من المستشارين الذين تميّزوا برجاحة العقل، وسداد الرأي، مكنته من ترسيخ دعائم الحكم، والنهوض بالبلاد والعباد⁽¹⁾.

ويكفي صلاح الدين تلك الفتوحات التي كانت وبالاً على الصليبيين، وكانت سيفاً مسلطاً على رقابهم، والأمثلة التي تورد جوانب من سيرته وتدلل على بطولته، وتنشر تجربته الجهادية، ما ذكره العماد الأصفهاني الكاتب من صفات الجنود الذين تخيّرهم للتحرير والفتح، فقال: " كتب الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب إلى الأقطار والبلاد يستدعي من جميع الجهات جموع الجهاد، وأهل للاستدعاء أهل الاستعداد، واستحضر الغزو من الحضرم والبدو، وبرز من دمشق يوم السبت مستهل! المحرم قبل استنجد الجنود، واستحشد الحشود، وإصغار الأسود وإحضار البيض والسود، مضيء العز، ماضي العزم، صائب السهم، ثابت الفهم، ثابت السعود، كابت الحسود " (2).

وقد تتبّع الأصفهاني فتوحات صلاح الدين، حيث البقاع التي أعمل فيها سيوفه، والحصون والقلاع التي كانت محصنة، ولكن بفضل حسن التدبير، جاء التحرير، ولاذ الصليب فاراً هارباً من حيث أتى (3)، ولكن سرعان ما عاد بعد غياب البطل الهمام، وتفرّق الصحب الكرام.

ولكن بموت صلاح الدين دبّ الخلاف والشقاق بين من خلفه من الأبناء الثلاثة، وأخيه وأقاربه، فاستقلت مصر تحت قيادة ابنه عبد العزيز، واقتطع ابنه الأفضل دمشق وسوريا الوسطى، واستقلّ ابنه الظاهر بحلب، وأمّا أخوه العادل فقد تولى حكم العراق وديار بكر والرّها، وقد وقعت حماة وحمص وبلبك واليمن تحت إمرة أبناء عمومته (4)، وبذلك نرى أنّ ما جاهد من أجله صلاح الدين أهلّكه ورثته في طرفة عين، مما جعل البلاد عرضة لخطر داهم وجديد، وبذلك كانت الفرصة سانحة لهجوم التتار على البلاد في ظلّ غفلة المسلمين، حيث تمكنوا من قتل خليفة المسلمين في بغداد الرشيد، وما دخلوا منطقة إلا

1 - المصدر السابق، 19-20.

2 - الفتح القسّي في الفتح القدسي، تقديم إبراهيم شمس الدين، 49.

3 - نفسه، 57-199.

4 - نفسه، 21. وينظر مصطفى محمود زايد، النشر الفني في عهد الدولتين الزنكية والأيوبية في مصر والشام، 31.

وعاثوا فيها فسادا، أعملوا السيف مدة أربعين يوما، إلى أن وصل عدد القتلى أكثر من ألف ألف نسمة (1).

وأمام تلك المعمعة السياسيّة، ومن منطلق الحرص على الأمتّة والشعور بالمسؤوليّة، فقد وقف رجالات الزنكيين داعمين ومساندين للأدباء والعلماء، وخير دليل على ذلك الأمانة في صون العلم وأهله، فهذا نور الدين زنكي يقوم ببناء المدارس العديدة في حلب وحماة وحمص وبلبك (2)، ومن الأمثلة على المدارس التي بناها نور الدين، المدرسة النوريّة الكبرى، حيث أنشأها سنة ثلاث وستين وخمسائة هجريّة (3)، و المدرسة الحنفيّة الصغرى حيث بناها بجامع القلعة (4)، وإلى جانب بناء نور الدين للمدارس، فإنه بنى دور الحديث، والفقّه، إذ كان عارفاً بالفقّه على مذهب الإمام أبي حنيفة، ولكنه لم يكن متعصبا له، ولم ينس الأيتام حيث بنى لهم دارا ليتعلموا فيها القراءة والكتابة (5).

ولا يقلّ المؤسس الأوّل لدولة الأيوبيين صلاح الدين الأيوبي تشجيعا للعلم و توقيرا للعلماء عن نور الدين زنكي، يقول ناظم رشيد في وصف الأدب عند الأيوبيين: " لقد أحبّ بنو أيّوب اللغة العربيّة، وثقفوا بها، لأنها لغة الدين والعلم والسياسة، وأنفقوا الأموال بسخاء على العلماء والأدباء، لذلك أقبلوا عليهم من كلّ حدب وصوب، يمدحونهم ويمجدون بطولاتهم في المعارك التي خاضوها ضدّ الفرنج، وبزّ السلطان صلاح الدين الأيوبي المؤسس الأوّل لهذه الدولة كلّ السلاطين في الإنفاق على العلم والفقّه ومدارسها، وجمع بلاطه جمهرة من العلماء والشعراء والكتاب كالقاضي الفاضل، وابن شداد، والعماد الكاتب، وأسامة بن منقذ، وكان يتذوق الشعر ويهتز له، ويستحسن جيده، ويردده في مجالسه" (6).

1 - ينظر جلال الدين السيوطي، تاريخ الخلفاء، 403 - 410.

2 - ينظر عبد القادر النعيمي، الدارس في تاريخ المدارس، 401 / 1.

3 - نفسه، 607-606/1. وينظر ابن العديم الحلبي، زبدة الحلب من تاريخ حلب، 332-331.

4 - ينظر عبد القادر النعيمي، الدارس في تاريخ المدارس، 649-648 / 1. و محمود السرطاوي، نور الدين زنكي في الأدب العربيّ في عصر الحروب الصليبيّة، 37-42.

5 - ينظر أبو شامة المقدسي، كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية، 1000 / 1.

6 - مجلة المورد، المجلد الخامس، العدد الثالث، بغداد، 1976.

فظهر صلاح الدين أحدث تغييرا في مجرى الأحداث السياسيّة والحربيّة، والدينيّة، والثقافيّة، نظرا لأنه أقام دولته في مصر والشام ومن خلالها استطاع أن يحقق الانتصارات العظيمة على الصليبيين وأعاونهم في معارك عديدة، خاصّة معركة حطين، التي كانت البداية لدحر الغازين وطردهم من بلاد المسلمين، وكان تأثيره كبيرا على أسرته في الثقافة من بعد موته (1).

صدي الأحداث في الشعر العربيّ:

أمام ذلك الوضع البائس، وفي ظلّ الخطر الصليبيّ المحدق الذي أخذ يتعاظم شيئا فشيئا، نجد أنّ الشعراء أعملوا عقولهم ونظموا أروع القصائد التي تحمل المضامين المختلفة، فقد جاءت المضامين صورة ملحة يحمل فيها الشعراء هموم الأمة، التي كانت بأمسّ الحاجة لمن يرفع من مكانتها، ويتذكر ماضيها العتيذ بما حوى من بطولات وكرامات وانتصارات، وأخذوا يهيبون بأصحاب الهمم والغيرة من أبنائها البررة، للأخذ بأيديهم وبعث الحماس في نفوسهم، من أجل الوقوف صفا واحدا أمام تلك الغارات، والهجمات الوحشيّة التي سدّدها الصليبيون للأمة في بلاد الشام، ولكابوس الذل الذي لحق بها نتيجة تتابع الويلات على الأمة بعد هجمات التتار المتكرّرة، وأدّت إلى سقوط بغداد، عندها نجد أنّ الشعراء عاجوا إلى التراث فنهلوا منه ما يسدّ رمقهم، وظهرت تيّارات مختلفة في المجتمع، منها الصوفيّة، صبّت جميعها في قالب التغيير الذي عصف وكان نتيجته دحر الغاصب وطرده المحتل (2).

ففي غمرة الأحداث انقسم الشعراء إلى ثلاثة أقسام، القسم الأوّل يستنجد بالحكام، ويحثهم على القتال، ويظهر الشعراء فيها ما دأب عليه المتنبي عندما كان يسير جنبا إلى جنب مع سيف الدولة وأبي تمام من قبله مع المعتصم، حيث أطلق الشعراء لأنفسهم العنان في المدح والإطراء لأولئك الحكام، حيث المبالغة في القوّة والتعظيم لهؤلاء الحكام، لعلّ

¹ - ينظر عبد الكريم العبود، الشعر العربي في العراق من سقوط السلاجقة حتى سقوط بغداد، 36.
² - نوري شاكر الألويسي، حالة الشعر في القرن السّابع الهجري، مجلة الأستاذ، عدد 1، بغداد، العراق (ص 342-343).

النصر يأتي على أيديهم ، ويستطيعون صدّ الاعتداءات التي تعرّضت لها الأمة ، فهم انطلقوا من وحي الشعر العربيّ في أبهى العصور عندما كان الشاعر يسير الجيش ويرصد تحركات القائد ويسجّل الانتصارات، ويتمنى الخيبة والصغار للأعداء والمرجفين، فهذا ابن قسيم الحموي(1) يثني على دور عماد الدين في مقارعة الصليبيين، لدحرهم عن أرض المسلمين، يقول في ميميته : [الوافر]

بعزمك أيها الملك العظيم تذللّ لك الصّعب وتستقيم
رآك الدهر منه أشدّ بأساً وشحّ بمثلك الزمن الكريم
أيلتمس الفرج لذيك عفواً وأنت بقطع دابرها زعيم
وكرم جرّعها غصص المنايا بيوم فيه يكتهل الفطيم
فسيفك في مفارقهم خضيب وذكرك في مواطنهم عظيم (2)

وأما صولات صلاح الدين الأيوبي في مقارعة الأعداء، فهو من كسر هيبة الصليب، ولن تجبر بعدها ، فأدبر ملكهم في الشام ، وأصبحوا مهزومين بفضل جنده السّاهرين، يقول ابن جبير في مدح صلاح الدين: [المتقارب]

أطلت على أفك الزاهر سعود من الفلك الدائر
فأبشر فإن رقاب العدا تمّدد إلى سيفك البائر
فكلم لك من فتكة فيهم حكمت فتكة الأسد الخادر
كسرت صليبهم عنوة فلله درك من كاسر
فأدبر ملكهم بالشام وولّى كأمسهم الدابر
جنودك بالرّعب منصوره فناجزمتى شئت أو صابر
فكلهم غارق هالك بتيّار عسكرك الزاخر
وقمست بنصر إله الورى فسمّاك بالملك الناصر (3)

ومن الشعراء من سلك طريقاً آخر في مديحه، وطريقة تعبيره عن مكنونات نفسه ، حيث

¹ - هو شاعر الزنكيين بلا منازع، واسمه شرف الدين أبو المجد مسلم بن الخضر بن قسيم التتوخي الحمويّ ، ولد في أوائل القرن السادس الهجري بحماة، توفي سنة احدى وأربعين وخمسمائة هجرية. الزركلي، الأعلام ، 222/7.

² - ابن قسيم الحموي ، الديوان ، 101.

³ - فوزي الخطبا، شعر ابن جبير ، 46-47.

توجه إلى الله بالصّراعة كي ينجي الأمة ، ويدفع عنها ما ألمّ بها من كرب وبلاء، فقد نظم أبو حامد الغزالي (ت 505هـ) (1) قصيدة لقيت القبول والإقبال من الناس الذين تلقفتها أسماعهم بالقبول ، حيث كانوا يرددونها في المجالس، أو عند الإصابة بملمة أو ضيق، وقد أطلق عليها الغزالي (دعاء المنفرجة) يقول فيها : [المحدث]

الشّـدّة أودت بالمهـج	يا ربّ فعجّل بالفرج
والأنفـس أمست في حـرج	وياذننـك تفـريج الحـرج
هاجـجت لدعـاك خواطرنا	والويـل لهـا إن لم تهـج
يا مـن عودت اللطـف أعد	عاداتـك باللطـف البهـج
واغلـق ذا الصّـيق وشدّته	وافتـح ما سدّ من الفـرج
لذنـنا بجنابـك نقصده	والأنفـس أمست في وهـج
والـي أفضالك يا أملي	يا ضيعتنا إن لم نلج
من للمهـوف سـواك يغث	أو للمضـطرّ سـواك نجـي
والأزمـة زادت شدّتها	يا أزمـة علّك تنفـرجي (2)

وهي قصيدة جميلة تعبّر عن واقع مأساويّ عاشه أبناء العصر، وبيقين الفقيه العابد أعلن الغزالي بصراحة أنّ الهروب يتمّ إلى الله مهما تعاظمت الأزمة، واشتدّت المصيبة، فالله لا يخيب من يلجأ إليه، ويتوسّل به، وهو ملاذ التائبين وأمل الخائبين، وفي معرض تعليقه على القصيدة التي نظمها الغزالي ، يقول محمد الكيلاني: "... وشاهد الصليبيين يكتسحون المدن والقرى، ويغيرون على السّكان الآمنين، وينهالون عليهم قتلا وأسرا، ورأى المسلمين لا حول لهم ولا قوّة، ذلّوا وهانوا واستكانوا، وأضحوا ولا راعي يرعاهم، ولا زعيم يجمع شملهم، ويتصدّى للدفاع عنهم، ولا قائد يوقف الغزاة عند حدّهم، .. في هذا الوسط المظلم، وفي هذا الجوّ القاتم شرع الناس يلتمسون العون من الله، ويسألونه التعجيل بالفرج، وماذا كانوا فاعلين وهم رعيّة بغير رعاة ؟ أمراؤهم مشغولون بمصالح أنفسهم، يكيّد بعضهم لبعض ... وهكذا عانى أهل الشام المصائب والأهوال يتلو بعضها بعضا، فرفعوا

1 - هو محمد بن محمد الغزاليّ الطوسيّ، أبو حامد، حجّة الإسلام، فيلسوف متصوّف، له نحو مائتي مصنّف، مولده ووفاته في خراسان، تنقل بين الشام ومصر، وعاد إلى بلدته الأصليّة التي مات فيها. الزركلي، الأعلام ، 23-22/7.
2 - محمد محمود قاسم نوفل ، تاريخ المعارضات في الشعر العربيّ، 53.

أيديهم إلى السماء متضرّعين بالقرآن وسوره، والأنبياء والمرسلين، ملحّين في الدّعاء، طالبين التعجيل بالفرج " (1).

ونظراً لإقبال الناس على تلك القصيدة، فإنّ الشعراء أخذوا يسارعون في معارضتها، والنظم على غرارها، منهم من تفوّق ومنهم من قصر، ليبقى القول بأنّ هذه القصيدة ونظيراتها تحمل في ثناياها الكثير، فهي تبعث في النفس الأمل بعون الله، والمدد بجند الله، لأنّ الناس عيال الله، سيحّمهم ويدافع عنهم إن توسّلوا به وارتضوا حكمه، وهذا ما صنعه ابن النّحويّ (ت 513هـ) (2) يقول فيها:

اشتدّ دّي أزمة تنفجري قد آذن لي ليلك بالبليج
وظلام الليل له سرج حتى يغشاه أبو السّرج
وسحاب الخيّر لها مطر فإذا جاء الأبيان تجي
والخلق جميعاً في يده فذوو سعة وذوو حرج (3)

ويلحظ من تلك القصيدة أنّ السّامة قد بلغت من النفوس مبلغاً عظيماً، وخيبة الأمل من الواقع قد راوحت مكانها، وتسّلل الحرج إلى نفوس الأمتّة، وبذلك ساء الأمر، وأخذوا يبحثون عن خيط للنّجاة، وحبل يتمسّكون به للتخلّص من ذلك المأزق الرّهب الذي حوّل حياة الناس إلى مجاعات وفقر نتيجة الحروب المتعاقبة والمتتالية التي أحدثتها الصّليبيّون، فكان الشعراء نعم المعبّر، ولسان الأمتّة الناطق في الهروب إلى الله عسى أن يأتي بالفرج والنصر .

وعلّق صاحب تاريخ المعارضات في الشعر العربيّ عليها قائلاً: " ..كانت قصيدة ابن النحوي أكثر شهرة وأسير على ألسنة الناس، وقد حظيت باهتمام أهل الدين والأدب والعلم، فكثّر شارحوها، كما خمّسها أدباء كثيرون اهتماماً بها وتقديراً لها " (4).

1 - الحروب الصليبيّة وأثرها في الأدب العربيّ في مصر والشّام ، 239.

2 - هو يوسف بن محمد التوزريّ الأصل، التلمسانيّ، كان فقيهاً يميل إلى الاجتهاد، توفي بقلعة بني حمّاد من أعمال قسنطينة، له تصانيف . الزركلي، الأعلام ، 247/8.

3 - محمد محمود قاسم نوفل، تاريخ المعارضات في الشعر العربيّ، 52.

4 - نفسهُ، 53.

ومن الشعراء من توجّه بالشكوى إلى الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ طالبا منه ورود الحوض بصحبته يوم القيامة ، لعل النجاة تكون من نصيبه ، عندها يفوز فوزا كبيرا ، وهذا يدفعنا للقول إن أمثال هؤلاء الشعراء كثر في العصرين الزنكي والأيوبي ، وأسباب التوسل عندهم كثيرة ، فقد تكون دوافع نفسية ، أو شخصية ، أو مصيبة عامة ، حلت به وبأفراد الأمة ، يريد الشاعر من خلال توسله أن يوقظ همم المسلمين لأخذ العبرة من حياة الرسول حيث النفير العام لنفوس المسلمين ، ولما تحمله من حبّ لسيد البشرية ، وقد تكون المصيبة أو الكارثة طبيعية عندها يفرّ الشعراء إلى الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ طالبا للعون والشفاعة ، أو عندما تتعرّض بلاد المسلمين لاعتداء من قبل أعدائهم عندها يسارع الشعراء لطلب المعونة من الله جلّ في علاه ، ومن الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ردّا للعدوان وصدّا للأعداء وإيقاظا لهمم المسلمين للوقوف صفاً واحدا لدرء الأخطار .

الفصل الأول:

فَنّ المديح النبويّ وأثره عبر العصور

. توطئة .

. مديح الرسول في فجر الإسلام .

. في العصر الأمويّ .

. في العصر العبّاسيّ .

توطئة :

لقد احتل سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم مكانة بارزة في الشعر العربي منذ أن شاهد النور، وأبصر بعينه الحياة ، ولم يختلف الأمر بالنسبة له بعد أن تخيره الباري - عز وجل - ليحمل عبئا ثقيلا تكاد تنوء عن حمله الجبال ، ألا وهو عبء الرسالة وتبليغها للعرب أولا ، وللعالم بأسره ثانيا ، ليكون حجّة عليهم أمام الله يوم القيامة، فكان نعم المبلغ، والداعي لله بأمره ، والسراج الذي بدّد الظلمات وأزال عن العرب الغمات ، بعد أن كانوا يتخبّطون بتيهها، ويعتزّون بجاهليتها، فهو من محا الظلمة ، وأقال العثرة ، وجمع شتاتهم تحت لواء الشريعة الغراء، وتمّم ذلك بمباركة من ربّ السماء .

وبما أنّ الرسول محمدا صلى الله عليه وسلم يمثل نقطة التحول في حياة المسلمين، فقد حظي بمنزلة عالية في أدبنا العربي - شعره ونثره على حدّ سواء - فقد رسم الشعراء ملامحه في أبي صورها، لذلك نجد بأنّ المديح لازمه منذ ولادته حتى وفاته، بل ظلّ مستمرا إلى عصرنا الحاضر، والشعر الذي قيل فيه يحمل مزايا وخصائص تختلف عن الشعر الذي نظم في غيره، من حيث التقاليد الفنية والموضوعية المتبعة من جهة، والعوامل والمؤثرات التي دفعت أصحابها لمدح الرسول من جهة أخرى ، فالعوامل التي دفعت الشعراء لنظم مدائحهم في الرسول كثيرة منها ما هو ديني، ومنها ما هو اجتماعي ، أو تاريخي ، أو نفسي، وذلك تبعاً للعصر الذي عاش فيه الشاعر مع الأخذ بعين الاعتبار توالي القرون .

مديح الرسول في فجر الإسلام :

أبو طالب - عمّ النبي محمد :

يرى الباحث - دون جزم قطعي - بأنّ أبا طالب عمّ النبي هو أقدم من مدح سيدنا محمدا - صلى الله عليه وسلم - وبذلك يخالف رأي زكي مبارك عندما جعل الأعشى ميمون بن قيس أقدم من مدح الرسول⁽¹⁾ ، فقد مدح الرسول في لاميته التي عدّت من غرر

¹ - ينظر زكي مبارك ، المدائح النبوية في الأدب العربي ، 12 .

الشعر العربي ، وعدّها ابن سلام من أروع ما قال أبو طالب من الشعر ، و صححها ووصفها بالجيّدة ، إلاّ أنّه لم يحدد عدد أبياتها ، ولم ينف دخول الزيادة أو التطويل فيها من قبل الرّواة (1) ، وقد ذكر ابن كثير أنّ أبا طالب قد مدح الرسول وأفرادا من قريش كانوا يتعبّدون و يجاورون في حراء للعبادة ؛ لهذا قال أبو طالب يذكرهم في قصيدته المشهورة ، أي لاميته (2) .

وقد أورد ابن هشام مناسبة القصيدة فقال : " لما خشي أبو طالب دهماء العرب أن يركبوه مع قومه ، قال قصيدته التي تعوّد فيها بحرم مكة وبمكانه منها ، وتودد فيها أشراف قومه ، وهو على ذلك يخبرهم وغيرهم في ذلك من شعره أنّه غير مسلم رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ولا تاركه لشيء أبدا حتى يهلك دونه " (3).

ويفتتح أبو طالب قصيدته موضحا السبب إذ مكر القوم لابن أخيه ، وأرادوا النيل منه ، ولكنه يحول دون الوصول إليه ، ويقطع عليهم الطريق ، وينشد قائلا : (الطويل)

خليليّ ما أذني لأوّل عاذل	بصغواء في حقّ ولا عند باطل
خليليّ إنّ الرأي ليس بشركة	ولا نُهبّة عند الأمور التلاتل (4)
ولما رأيت القوم لا ودّ فيهم	وقد قطعوا كلّ العرا والوسائل
وقد حالفوا قوما علينا أظنة	يعصّون غيظا خلفنا بالأنامل (5)
صبرت لهم نفسي بصفراء سمحة	وأبيض ماض من تـراث المقاول (6)

ويمدح سيدنا محمدا بأبيات تحمل في ثناياها بعض صفاته ، وخصاله التي كانت شائعة في قومه وعرف بها ، فقد كان يلوذ إليه الفقراء والمساكين وقت الشدّة والحاجة ، ويبقون في رحمة ونعمة ما داموا عنده ، إذ لم يعرف عنه أنه ردّ أحدا منهم خائبا ، يقول :

1 - ينظر طبقات فحول الشعراء ، شرح محمود محمد شاكر ، 204.

2 - ينظر البداية والنهاية ، تحقيق أحمد عبد الوهاب فنيح ، 56/3.

3 - السيرة النبوية ، 169/1.

4 - التلاتل : الشدائد ، مفردتها تلتلة . الفيروز آبادي ، القاموس المحيط ، مادة (نل) 1285/2.

5 - أظنة : الرجل المتهم ، الذي لا يوثق به ، مفردتها ظنين ، مجمع اللغة العربية ، المعجم الوسيط ، مادة (ظنن) 599/2.

6 - أبو طالب ، الديوان ، تحقيق محمد حسن آل ياسين ، 70.

وأبيض يستسقى الغمام بوجهه ربيع اليتيمى عصمة للأرامل
يلوذ به الهلاك من آل هاشم فهم عنده في نعمة وفواضل (1)

ولم يكن أبو طالب ليدع فرصة إلا ويبين فيها حبه لمحمد، وينتهاز الفرصة تلو الأخرى ليجلو مكانته في قومه، ويبين فضائله النفسية والجسمية، فمحمد من نسل طيب وشرفه الله بأن ختمه بخاتم النبوة، فهو فخر لقريش ولعبد مناف، ولبنى هاشم على وجه الخصوص،
فها هو يبين فضل محمد فيقول: (الطويل)

إذا اجتمعت يوما قريش لمفخر فبعد مناف سرها وصميمها
وإن حصّلت أشراف عبد منافها ففي هاشم أشرافها وقديمها
وإن فخرت يوما فإنّ محمدا هو المصطفى من سرها وكريمها
وأقربها قربي من الله والذي به تكشف الظلماء درسا نجومها (2)

ولأبي طالب قصائد كثيرة ينافح فيها عن الرسول، بل يطلب من أولاده نصره سيدنا محمد، فهو من كفل للنبي حمايته وعصمته من قريش وبطشها وأذاها، فعندما تحاول فعل ذلك يكون لها بالمرصاد، ويعرض كثيرا بأولئك الذين نذروا أنفسهم من أجل محاربة محمد صلى الله عليه وسلم والنيل منه أمثال أبي لهب وأبي جهل، ويصل الأمر عند أبي طالب إلى حدّ القسم أن يبقى وفيا لمحمد، ففي حادثة إسلام جعفر، " أنّ أبا طالب مرّ بالرسول ومعه جعفر ابنه، وكان الرسول يصلي، وعليّ عن يمينه، فقال أبو طالب لجعفر: صل جناح ابن عمك، فجاء جعفر فصلّى مع النبي، فلما قضى صلاته قال: الله يا جعفر؛ وصلت جناح ابن عمك، إنّ الله يعوّضك من ذلك جناحين في الجنة" (3) ثمّ أنشأ أبو طالب يقول: (المنسرح)

إنّ عليا وجعفرًا ثقتي عند احتدام الأمور والكرب
لا تخذلا وانصرا ابن عمكما أخي ابن أمّي من بينهم وأبي
إنّ أبا معتب قد اسلمنا ليس أبو معتب بذئ حذب

1- المصدر السابق، 75.

2- نفسه، 175.

3- ابن حجر العسقلاني، الإصابة في تمييز الصحابة، 4/116.

والله لا أخذل النبي ولا يخذله من بني ذوحسب⁽¹⁾

ويعدّ ديوان أبي طالب بتلك القصائد التي يعبر فيها عن عواطف تختلج صدره تجاه النبي محمد صلى الله عليه وسلم، ولكن في معظمها تميل إلى السهولة، وتخلو مما هو وعبر من جهة الألفاظ والتراكيب المستخدمة، مما دفع بعض الباحثين - من أمثال محمود مكي - إلى التشكيك في صحّة كثير من الأبيات التي نسبت إلى أبي طالب خاصة قصيدته اللامية التي يمدح فيها الرسول⁽²⁾ وهي التي تحتوي البيت المشهور:

وأبيض يستسقى الغمام بوجهه ربيع اليتامى عصمة للأرامل

مع أنّ بروكلمان صحّ هذه القصيدة على اعتبار أنّ الشاعر يذكر بني هاشم أمة واحدة لم يتفرّق شملها إلى نصفين أي إلى علوية وعباسية⁽³⁾، ويرى حلمي القاعود أنّ من المبررات القويّة للقول بنحل القصيدة وعدم نسبتها إلى أبي طالب هو اقتراب القصيدة في بعض مقاطعها من المفاهيم والمعاني الإسلامية ولكنه يستدرّك قائلا: أنّ القصيدة تعطي دلالة قويّة على تلك الأواصر التي تربط بين الشاعر وابن أخيه⁽⁴⁾.

وقد أشار ابن أبي حديد إلى عمق الروابط التي كانت تجمع أبا طالب مع الرسول صلى الله عليه وسلم، فالعلاقة وثيقة، والآصرة متينة، لذلك هي خاصية شريفة، وسرّ عظيم، وكانت نتيجة ذلك أنّ خرجت تلك المدح ودواعيها⁽⁵⁾.

وأرى أنّ المقام لا يستدعي أكثر من بثّ الشاعر، وتبيان الموقف الذي يرفض فيه الشاعر بإصرار نيل قريش من محمد صلى الله عليه وسلم وشخصه، لهذا السبب لم يمسح

¹ - أبو طالب، الديوان، 171.

² - ينظر محمود مكي، أدبيات المديح النبوي، 10-11.

³ - ينظر تاريخ الأدب العربي، 1/175.

⁴ - ينظر محمد صلى الله عليه وسلم في الشعر الحديث، 27.

⁵ - ينظر شرح نهج البلاغة، 11/116.

الشاعر أبياته بمسحة الجزالة والفخامة التي وُصف بها شعره ، والضعف والركاكة ليسا بكفيلين لردّ الأبيات أو التشكيك في صحّة القصائد .

فاطمة بنت محمد صَلَّى اللهُ عليه وسلّم (1) :

اختلفت قصائد فاطمة رضي الله عنها عن سالفها أبي طالب نظراً لأنّ أبا طالب كان ينافح عن الرسول صَلَّى اللهُ عليه وسلّم، فقد كان الرسول حيّاً، بينما هلك أبوطالب وما زالت الدعوة المحمّديّة في بداياتها، بينما جاءت قصائد فاطمة الزهراء وقد ارتقت روح الرّسول صَلَّى اللهُ عليه وسلّم إلى بارئها، بذلك تميّزت قصائدها عن أبي طالب .

كانت فاطمة من أحبّ الناس إلى قلب الرسول - صلى الله عليه وسلّم - حيث كانت تعود في مرضه وخاصة مرضه الذي توفي فيه ، فقد روى البخاري حديثاً عن أنس(2) يوضح فيه آخر كلمات النبي مع فاطمة ، قال : لمّا ثقل النبي - صلى الله عليه وسلّم - جعل يتغشاه ، فقالت فاطمة عليها السّلام : واكرب أباه فقال لها : " ليس على أبيك كرب بعد اليوم " فلما مات قالت : يا أبتاه أجاب ربّاً دعاه يا أبتاه من جنة الفردوس مأواه ، يا أبتاه إلى جبريل نغاه ، فلما دفن قالت فاطمة عليها السّلام : يا أنس ، أطابت أنفسكم أن تحثوا على رسول الله - صَلَّى اللهُ عليه وسلّم - التراب .

هال فاطمة ما شاهدت ، وتمنّت لو أنها نعت قبل أن ترى صحابة رسول الله وهم يحثون التراب على جسد أبيها الطاهر ، فتفجّرت شاعريتها ، وقالت ترثيه : (الكامل)

إغبر آفاق السّماء وكوّرت شمس النهـار وأظلم العصران
فالأرض من بعد النبيّ كئيبـة أسفا عليه كثيرة الأحزان

¹ - هي سيّدة نساء الأُمّة ، وزوج الإمام علي بن أبي طالب ، ووالدة الحسن والحسين سيّدي شباب الجنّة ، فصيحة عاقلة ، أصغر بنات الرّسول - صَلَّى اللهُ عليه وسلّم - توفيت ودفنت بالبقيع ، حيث توفيت بعد والدها بستة أشهر ، وكان ذلك عام 11 هـ . ينظر عمر رضا كحّالة ، أعلام النساء ، 4/108-132 . وعباس محمود العقاد ، موسوعة العقاد الإسلاميّة ، 3/25-51 . ومحمد رضا ، الإمام علي رابع الخلفاء الرّاشدين ، 6-9 ومحمد عبد الرحيم، مقدّمة ديوان فاطمة الزهراء، 5-20..

² - البخاري ، صحيح البخاري ، 2/381 . وابن سعد ، الطبقات الكبرى ، 2/83 . و محمد الكاندهلوي ، حياة الصّحابة ، 2/327-328 . و محمد هيكل ، حياة محمد ، 500 .

فليبكـه شرق البلاد وغربها ولتبكـه مضـر و كلّ يمانـي
وليبكـه الطـود المعظـم جوّه والبيـت ذو الأستـار والأركان
يا خاتمـ الرّسـل المباركـ صنوه صلّى عليكـ منزل القرآن⁽¹⁾

فالحزن قد عمّ أرجاء الأرض بموت النبي محمد ، فمظاهر الطبيعة على اختلاف
مسمياتها تغيّرت وبكت رسول الله ، بل لم يبق منها مظهر إلا وبكى فقد الرسول ، لأنّه
حبيب الأرض ومبعوث السماء ، حمل اللواء بالحقّ ، وأسس البنيان على التقوى ، ولكنّه
رحل تاركا خلفه الأرض وقد عمّها الحزن والأسى ، وتبكيه مضر واليمن ، من مشرق الأرض
إلى عدن ، وفي قصيدة أخرى وقفت على قبره الطاهر وأردفت تقول : (البسيط)

إنـا فقدناك فقد الأرض وابلها وغاب مـد غبت عنا الوحي والكتب
فليست قبلك كان الموت صادفنا لما نعيست وحالت دونك الكتب
لقد رزينا بما لم يزر ذو شجن من البـرية لاجم و لا عرب⁽²⁾

ومحور حديثها حول الفاجعة التي حلت بالمسلمين عندما توفي الرسول صلّى الله عليه
وسلمّ ، فقد تشوّق المسلمون إلى الرسول تشوّق الأرض إلى المطر الذي لا غنى لها عنه ،
فبعد وفاته انقطع الوحي وغاب عن البسيطة التي طالما زارها زمن الرسول صلّى الله عليه
وسلمّ ، فهي تمنى من جديد أن يصادفها الموت قبل أن تحول الرمال بينه وبينها .

وتتابع فاطمة وقوفها على قبر الرسول . جريا على عادة من يفقد عزيزا على قلبه في مثل
تلك المواقف، ولكن دون لطم للخدود، أو شقّ للجيوب . وقد أخذت حفنة من التراب
فوضعتها على عينها وبكت وأنشأت ترثيه و تقول : (الكامل)

ماذا على من شـمّ تربة أحمد أن لا يشـمّ مدى الزّمان غواليا⁽³⁾

¹ - فاطمة الزهراء، الديوان، 115-117. محمد أحمد درنيقة، معجم أعلام شعراء المدح النبوي، 291-292.
و عبّاس محمود العقاد، موسوعة عبّاس محمود العقاد الإسلامية، 48/3.
² - فاطمة الزهراء، الديوان، 108-110. وينظر شهاب الدين النويري، نهاية الأرب في فنون الأدب، 5/165.
و ابن عبد ربّه، العقد الفريد، 3/238. و عمر رضا كحّالة، أعلام النساء، 114. و محمد أحمد درنيقة، معجم أعلام
المدح النبوي، 291. و محمد التونجي، شاعرات في عصر النبوة، 152-154.
³ - الغوالي : جمع غالية وهي الطيب . الفيروزآبادي، القاموس المحيط (غلي) 2/1728.

صَبَّتْ عَلَيَّ مَصَائِبَ لَوْ أَنَّهَا صَبَّتْ عَلَيَّ الْأَيَّامَ عَدَنَ لِيَالِيَا (1)

ومهما يكن من أمر فإنَّ السيِّدة فاطمة الزهراء لم تختلف عن الشعراء الذين سبقوها في فنِّ الرِّثاء، خاصَّة في بثِّ الأحاسيس ، وإنما قصدت من خلال الأبيات التي عرضت التعبير عمَّا بداخلها من حزن على المعلِّم والأب الحاني الذي سبقها إليه ملك الموت ، ولكنَّ رباطة الجأش جعلها تتحمَّل ما تنوء الجبال والليالي عن حمله ، والمعاني التي جاءت بها الأبيات لا تتعدَّى تأبين الرسول والإشادة بصفاته وكريم خصاله ، تمجيذا لذكراه وتخليدا له .

الأعشى (2):

رحل الأعشى إلى النبي - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - ليسلم ، وسرعان ما سمعت قريش بذلك فاعترضت طريقه ، وأخبرته بأنَّ الرسول سيمنعه من الخمر والزَّنا والقمار محاولة منهم لثنيه عن الإسلام ؛ لأنَّهم يعلمون ما للأعشى من تأثير في قبائل العرب ، وكان ممن سأله عن وجهته أبو سفيان بن حرب ، حيث تمكَّن من ثنيه عن طريق منحه مئة رأس من الإبل على أن يعود في العام القادم ، ولكنَّ القدر حال دون عودته فمات في الطريق بناحية اليمامة حيث ألقاه بغيره فقتله (3).

وقصيدة الأعشى التي مدح فيها الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ والتي لم يتسن للشاعر أن يلقيها بين يدي سيِّدنا محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حيث صرفته قريش ، أحدثت جدلا واسعا بين الباحثين فمنهم من أخرجها من المدائح النبوية ؛ لأنها محاولة من الشاعر لأجل

¹ - يوسف بن إسماعيل النبهاني، المجموعة النبويَّة في المدائح النبويَّة ، 55/1. و عمر رضا كحالة ، أعلام النساء ، 113. و عباس العقاد ، موسوعة العقاد الإسلاميَّة ، 49/3. و محمد أحمد درينقة ، معجم أعلام المدح النبوي ، 291.

² - هو ميمون بن قيس ، صنَّاعة العرب ، ما مدح شخصا إلا رفعه ، وما هجا شخصا إلا وضعه ، يكتئى أبا بصير ، أحد أعلام الشعر الجاهلي وفحولهم ، أدرك الإسلام في آخر عمره ولكنه لم يسلم ، كان ينكسب بشعره وفد على كثير من الملوك ومدحهم ونال عطاءهم . ينظر ابن سلام الجمحي ، طبقات فحول الشعراء ، 43. والأصفهاني ، الأغاني ، 77/8. والنويري ، نهاية الأرب في فنون الأدب ، 46/18-48. و عمر فروخ ، تاريخ الأدب العربي ، 1/221-228. و شوقي ضيف ، العصر الجاهلي ، 335-365. و ناصر الدين الأسد ، القيان والغناء ، 219-253. و محمد محمد حسين ، ديوان الأعشى الكبير ، المقدمة ، 17-47.

³ - ينظر ابن قتيبة ، الشعر والشعراء ، 257/1. و ابن هشام ، السيرة النبويَّة ، 24/2-26.

التكسب، وتخلو القصيدة من أي عاطفة دينية ، أو أي نية صادقة يحملها الشاعر اتجاه الرسول صلى الله عليه وسلم، وهذا ما ذهب إليه زكي مبارك في معرض الحديث عنها⁽¹⁾.

و منهم من ردّ على زكي مبارك حيث يقول حلمي القاعود في معرض الحديث عن القصيدة : " .. ولكننا نرى أنّ الدافع إلى هذا المدح ليس التكسب ، وإنما هو شيء من الاقتناع الداخلي أو الإعجاب بتلك الشخصية الجديدة التي فرضت نفسها على المجتمع ، وأثارت اهتمام صفوته .. " (2)

بينما يقف طه حسين موقفاً يختلف عن الباحثين الآخرين ، فهو يقطع يقينا بأن القصيدة منحولة، وعزا السبب في نحلها إلى القصاص، حيث يقول : " ولا أتردد في القطع بأن هذه الدالية التي تروى للأعشى في مدح النبي منحولة ، نحلها قاص ضعيف الحظ من الشعر ، رديء النظم ، مهلهل اللفظ قليل المهارة في النحل ، ويكفي أن تقرأ هذه القصيدة لترى أنها أسخف ما يضاف إلى الأعشى " (3) ، ويذهب محمود مكّي إلى ما ذهب إليه طه حسين في أنّها منحولة ولا يصحّ نسبتها إلى الأعشى. (4)

ويتخوّف منها محمد محمد حسين - محقق الديوان - بقوله : " ولكن العجيب من أمرها أنّ القسم الثاني منها ، الذي خصّ فيه النبي صلى الله عليه وسلم بالمدح ، يريب الباحث لسببين ، فهو أضعف بكثير من الشطر الأوّل ، يبلغ حدّ الركافة والتفاهة ، ثمّ هو متأثر ببعض آيات القرآن في معانيها أو في ألفاظها ، أو هو يصوّر الأعشى وقد ألمّ بتعاليم الإسلام إماماً حسناً ، بما يناقض زعم الرواة أنّه عاد حين علم أنّ الإسلام يحرمّ الخمر " (5) ، على أنّ البعض الآخر من الباحثين أوردتها ضمن المدائح النبوية بصرف النظر عن صحّة نسبتها إلى الأعشى أو لا ، وإنما اكتفوا بشرح مفرداتها ، وتوضيح المناسبة التي قيلت فيها. (6)

1 - المدائح النبوية في الأدب العربي ، 13 .

2 - محمد صلى الله عليه وسلم في الشعر الحديث ، 33 .

3 - في الأدب الجاهلي ، 234 .

4 - أدبيات المدائح النبوية ، 38-42 .

5 - ديوان الأعشى الكبير ، 185 .

6 - ينظر خضر عبد الله التايه وزميله ، شعراء حول الرسول ، 81-83 . و إميل ناصف ، أروع ما قيل في مديح الرسول ، 11-12 .

وبالنظر الفاحصة إلى القصيدة فإن الشاعر قصد غاية وحيدة وهي التكسب المالي من جهة ، والشهرة والصيت من جهة ثانية ، فالمعروف عن الشاعر أنه كثيرا ما كان يقصد الملوك والسادة لنيل العطاء ، فلم يكن الدافع وراء مدحه الرسول إعلان الإسلام وإنما تحقيق غاية في نفس يعقوب ، وهذا ظهر جليا عندما عاد محققا ما تمنى ، حيث الغنائم التي ظفر بها من قريش مكافأة لعودته ولعدم وقوفه بين يدي الرسول صلى الله عليه وسلم ، وإلقائه لتلك القصيدة .

والقصيدة مكوّنة من أربعة وعشرين بيتا ، يبدأها الشاعر بالحديث عن الدهر وتقلباته ، حيث حال بينه وبين النساء ، ولكنه ظلّ على صلة معه في جمع المال ، أي بمراحل عمره المختلفة ، وباستطاعته الوصول إلى أي مكان في حضرموت أو في العراق لأن المراقيل على أهبة الاستعداد وتحت الطلب ، وبفتحتها الأعشى بقوله : (الطويل)

ألم تغتمض عينك ليلة أرمدا وعادك ما عاد السليم المسهدا
وما ذاك من عشق النساء وإنما تناسيت قبل اليبوم خلّة مهيدا(1)
ولكن أرى الدهر الذي هو خاتر إذا أصلحت كفاي عاد فأفسدا
شباب وشيب وافتقار وثروة فله هذا الدهر كيف ترددا
وما زلت أبغي المال مذ أنا يافع وليدا وكهـ لا حين شبت وأمردا
وأبتذل العيس المراقيل تغتلي مسافة ما بين النجير فصرخدا(2)
فإن تسألني عني فيأرب سائل حفي عن الأعشى به حيث أصعدا(3)

ويسير الشاعر في أبياته على هذا النسق حتى يأتي على ذكر النبي محمد . صلى الله عليه وسلم . حيث وجهته ومقصده ، وعنده سيحط رحاله ، وتمتاز هذه الأبيات بالقوة والرصانة وجزالة العبارة ، وهذا ما عهد عن شعر الأعشى ، وهي تلك الأبيات التي لم يشكك في صحتها على الأغلب .

1 - مهدي : اسم امرأة ، وهو بفتح الميم ، الفيروز آبادي ، القاموس المحيط (مهد) 463/1.
2 - النجير : هو تصغير النجر ، حصن باليمن قرب حضرموت لجأ إليه أهل الردة مع الأشعث بن قيس في أيام أبي بكر . ياقوت الحموي ، معجم البلدان ، 273-272/5 . صرخد : بالفتح ثم السكون ، والخاء معجمة ، والدال مهملة : بلد ملاصق لبلاد حوران من أعمال دمشق ، وهي قلعة حصينة وولاية حسنة واسعة ، ينسب إليها الخمر . ياقوت الحموي ، معجم البلدان ، 401/3.
3 - الأعشى الكبير ، الديوان ، تحقيق محمد محمد حسين ، 185.

و عندما يصل إلى مدح النبي فهو يطلق مجموعة من الخصال التي تميّز النبي من غيره، فذكر النبي طار في البلاد، وهو يرى ما لا يرى العباد، يغمر الناس بصدقته وعطاياه التي لا تقطع ولا تمنع، فهو حقيق بأن يتبع، فهو يقول:

نبي يرى ما لا ترون وذكره أغار لعمري في البلاد وأنجدا
له صدقات ما تغبّ ونائل وليس عطاء اليوم مانعه غدا⁽¹⁾

ثم يمضي الشاعر إلى بثّ سلسلة من النصائح التي دعا إليها نبي الله، حيث أشهد الناس وأوصاهم بعدة أمور منها: التزوّد بالعمل الصّالح كي يكون رصيذا له بعد موته، وأن يتجنب أكل الميتة، وما ذبح على النصب، وعليك ألا تشرك بالله أحدا، ويدعو إلى الصّلاة في العشيّ والإصباح، وإلى الصّلاح والتعفّف خاصّة الجارة فهي محرّمة عليك فتزوّج، أو تعفّف مبتعدا عن النّساء، واقصر حمدك على الذي أوجدك، ولا تكن للشيطان تابعا، وابتعد عن السخرية والاستهزاء، واحذر من الوقوع في المحرّمات، يقول:

أجدك لم تسمع وصاة محمّد نبيّ الإله حين أوصى وأشهدا
إذا أنت لم ترحل بزاد من التقي ولاقيت بعد الموت من قد تزودا
ندمت على أن لا تكون كمثلها وأنتك لم ترصد لما كان أرسدا
فإياك والميتات لا تأكلنها ولا تأخذن سهما حديدا لتفصدا
وذا النّصب المنسوب لا تنسكته ولا تعبدا الأوثان والله فاعبدا
وصلّ على حين العشيّات والضحي ولا تحمد الشيطان والله فاحمدا
ولا السائل المحروم لا تركّنه لعاقبة ولا الأسير المقيدا
ولا تسخرن من بئس ذي ضارة ولا تحسبن المرء يوما مخلدا
ولا تقربن جارة إن سرّها عليك حرام فانكحن أو تأبدا⁽²⁾

والقارئ للأبيات السابقة يجد بونا شاسعا بين الأعشى. ذلك الشاعر المخامر والزاني. وبين الأعشى الداعية المتنسك والمتأثر بكلام الله المنزل على سيد البشرية، والأمثلة كثيرة، ففي البيتين الثاني والثالث يتأثر بقول الله - عز وجل - [وتزوّدوا فإن خير الزاد

¹ - المصدر السابق، 185-187.

² - نفسه، 187.

التقوى [(1)]، وفي الرَّابِع والخامس منها نجده يتأثر بقوله تعالى [حرّمت عليكم الميتة والدمّ ولحم الخنزير وما أهلّ لغير الله به] (2)، وفي البيت السّادس يتأثر بقوله تعالى [واذكر ربك كثيراً وسبح بالعشيّ والإبكار] (3)، وفي البيت السّابع يذكر أحقيّة السائل والمحروم في المال متأثراً بقوله تعالى [وفي أموالهم حقّ للسائل والمحروم] (4) وفي البيت الذي يليه يدعو إلى عدم السخرية من الآخرين، متأثراً بقوله تعالى [يا أيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيراً منهم] (5) .

وتلك الأبيات نعتت بالركاكة والضعف موازنة مع نظيراتها السّابقات من الأبيات التي افتتح الشاعر بهنّ مدحته ، وما حوته الأبيات من وصايا لا تخرج إلا من مسلم ، والشاعر عندما نظم قصيدته لم يكن مسلماً، ولم يذكر أنّه أسلم بل مات على كفره ؛ لهذا يمكن القول بأنّ القصيدة قد تعرّضت للزيادة والإطالة من قبل الرّواة، وعليه يكون عدد أبياتها خمسة عشر بيتاً ، إذ نخرج تلك الأبيات المشكوك في نسبتها للأعشى ، وهي آخر تسعة أبيات.

كعب بن زهير (6) :

تأخّر كعب وأخوه بجير في دخول الإسلام ، وعندما هبّ الله للإسلام أسباب الانتشار ، أسلم بجير وتخلّف كعب ، مما أوجّع الهجاء عند كعب لأخيه بجير من جهة وللرسول من جهة أخرى ، فبعث إلى أخيه يقول : (الطويل)

1 - سورة البقرة ، آية 197 .

2 - سورة المائدة ، آية 3 .

3 - سورة آل عمران ، آية 41 .

4 - سورة الذاريات ، آية 19 .

5 - سورة الحجرات ، آية 11 .

6 - هو كعب بن زهير بن أبي سلمى ، أبوه الشاعر المشهور وأمّه كيشة ، نشأ الشاعر عند أخواله من بني غطفان ، أسلم وشهد يوم الفتح مع الرسول ويوم خيبر ويوم حنين ، أحبّ الشعر وتعلّق به ورواه ، اعتنى به والده وهذب ذوقه ، توفي سنة ستّ وعشرين للهجرة . ينظر الأصفهاني ، الأغاني ، 46-38/17 . أبو علي القالي ، الأمالي ، 2/2 . و القرشي ، جبهة أشعار العرب ، 287-282 . و ابن قتيبة ، الشعر والشعراء ، 156-154/1 . و ابن سلام الجمحي ، طبقات فحول الشعراء ، 83، 81-87 . و ابن رشيق ، العمدة ، 154/2 . والنويري ، نهاية الأرب في فنون الأدب ، 310-302/16 . عمر فروخ ، تاريخ الأدب العربي ، 285-282/1 . و أحمد حسن الزيّات ، تاريخ الأدب العربي ، 109-107 . و طه حسين ، حديث الأرباع ، 1 / 114-125 . و كعب بن زهير ، ديوان كعب بن زهير ، 7-21 . وشوقي ضيف ، العصر الإسلامي ، 83-88 . والزركلي ، الأعلام ، 226/5 .

ألا أبلغا عني بجيـرا رسالة فهل لك فيما قلت بالخيف هل لك
 شربت مع المأمـون كأسا رويـة فأنهلك المأمـون منها وعلكا
 وخالفت أسبـاب الهدى وتبعته على أي شيء ويـب غيرك دلكا
 على خلق لم تـلف أمـا ولا أبـا عليه ولم تدرك عليه أخا لكا (1)

فلما بلغت هذه الأبيات بجيرا أنشدها النبيّ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فقال : صدق ! أنا
 المأمون وإنه لكاذب، قال : أجل لم يلف عليه أباه ولا أمه على الإسلام . فأجابه بجير :
 (الكامل)

من مـبلغ كعبا فهل لك في التي تلوم عليهـا باطلا وهي أحزم
 إلى الله لا العـزى ولا اللات وحده فتنجو إذا كـان النـجاء وتسلم
 لدى يوم لا ينجـو وليس بمفلت من التـار إلا طاهر القلب مسلم
 فدين زهـير وهو لا شيء دينه وديـن أبي سلمى عليّ محرّم (2)

وتحمل الأبيات السابقة تهديدا ووعيدا من قبل بجير إلى أخيه كعب يحثه على
 الإسلام ؛ لينجو بنفسه من الهلاك المحقق الذي يحيق به ، لأنّ دمه كان مستباحا نتيجة
 تعرّضه للرسول .

وبعد فتح مكّة ، ضاقت الأرض في وجه كعب ، فقرّر أن يسلم ، ويعتذر للرسول محمد
 على ما بدر منه ، وأناه بعد صلاة الفجر ، وكان الرسول لا يعرفه ، فطلب الأمان وأعلن
 الإسلام ، وألقى قصيدته بين يديه، وقال فيها : (البسيط)

بانت سعاد فقلبي اليـوم متبول متيـم إثرهـا لم يـجز مكبول
 وما سعاد غـداة البين إذ رحلوا إلا أغنّ غـضـض الطرف مكحول
 تجلو عوارض ذي ظلم إذا ابتسمت كأنه منهل بالـراح معلول (3)

1 - كعب بن زهير ، الديوان ، 25.

2 - نفسه ، 26.

3 - نفسه ، 26-27. امتدحها ابن سيّد الناس اليعمري كثيرا وشرح غريبها في كتابه منح المدح، وأورد
 أيضا تلك القصيدة التي خصّ فيها كعب بن زهير الأنصار بالمديح، وأورد كذلك مختارات يمتدح فيها كعب الرسول
 صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. ابن سيّد الناس اليعمري، منح المدح ، 254-269.

افتتح الشاعر قصيدته بوصف محبوبته حيث أطلق الصفات الحسيّة، فجمال العينين، والصّوت الرخيم، والثغر الباسم والرائحة العذبة الزكيّة، وعندما يذكر تلك الصّفات تشاهد روعة الجمال، وسحر الأنوثة، وينتقل إلى وصلها بالوعود التي لطالما تنكّنها، ويستغرق هذا الوصف ثلاثة عشر بيتا، لا غرو أن يبدأ الشاعر قصيدته بهذه المقدّمة، فهو ما زال جاهليّا دخل الإسلام حديثا، وهو لم يأت بجديد في هذه المقدّمة وإنما سار على نمط الشعر العربي الجاهلي في افتتاح القصائد، مع الأخذ بعين الاعتبار أنّ الإلقاء تمّ على مسمع النبي الدوّاق للشعر، وقد أثاب كعبا على هذه القصيدة.

ثمّ ينتقل الشاعر في مقدّمته إلى ما كان شائعا في قصائد الشعراء الجاهليين يبثون فيها المعاناة ومكابدة السّفَر، ويستغرق ذلك منه في عشرين بيت من الشعر، حيث يصف الرّحلة والرّاحلة، وما واجهه من مشقّة، مرورا بمظاهر الطبيعة المختلفة في الصّحراء من رمال وجبال، وينتقل من المقدّمة الأولى بسلاسة وسهولة، يقول :-

أمست سعــــــــــــاد بأرض لا يبلغها إلا العتــــــــــــاق النجيبات المراسيل
ولن يبلغهــــــــــــا إلا عذافرة فيها على الأيمن إرقال وتبغيل⁽¹⁾

ولا ينسى الشاعر الحديث عن أصحابه، وما كانوا يثيرون من أهوال حول سوء المآل المنتظر، والمصير الذي سيواجهه طالبا إليهم الكفّ والابتعاد عن طريقه ليواجه مصيره، فما قدرّ الرحمن مفعول لا محالة، يقول :-

يسعى الوشــــــــــــاة بجنبها وقولهم إنك يا بــــــــــــن أبي سلمى لمقتول
وقال كــــــــــــلّ خليل كنت آمله لا ألفتــــــــــــك إنّي عنك مشغول
فقلت : خلــــــــــــوا طريقي لا أبا لكم فكلّ ما قــــــــــــدرّ الرحمن مفعول
كلّ ابــــــــــــن أنثى وإن طالت سلامته يوما على آلة حدباء محمول⁽²⁾

1 - كعب بن زهير، الديوان، 30.

2 - نفسه، 37.

ويدلف إلى مدح الرسول مستعظفا وطالبا العفو والصفح ، لأنه علم ما عند الرسول من سماحة وعفو ينماز بهما عن غيره ، ويطلب من الرسول ألا يستمع لأقوال المغرضين والوشاة ، وأن يحكم القرآن بما يحتوي من تفصيل و مواعيز :

أنبئت أن رسول الله أوعدني والعفو عند رسول الله مأمول
مهلا هـدائك الذي أعطاك نافلة الـ قرآن فيها مواعيز وتفصيل
لا تأخذني بأقوال الوشاة ولم أذنب ولـ وكثرت عني الأقاويل
لقد أقوم مقام ما لو يقوم به أرى وأسمـع ما لو يسمع الفيل
لظل يرعد إلا أن يكون له من الرسولـول بإذن الله تنويل
إن الرسول لسيف يستضاء به مهند من سيفـوف الله مسلول (1)

ويختم الشاعر قصيدته بالثناء على المهاجرين ، فهم خرجوا من ديارهم ، ويصف قوتهم و بطولاتهم في المعارك ، فهم يرتدون دروعهم ، يقبلون ولا يدبرون ، يثبتون ولا يفرون ، ولا يتسلل الغرور إليهم إن هم انتصروا ، فهم نعم الأبطال :

في عصابة من قريش قال قائلهم بطن مكة لمأسلموا : زولوا
زالوا فما زال أنكاس ولا كشف عند اللقاء ولا ميل معازيل
بيض سوابغ قد شكّت لها حلق من نسج داود في الهيجا سراويل
يمشون مشي الجمال الزهر يعصمهم ضرب إذا عرد السود التناويل
لا يفرحون إذا نالت رماحهم قوما وليسوا مجازيعا إذا نيلوا
لا يقع الطعن إلا في نحورهم ما إن لهم عن حياض الموت تهليل (2)

ونلاحظ أنه قد عرض بالأنصار في البيت الرابع من الأبيات السابقة ، حيث أراد أحدهم قتله عندما وفد إلى النبي .

وكعب بن زهير في قصيدته قد سلك طريقين الأولى : هي النظرة المألوفة عند الشعراء في عصره ، حيث تحدّث عن المحبوبة والصحراء وفيها أجاد ، وبذلك يرضي نفسه وغروره

1 - المصدر السابق ، 37-40.

2 - كعب بن زهير ، الديوان ، 42-41.

شاعرا ، والثانية : ما يتعلق بالأمور الدينية ومقدار تأثيره بالمبادئ الدينية الجديدة، إذ يظهر في بعض الأبيات تأثرا واضحا بهذا الدين ، مع أنه وافد جديد ، وهذا ردّ على بعض الطاعنين حول خلو القصيدة من العاطفة الدينية، مع علمه بما يمتاز به الرسول الكريم من نبيل الصفات وكريم الأخلاق ، حيث وجد لنفسه فيها ملاذا ومفرا ومأمنا، يتخلص من خلالها للوصول إلى الاستعفاف ثمّ الصّح من النبي ، وفيها برع .

والقصيدة هذه لاقت من الشيوع والذّيوع والقبول ما قلّ نظيره في أدبنا العربيّ، وما لم تحفل به أيّ قصيدة أخرى ، فتلقفتها أيدي الشّراح والنقاد والباحثين ، حتى غدا الشعراء ينسجون على غرارها قصائد لا تعدّ ولا تحصى ، كما وحامت حولها مجموعة من الطعون والشبهات ، يجدر بنا أن نتعرّف إلى أشهرها من خلال مجموعة من آراء الباحثين الذين علّقوا عليها تعليقات لطيفة .

يعلّق زكي مبارك على القصيدة بقوله " أنّ كعب بن زهير لم يقل لاميته وهو مأخوذ بعاطفة دينية قويّة، تسمو به إلى التّصوّف ، إنّما هي قصيدة من قصائد المديح ، يقولها الرّجل حين يرجو أو يخاف ، وليست من المدائح النبويّة في شيء " (1)

ويقلل محمود مكي من أثر الشعور الديني في القصيدة، ولكنّه يلتمس عذرا للشاعر الذي كان حديث عهد بالإسلام ، وإنّما قالها الشاعر لا للإسلام ولكن ليحافظ على حياته، وأخذ يصوّر ما تملكه من شعور بالخوف من العقوبة المنتظرة. (2)

على أنّ محمود سالم محمد في حديثه عن القصيدة يذكر أنّ أهميّة الرسول ومكانته المميّزة دعت الشاعر وغيره لمدحه ، بل لإظهار المعاني الدينية في شعره، أثناء وقوفه بين يديّ الرسول. (3)

1 - المدائح النبويّة في الأدب العربي ، 15.

2 - أدبيات المدائح النبويّة ، 56.

3 - ينظر المدائح النبويّة حتى نهاية العصر المملوكي، 71-72.

وبينما نرى أنّ مخيمر صالح يعجب بها أيّما إعجاب ويقول : " تأتي هذه القصيدة لتضيف لقصيدة المديح النبويّ عناصر جديدة ، وأبعادا جديدة أيضا، فهي إضافة إلى الأثر الذي تركته فيما بعد والمتمثّل في فنّ المعارضة الشعريّة، فإنّها تركت أثرا من نوع آخر، وهو ما يتعلّق بالوقائع التي صاحبت هذه القصيدة وما خلفته وأورثته من تقاليد في قصيدة المديح النبوي، وإن اختلفت الصّورة والأشكال." (1)

وأرى أنّ هذه القصيدة كانت فتحا مبينا في ميدان المديح النبوي إذ أصبح الشعراء يتسابقون لمعارضتها (2)، والتضمين منها بأبيات أو بأشطار أبيات ، حتى غدت اللامية وكأنّها القصيدة الوحيدة التي يعتدّ بها دون سواها هذا من جهة ، ومن جهة أخرى لو لم تكن القصيدة ذات قيمة لما طرح الرسول صلى الله عليه وسلم برده على ناظمها إعجابا وتوقيرا، إذ لا يفوتنا ما كان يحمله النبي من قدرة بلاغية ، ونفسية ذواقة للشعر وعدوبته .

و بما أنّ الشاعر وافد جديد على الإسلام، فلا يحاسب على عواطف دينية متصوّفة ، لأنّه مازال متشبّعا بمعاني الجاهلية التي كان يغبّ ماءها ، ويرد حوضها، وبالتالي تجود قريحته بما تشرب ، أمّا أنّ مدحه للرسول كغيره ممن مدح به السادة والأعيان، فمن الأجدر أن تحتلّ قصائد حسّان بن ثابت - وهي قصائد تعجّ بالعواطف الدينية الجياشة وتزخر بالمعاني الإسلامية الوارفة - مكان الصدارة بدل هذه القصيدة، وورود بعض العواطف لم ينقص من مكانتها ، ولم يقلل من معارضتها ، بل على النقيض فالاهتمام والعناية ما زالت وستبقى كذلك؛ لأنّ مدحة النبوية من طراز رفيع ، والشاعر كعب فان رسم لوحة لكلّ من جاء بعده ممن مدح الرسول صلى الله عليه وسلم ، ووضع الخطوط العريضة للمدحة النبوية في قرون لاحقة .

1 - المدائح النبوية بين الصّرصري والبوصيري ، 21-22.

2 - لمزيد من المعرفة حول شرّاحها ومعارضيتها وتوثيق مواردها ينظر عبد القادر البغدادي، حاشية على شرح بانث سعاد لابن هشام. وأحمد الشرقاوي، بانث سعاد في إمامات شتى. وسعود بن عبدالله الفنينسان، توثيق قصيدة بانث سعاد في المتن والإسناد. و محمد ضياء الصابوني ، نفحات من الأدب الإسلامي، 96-113. و كتاب ابن هشام الأنصاري ، شرح قصيدة بانث سعاد.

كما ويحسب لكعب بن زهير ولقصيدته هذا الكم الهائل من تلك الكتب التي دخلت المكتبة العربية - مخطوطة (مجهولة لم تصل إليها أيدي الغيورين من أبناء العربية) أو محققة سواء كان ذلك بالشرح ، أو بالمعارضة ، أو بالتخميس ، أو بالتعليق ، فهذه إضافة علمية وأدبية يستحقّ عليها الشاعر الإشادة والتقدير ، ويجدر بنا في هذا المقام أن نورد أسماء أشهر من عارضها ، مكتفين بذكر مطالع القصائد ، ومرتبين الشعراء وفق سنة الوفاة ، ومن هؤلاء الشعراء :

1. الشماخ بن ضرار، (ت 22هـ) ومطلعها:

بانت سعاد فنوم العين مملول وكــــــــــــــــان من قصر من عهدها طول

2. عبدة بن الطبيب (ت 25هـ) ، ومطلعها :

هل جبل خولة بعد الهجر موصول أم أنــــــــــــــــت عنها بعيد الدار مشغول

3. الأخطل التغلبي ، (ت 92هـ) ومطلعها :

بانت سعاد ففي العينين مملول العقل مختبل والقلب متبول

4. محمد بن العباس أحمد الأبيوردي الأموي ، (ت 507هـ)، ومطلعها :

خاض السدجى ورواق الليل مسدول برق كــــــــــــــــما اهترّ ماضي الحدّ مصقول

5. الإمام أبو القاسم محمود الرّمخري (ت 538هـ)، ومطلعها :

أضاء لي باللسوى والقلب متبول نــــــــــــــــجديّ بــــــــــــــــرق بنار الحبّ موصول

6. أبو الحسن علي بن محمد الخوارزمي، (ت 560هـ)، ومطلعها :

أضاء برق وســــــــــــــــجف الليل مسدول كــــــــــــــــما يهــــــــــــــــزّ اليماني وهو مصقول

7. أبو الفضل عبد المحسن بن محمد التنوخي الحلبي، (ت 643هـ)، ومطلعها:

صبّ عليــــــــــــــــل وما بالرّبّع تعليل فليس إلا على الإــــــــــــــــوال تعويل

8. يحيى بن يوسف الصّصري، (ت656هـ)
ركب الحجاز ومنك الخير مأمول هل عندك اليوم للمشاق تنويل
9. شرف الدّين البوصيري (ت696هـ)، ومطلعها :
إلى متى أنت بالذات مشغول وأنت عن كل ما قدمت مسؤول
10. الشهاب أحمد بن عبد الملك المعروف بالعزّازي⁽¹⁾، ومطلعها :
دمي بأطلال ذات الخال مطلول وجيش صبّري مهزوم ومفلول
11. عز الدّين الموصلّي (ت710هـ)، ومطلعها :
هل يبرئ الصّبّ قبل الموت تقبيل فقلبه بكؤوس الشوق معلول
12. ابن سيّد الناس اليعمري، (ت734هـ) ومطلعها :
قلبي بكم يا أهيل الحيّ مأهول ووصله بأمانى الوصل موصول
13. نور الدين الحسن بن علي المصري (ت739هـ)، ومطلعها :
سلمى سلّمت ففبك الصّبّ مقتول والعدر منك شبيه الذر مقبول
14. محمد بن يوسف بن علي النفري، أبوحيان، (ت745هـ) ومطلعها :
لا تعذلاه فمما ذو الحبّ معذول العقل مختبل والقلب متبول
15. صلاح الدّين خليل الصّفي، (ت764هـ)، ومطلعها :
سلوا الدّمّوع فإنّ الصّبّ مشغول ولا تملوا فففي إملائها طول

¹ - اختلف الباحثون حول سنة وفاته، فمنهم من جعل وفاته في القرن السابع كما فعل يوسف النبهاني في المجموعة النبهانية، بينما نرى أنّ صاحب معجم أعلام شعراء المدح النبوي يورد بأنّ وفاته في القرن الثامن أي 710هـ. ويمكن القول إنّ وفاته كانت سنة اثنتين وتسعين وستمئة ن وهذا التاريخ أورده السيوطي في حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة، 440 / 1.

16. جمال الدين بن نباتة المصري ، (ت768هـ) ، ومطلعها :
ما الطرف بعـــــــــــــــــدكم بالنوم مكحول هذا وكم بيننا من ربكم ميل
17. شمس الدين محمد بن جابر ، (ت780هـ) ، ومطلعها :
بانث ســـــــــــــــــاد فعقد الصبر محلول والدمع في صفحات الخدّ مبذول
18. برهان الدين القيراطي ، (ت781هـ) ، ومطلعها :
جرح الجفـــــــــــــــــون بقذف الدمع تعديل والحبّ شاهده المجروح مقبول
19. شمس الدين الزمردى المعروف بابن الصانع (ت786هـ) ومطلعها :
دع قلبـــــــــــــــــه فهو مشغول ومشغول ودمعه فهو مطلوب ومطلول
20. عز الدين علي بن الحسين الموصلي ، (ت789هـ) ، ومطلعها :
هل يبرئ الصــــــــــــــــبّ قبل الموت تقبيل فقلبه بكــــــــــــــــووس الشوق معلول
21. علاء الدين الدمشقي ، ومطلعها :
مصون دمعــــــــــــــــي على الخدين مبذول وفيــــــــــــــــكم أنا معذور ومعذول
22. الإمام محيي الدين أبو طاهر الفيروزآبادي (ت817هـ) ومطلعها :
هل حبــــــــــــــــل عزّة بعد البين موصول أو بارق الوصل بين البين مأمول
23. جمال الدين أبو حامد القرشي المكي (ت819هـ) ومطلعها :
قلب المحــــــــــــــــبّ عن العزال مشغول فليس ينفع فيه القال والقيـل
24. الشيخ القلقشندي زين الدين عبد الرحمن محمد ، (ت826هـ) ومطلعها :
سيف العيــــــــــــــــون على العشاق مسلول وصارم اللحظ مسنون ومصقول

25. شمس الدين محمد بن حسن النواجي ، (ت 859هـ) ومطلعها :
 قلب على الحـبّ والأشواق مجبول هيهات ينفع فيه القال والقليل
26. القاضي بهاء الدين بن محمد الباعوني الشامي، (ت 916هـ) ومطلعها :
 نومي بـقـراح السهد مغسول فكيف يحصل لي من طيفكم سول
27. علاء الدين بن مليك الحموي ، (ت 917هـ) ومطلعها :
 رأى العقيق فأجـرى دمه لولو متيم دمه بالهجر مطلول
28. أحمد بن علي الحميدي الوراق المصري، (ت 1005هـ) ومطلعها:
 بانـت سليـمى ففكر الصـبّ مشغول وقلبه من لظى الهجران مشعول
29. عبد الرحمن بن حسن بن عبد الفتاح، ومطلعها :
 لي في الهـوى مذهب ما عنه تحويل وما لحبي تغيير وتبديل
30. الشيخ عبد الغني النابلسي ، (ت 1143هـ) ومطلعها :
 هل في البـروق عن الأحباب تعليل لا والذي ماله في الحكم تعليل
31. أيمن بن خالد بن محمد بن أحمد الجندي، (ت 1257هـ) ومطلعها:
 واقتك بالـعزّ خود زانها الطول بدیعة لحظها بالسحر مكحول
32. أحمد فارس الشدياق، (ت 1314هـ) ومطلعها :
 زارت سعـاد وثوب الليل مسدول فما الرقيب بغير النشر مدلول
33. يوسف بن إسماعيل النبھاني، وهي من أطول قصائد المعارضات في أدبنا العربي،
 حيث بلغت ألفاً وأربعمائة وأربعين بيتاً ، ومطلعها :
 هـواي ظبية لا بيضاء عطبول ومنيتي عينها الزرقاء لا النيل

34. أحمد بن محمد الحملاوي، (ت 1351هـ)، ومطلعها:

القلب بالحب مشغوف ومشغول والجسم بالوجـد منهوك ومهزول

ويمكن القول بأن هذه المعارضات التي ذكرت تعدّ غيضا من فيض ، و كما ذكرنا سابقا أنّ هذه القصيدة قد سارت بها الركبّان ، وعارضها صاحب كلّ بيان ، وتناقلها الرّواة مع تقادم الزّمان إلى عصرنا الحاضر .

ومن الباحثين من وقع في مغالطة أثناء إيراد تلك المعارضات عندما عدّ بعض تلك القصائد التي تختلف في رويها، ووزنها من ضمن معارضات لامية كعب، فقد أورد سعود بن عبد الله الفنسيان في كتابه الموسوم بـ (توثيق بانة سعاد في المتن والإسناد) قصيدة لعبد الله بن ظاهر بن نشوان السعدي وهي من الطويل في بحرهما، وحرف رويها الكاف، ومطلعها: [الطويل]

لقد قال كعب في النبيّ قصيدة وقلنا عسى في مدحه نتشارك
فإنّ شملنا بالجوائز رحمة كرحمة كعب فهو كعب مبارك⁽¹⁾

وهذا يخالف تعريف المعارضة التي عرفها محمد قاسم نوفل في كتابه قائلا : " يقول شاعر متأخر عن شاعر متقدّم في الزّمان قصيدة مشابهة لقصيدته بالغرض والموضوع، مع الالتزام بالوزن والقافية وحركة حرف الرّوي، وعندها تكون المعارضة تامّة"⁽²⁾.

وبذلك يمكن القول إنّها ليست معارضة لبردة كعب وبذلك نخرجها من ضمن المعارضات لأنها لا تتوافق مع شروط المعارضة .

¹ - توثيق قصيدة بانة سعاد في المتن والإسناد، 120.
² - تاريخ المعارضات في الشّعر العربيّ ، 13.

أما شعر كعب في مديح النبي فإنه لم يقف عند اللامية، وإنما ترى شعره مبثوثا في ديوانه، ولكن لم يحفل ذلك الشعر بمثل ما حفلت به اللامية، فهو يطلق بعض الصفات الحسية على النبي من مثل قوله: (مجزوء الكامل)

مسح النبيّ جينه فله بياض بالخدود
وبوجهه ديباجة كرم النبوة والجدود⁽¹⁾

حميد بن ثور الهلالي⁽²⁾

هو أحد شعراء الاعتذاريات الذين ظهروا بعد أن قويت شوكة المسلمين، وفتحت مكة المكرمة، دخل أصحابها في الإسلام، معلنين إسلامهم، ومبايعين للرسول ومعتذرين عما بدا منهم تجاه الرسول ومن ناصره، فهي محاولة منهم للتكفير عما قدمت ألسنتهم، فقبل منهم الرسول ذلك، وبذلك تحوّلوا إمّا طائعين أو كارهين، ولكنهم مع مرور الأيام دلّوا على حسن مقصدهم وعبروا عما يدور بخلداهم، فقد قدم حميد إلى النبي محمد صلى الله عليه وسلم، وأخذ ينشد قائلا: (الرجز)

أصبح قلبي من سليمي مقصداً إن خطأ منها وإن تعمداً
فحملهم كالأزما⁽³⁾ جلعدا⁽⁴⁾ تـرى العليفي⁽⁵⁾ عليها مؤكداً
حتى أرانا ربنا محمداً يتلو من الله كتاباً مرشداً
فلم نكذب وخررنا سجداً نعطي الزكاة ونقيم المسجدا⁽⁶⁾

¹ - كعب بن زهير، الديوان، 191.

² - هو حميد بن ثور بن عبد الله بن عامر الهلالي، شاعر مخضرم، عدّه ابن سلام من شعراء الطبقة الرابعة في الشعراء الإسلاميين، من الشعراء المجيدين، واسع الخيال، يغلب على شعره الوصف والغزل، توفي نحو 30 هجرية. ينظر ياقوت الحموي، معجم الأدباء، 4/175-178. و الصفي، الوافي بالوفيات، 13/193. وابن قتيبة، الشعر والشعراء، 1/390-394. والزركلي، الأعلام، 2/283.

³ - كلاً: الناقة المجتمعة الخلق الشديدة. الفيروزآبادي، القاموس المحيط (كلز) 1/719.

⁴ - جلعدا: الصلّاب الشديد. الفيروزآبادي، القاموس المحيط (جلعد) 1/402.

⁵ العليفي: رجل تنسب إليه الرحال العلافية، لأنه أول من عملها. الفيروزآبادي، القاموس المحيط، (علف) 2/1117.

⁶ - حميد بن ثور، الديوان، 77-78.

ابتدأ الشاعر حديثه عما كابده من طعنة نجلاء أصابت قلبه عن قصد أو من دون قصد ثم يتحدث عن ناقته وبيّن قوتها وشدّة تحملها ، ثمّ ينتقل إلى مدح النبي ، مظهرا ما تملك قلبه من إيمان بفضل هدي النبي العدنان ، تاليا ما أنزل الله من قرآن ، وتجد أنّه يركّز على المعاني الدينيّة ويتأثر بها تأثرا واضحا .

العبّاس بن مرداس (1):

وفد على الرسول مع قومه ، أعلن إسلامه ، ثمّ عاد إلى قبيلته وحرّق ضمادا ، ذلك الصنم الذي كان يعبده ، وأورثه له أبوه ، ثمّ عاد من جديد إلى الرسول ، وأنشد : (الطويل)

لعمرك إني يوم أجعل جاهلا ضمادا لـربّ العالمين مشاركا
وتركي رسول الله والأوس حوله أولئك أنصار له ما أولئكا
كتارك سهّل الأرض والحزن يبتغي ليسلك في وعث الأمور المسالكا
فآمنت بالله الذي أنا عبده وخالفت من أمسي يريد المهالكا
ووجهت وجهي نحو مكة قاصدا أبايع نبيّ الأكرمين المباركا
نبيّ أتانا بعد عيسى بناطق من الحقّ فيه الفصل فيه كذلكا
أمين على القرآن أول شافع وأول مبعوث يجيب الملائكا
تلافي عرى الإسلام بعد انتقاضها فأحكّمها حتى أقام المنسكا
عنيتك يا خير البرية كلها توسطت في الفرعين والمجد مالكا(2)

ويظهر في الأبيات السابقة طغيان العاطفة الدينية ، ومن خلالها يتصدى لتبيان المآثر التي خصّ بها سيدنا محمد ، فطيب المنبع والأرومة ، ويكفيه شرف أن أنزل القرآن عليه ، والشفاعة قصر عليه .

1 - هو أحد المخضرمين ، كان بدويا سيّدا في قومه ، أسلم بعد أن توجه الرسول لفتح مكة ، شارك في فتح مكة ، وكذلك اشترك في حنين ، خلد انتصارات المسلمين في قصائد كثيرة ، توفي سنة ثمانين من الهجرة . الزركلي ، الأعلام ، 267/3 . وينظر محمد ساري الديك ، العباس بن مرداس السلمي حياته وشعره ، أطروحة ماجستير مقدّمة إلى جامعة الكوفة . 1996 م .

2 - محمد أحمد درنيقة ، معجم شعراء المدح النبوي ، 198-199 .

وقد أضفى الثناء على الرسول في قصيدة أخرى ، حيث جاء بالحقّ ، وأصبح معلما للبشرية ، ونشر النور بعد كانت الأمة تعيش ظلاما دامسا ، وعندما ألقاها بين يدي الرسول كساه . صلى الله عليه وسلم . حلة على هذه المدحة ، يقول : (الطويل)

رأيتك يا خير البريّة كلها نشرت كتابا جاء بالحقّ معلما
ونوّرت بالبرهــان أمرا مدمسا وأطفأت بالبرهان نارا مضرما
فمن مبلغ عنــي النبي محمدا وكل امرئ يجـزي بما قد تكلمنا
تعالى علوا فوق عرش إلهنا وكان مـكان الله أعلى وأعظما (1)

من خلال مدائح العباس للرسول يظهر فيها أثر القرآن الكريم بجلاء ووضوح ، وقد علق محمد ساري على مدائحه النبوية بأنها منبثقة من شعور دافئ بعيد عن المراءاة، وإنما هي إعجاب بمثل سامية تعلق بها ، وآمن بصاحبها ولم يكن من وراء تلك المدائح أي مطامع شخصية أو مكاسب مادية (2).

حسان بن ثابت (3) :

شاعر الرسول الأول ، الذائد عن حياض الإسلام والمنافع عن الدعوة بكل مراحلها ، والمهاجم للخصوم ، كيف لا ؟ والرسول كان يمنحه الحرية كاملة من أجل هذه الغاية وهو الوقوف سدا منيعا في وجه الخصوم ، الذين أعلنوها صريحة في وجه الرسول والمسلمين ،

1- ابن عبد ربّه ، العقد الفريد ، 92/2.

2- العباس بن مرداس حياته وشعره ، أطروحة ماجستير مقدمة إلى جامعة الكوفة ، 1996 م .

3- حسان بن ثابت : هو حسان بن ثابت بن المنذر ، يكنى أبا الوليد وأبا الحسام ، أمّه فريضة من الخزرج ، وهو جاهلي إسلامي منقذ في الإسلام ، كان يفد إلى الملوك ليمدحهم ، شاعر الرسول الأول بلا منازع ، مات في خلافة معاوية سنة 54 هجرية ، حيث عمي في آخر أيامه ينظر ابن قتيبة ، الشعر والشعراء ، 308-305/1 .
و الصّفي ، الوافي بالوفيات ، 350/11-358 . والسبكي ، طبقات الشافعية الكبرى ، 41/2 . وابن خلكان ، وفيات الأعيان ، 351/6 . والأصفهاني ، الأغاني ، 129/4-131 . وعمر فرّوح ، تاريخ الأدب العربي ، 331-325/1 . شوقي ضيف ، تاريخ الأدب العربي ، 77-83 . ومحمد أحمد درنيقة ، معجم أعلام المدح النبوي ، 114-120 . مصطفى صادق الرافعي ، تاريخ آداب العرب ، 46/3 .

فكان أهلاً لهذه الثقة ، بل برع وتفوّق وأقام الحجّة ، ولكن بأسلوب الخصم ، بما تحمل هذه الكلمة من معنى ، وتحت بصر النبي المبارك محمد .

وعندما يقف حسان مادحا الرسول ؛ فإنه يصدر مدحه عن عاطفة دينية فيّاضة ومتأجّجة ، لا تصدر إلا منه ، ويطلق مجموعة من الصّفات المعنويّة على النبي في كلّ فرصة تسنح له ويراها مناسبة ، فهو يذكر النبي في بدر : (البسيط)

مستشعري حلق الماضيّ يقدمهم⁽¹⁾ جلد النحيــــــــــــة زة ماض غير رعديد
أعني الرسول فإنّ الله فضله على البــــــــــــرية بالتقوى وبالجود
فينا الرّســــــــول وفينا الحقّ نتبعه حتى المــــــــــــات ونصر غير محدود
ماض على الهــــــــول ركّاب لما قطعوا إذا الكماتة تحامــــــــوا في الصناديد
واف وماض شهاب يستضاء به بدر أنــــــــار على كلّ الأماجيد
مبارك كضياء البــــــــدر صورته ما قال كان قضاء غير مردود⁽²⁾

والرسول سراج منير ، وسيف صقيل ، أتى بعد فترة ليكون هاديا للبشرية ، أنذر ها من النار ، وبشر بالجنة حيث مآل الصالحين ، وهو كريم الوجه ، يزيدة جمالا خاتم النبوة ، ويعلو شرفا عندما قرن باسم ربّه ، يقول (الطويل)

أغرّ عليــــــــه للنبوة خاتم من الله مشهــــــــود يلوح ويشهد
وضمّ الإلــــــــه اسم النبيّ إلى اسمه إذا قال في الخمس المؤذّن أشهد
وشقّ لــــــــه من اسمه ليجلّه فذو العــــــــرش محمود وهذا محمد
نبيّ أتانــــــــا بعد يأس وفترة من الرّســــــــل والأوثان في الأرض تعبد
فأمسى سراجــــــــا مستنيرا وهاديا يلوح كما لاح الصّقيل المهنّد
وأنذرنا نــــــــارا وبشّر جنّة وعلمنا الإسلام فالله نحمد
وأنت إلــــــــه الخلق ربّي وخالقي بذلك ما عمّرت في الناس أشهد⁽³⁾

¹ - مستشعري حلق الماضي : أي يلبسون الدروع . الفيروز آبادي ، القاموس المحيط ، (مذي) ، 485/1.

² - حسان بن ثابت ، الديوان ، تحقيق وليد عرفات ، 128/1-129.

³ - حسان بن ثابت ، الديوان ، تحقيق عبدأ مهنا ، 54.

وأبداع حسان في همزيتها التي مدح فيها الرسول، عندما جعل منها مجالاً للإيحاء
ومصدراً للإلهام عند الشعراء العاشقين والمحبين لشخصية محمد: (الوافر)

وأحسن منك لم تر قط عيني وأجمل منك لم تلد النساء
خلقت مبرراً من كل عيب كأنك قد خلقت كما تشاء⁽¹⁾

بتلك الألفاظ المعبرة والموحية، حيث ترتاح الأذن عند سماعها، وتستقبلها بحفاوة قلّ
نظيرها من بين ألفاظ أخريات قيلت في مثل هذا الموقف، ولعمري إنها من أجمل ما
وصف بها النبي على لسان بشر، كيف لا يتحلى سيدنا محمد بتلك الصفات؟ وقد أثنى
الله عليه، ونعته بأجمل الصفات، التي يمكن لبشر أن يتحلى بها، حيث وصفه في كتابه
العزير " وإنك لعلی خلق عظیم " ⁽²⁾ ولكن يجدر بنا أن نشير إلى أن وصفه - صلى الله عليه
وسلم - أجل وأرفع من أن يحيط بها بشر، أو أن يضمها شعر و نثر .

ومسألة مدح النبي وإطلاق الصفات عليه شغلت الدارسين بين مؤيد ومعارض لذكرها،
أو التغزل بها، فالصّفي يجوز إطلاق تلك الأوصاف لأنها تحمل الحلاوة من رقة الغزل،
فالنبي بما حمل من خصائص وصفات جعلته مدعاة للتغني بها من قبل أصحابه، فقد كان
أشدّ حياءً من العذراء في خدرها، وهي لا تنفي أن يكون من النجدة والشجاعة والسبق
إلى لقاء عدوه في الغاية التي تقف دونها همم الأبطال؛ فلا ريب إذا من ذكرها والتغني
بها ⁽³⁾، وهذا ما ذهب إليه الحموي في معرض حديثه عن جمال المطلع، فقد أشار إلى
أن التشبيب مرقص للأسماع ⁽⁴⁾.

ويذهب عبد الغني النابلسي إلى ما هو مخالف، عندما يقول عن الشاعر المادح بقوله:
" يتعين عليه النظر في أحوال المخاطبين والممدوحين، ويتحرّز مما يكرهون سماعه
ويتطّبرون منه فيتجنّب ذكره، ويختار لكلّ شيء ما يناسبه ويحتشم في غزل المديح

¹ - المصدر السابق، 21.

² - سورة القلم، آية 2.

³ - الغيث المسجم في شرح لامية العجم، 272/1-273.

⁴ - ينظر خزانة الأدب، 19/1.

النبي ... ويطرح ذكر التغزل في الردف والخصر والقدر والنحر ونحو ذلك فإن سلوك هذا الطريق في المديح النبوي مشعر بقلة الأدب" (1)

أما الباحث فيذهب إلى أن المادح رهن بالمدوح ، فإذا ما تيم به وتعلق به ، فإن ذلك يكون مدعاة لاستخدام ما يطربه من ألفاظ وتعبير، حسية كانت أو معنوية ، أضف إلى ذلك أن طبيعة الإنسان وغريزته تتشوق للاستماع لما هو محبب ولا شك في أن ألفاظ الغزل عادة ما تكون مطربة .

وعندما يقف حسان منافحا عن الدعوة المحمدية ، فإنه يتصدى لخصومها مع أنهم من أقرباء الرسول ، ويعمل على سلّه كما تسلّ الشعرة من العجين ، ويتأتى له ذلك من خلال التحفيز من الرسول أولا ، ومن خلال قدرته على التلاعب بالألفاظ والمفردات التي تخيرها وفق ميزانين يوافقان طبيعة الموقف ثانيا ، فهذا حسان يمدح المصطفى وذلك قبل فتح مكة ، ويهجو أبا سفيان (2) ، وكان قد هجا النبي قبل إسلامه : (الوافر)

عفت ذات الأصابع فالجواء إلى عذراء (3) منزلها خلاء
ديار من بني الحساس قفر تعفّيها الروامس والسماء
وكانت لا يزال بها أنيس خلال مروجها نعم وشاء (4)

وفي هذه المدحة يبدأ حسان بذكر الأطلال ، جريا على عادة الجاهليين ، حيث يتذكر تلك البقاع التي لطالما ألفها وجاسها ، ومع تقادم الزمان عفت ، وأصبحت آثارا دارسة ، ويستغرق في الحديث عنها ، ثم ينتقل بسلاسة إلى تهديد قريش وما سيحلّ بها ، حيث فتح مكة ، وفيه يعزّ الله المؤمنين ، يقول :

1 - نفحات الأزهار على نسيمات الأسفار في مدح النبي المختار ، 10 .
2 - أبو سفيان : هو المغيرة بن الحارث بن عبد المطلب بن هاشم ، من رجالات الجاهلية والإسلام ، أخو رسول الله من الرضاعة ، في بداية الدعوة كان من المعادين للإسلام ، حيث هجا الرسول وأصحابه ، أسلم وحسن إسلامه ، له شعر كثير في الجاهلية هجا بالإسلام ، وشعر كثير في الإسلام هجا للمشركين ، مات سنة عشرين هجرية وصلى عليه عمر بالمدينة . ينظر الزركلي ، الأعلام ، 276/7 .
3 - عذراء : بالفتح ثم السكون ، والمد ، وهو في الأصل الرملة التي لم توطأ ، قرية بغوطة دمشق من إقليم خولان ، قتل فيها حجر بن عدي الكندي وفيها دفن ، يقربها راهط الموقعة التي حدثت بين الزبيرية وآل مروان ، وفي تلك البقاع آل جفنة الذين كانوا ممدوحين من الشاعر ، يطلب رفدهم وعطاءهم ياقوت الحموي ، معجم البلدان ، 91/4 . وينظر البكري ، معجم ما استعجم ، 161/1 .
4 - حسان بن ثابت ، الديوان ، 17-18 .

فإمّا تعـــــــــــــــــرضوا عَنّا اعتمرنَا وكان الفـــــــــــــــــتح وانكشف الغطاء
 وإلا فاصبـــــــــــــــــروا لجلاد يوم يعزُّ اللهُ فيهِ من يشاء
 وجبريل رســـــــــــــــــول الله فينا وروح القـــــــــــــــــدس ليس له كفاء
 وقـــــــــــــــــال الله قد أرسلت عبدا يقـــــــــــــــــول الحقّ إن نفع البلاء
 شهدت به فقومـــــــــــــــــوا صدقوه فقلتمـــــــــــــــــ لا نقوم ولا نشاء
 وقال الله قـــــــــــــــــد يسّرت جندا هم الأنصار عرضتمـــــــــــــــــها اللقاء
 لنا في كـــــــــــــــــل يوم من معدّ سباب أو قتـــــــــــــــــال أو هجاء
 فنحكم بالقـــــــــــــــــوافي من هجانا ونضرب حيـــــــــــــــــن تختلط الدماء (1)

وينتقل إلى توجيه نار هجائه لأبي سفيان بن الحارث ، وإلى قبيلته ، فينال منهم ، لأنّه من نذر نفسه دفاعا عن ذمار الإسلام والمسلمين ، خاصّة نبيّ الله محمدا ، ويصف لسانه في آخر القصيدة بأنه سيف مسلط على رقاب الأعداء ، وفي السّياق نفسه هو بحر لا يتكدر من كثرة الدّلاء التي تستقي منه :

ألا أبلـــــــــــــــــغ أبا سفيان عني فأنت مجـــــــــــــــــوف نخب هواء
 بأنّ سيـــــــــــــــــوفنا تركتك عبدا وعبد الـــــــــــــــــدار ساداتـــــــــــــــــها الإماء
 هجوت محمـــــــــــــــــدا فأجبت عنه وعند الله في ذاك الجـــــــــــــــــزاء
 أتهدـــــــــــــــــم وه ولسـت له بكفء فشركمـــــــــــــــــا لخيركمـــــــــــــــــا الفداء
 هجـــــــــــــــــوت مباركا براّ حنيفا أمين الله شيـــــــــــــــــمته الوفاء
 فإنّ أبـــــــــــــــــي ووالده وعرضي لعرض محمد منكمـــــــــــــــــ وقاء
 لســـــــــــــــــاني صارم لا عيب فيه وبحـــــــــــــــــري لا تكدره الدّلاء (2)

وقصيدته تظهر بجلاء قدرا كبيرا من العاطفة الدينيّة ، فهو عندما يمدح الرّسول يتخذة عنوانا للمسلمين جميعا ، فيردّ على الخصوم من المشركين ، ويستخدم سلاحا فتاكا ضدّهم أهله أن يكون مثابة وزير للإعلام . في أيّامنا هذه . عهد النبيّ ، ويلاحظ أنّ شعره

1 - المصدر السّابق ، 19-20.

2 - نفسه ، 20-21.

لم يأت للمدح من أجل المدح ، وإنما امتاز بإخلاص وصدق ، جعلت منه سيفاً مسلطاً على رقاب الأعداء .

ومن غير شك فإن شعره عدّ وثيقة تاريخية، إضافة إلى كونه وثيقة أدبية ؛ لأنه ضمن قصائده وأبياته الشعرية من الأحداث والتواريخ ما يدل على أن الشعر كان وما زال وسيبقى وعاء للتاريخ ، يرصده ويجاريه ويظل شاهداً عليه ، فها هو حسّان يسجل مواقف الأنصار الذين نصرُوا نبيَّ الله ، ويستغلّ الفرصة ليمدح النبيّ ، ويفاخر بنصرة الأنصار له ويذكر محاربة قريش : (الطويل)

ثـوى في قريش بضع عشرة حجةً يذكر لــــو يلقى صديقاً مؤاتياً
ويعرض في أهل المواسم نفسه فلم يــــر من يؤوي ولم ير داعياً
فلما أتانا واطمأنت به النوى فأصبح مسروراً بطيبة راضياً⁽¹⁾
وأصبح لا يخشى عداوة ظالم قريب ولا يخشى من الناس باغياً
بذلنا له الأموال من جلّ مالنا وأنفسنا عند الوغى والتأسيا
نحارب من عادى من الناس كلهم جميعاً وإن كان الحبيب المصافياً
ونعلم أن الله لا ربّ غيره وأن كتاب الله أصبح هادياً⁽²⁾

فقد عرض من خلال أبياته انطلاقة الدعوة الإسلامية بقيادة الرسول محمد صلى الله عليه وسلم عندما كان يعرض نفسه على القبائل داعياً ، ثم انتقل إلى المدينة مهاجراً بعد دخول الأنصار في الإسلام ونصرتهم له .

وعندما يلتحق الرسول بالرّفيق الأعلى يبكيه الشاعر متفجعاً بغير القصائد ، ويعبر فيها عن خالص المشاعر التي يكنّها للرسول ، فالتقدير والحبّ والثناء ، والتمني باللقاء ، بأن يجمعه به ربّ السماء، ويذكر أفعاله . صلى الله عليه . كما ويذكر المسجد والمنبر ، وأنّ الأرض والسماء قد وجمتا عندما سمعتا بخبر وفاته ، يقول في الدالية : (الطويل)

¹ - طيبة : بالفتح ثم السكون ثم الباء موحدة : وهو اسم لمدينة رسول الله ، وهي من الطيب ، الرائحة الحسنة لحسن رائحة تربتها فيما قيل ، وقيل : من الشيء الطيب وهو الطاهر الخالص لخلوصها من الشرك وتطهيرها منه ، وقيل : لطيب ساكنيتها ، ولأمنهم ودعتهم فيها ، وقيل : من طيب العيش بها ينظر ، ياقوت الحموي ، معجم البلدان ، 53/4 .
² - حسّان بن ثابت ، الديوان ، 1 / 254 .

بطيبة رسم للرسول ومعهد
ولا تنمحي الآيات من دار حرمة
وواضح آيات وباقي معالم
بها حجرات كان ينزل وسطها
معارف لهم تطمس على العهد آيها
عرفت بهما رسم الرسول وعهده
ظلمت أبكي الرسول فأسعدت
تذكر آلاء الرسول وما أرى
مفجعة قد شفها فقد أحمد
فبوركت يا قبر الرسول وبوركت
لقد غيبوا حلما وعلما ورحمة
فبكي رسول الله يا عين عبرة
مع المصطفى أرجو بذاك جواره
وما فقد الماضون مثل محمد

مبني وقد تغفو الرسوم وتهمد
بها منبهر الهادي الذي كان يصعد
وربوع له فيه مصلى ومسجد
من الله نور يستضاء ويوقد
أثاها البلى فالآي منها تجدد
وقبورا بها واراها في التراب ملجد
عيون ومثلاها من الجفن تسعد
لها محصيا نفسي فنفسى تبدد
فظلمت لآلاء الرسول تعدد
بلاد ثوى فيها الرشيد المسدد
عشيرة علوه الثرى لا يوسد
ولا أعرفك الدهر دمك يجمد
وفي نيل ذاك اليوم أسعى وأجهد
ولا مثله حتى القيامة يفقد⁽¹⁾

وكأني به يتخذ من وفاة النبي مسحة إنسانية ، فالبشرية جمعاء لن تأتي بمثل محمد ،
وحال الأموات السابقين لن يصلوا إلى تلك المرتبة التي وصل إليها ، ومثل هذا النوع من
الثناء لم يطرق من قبل أي شاعر آخر على عهد حسن ، وهذه القصيدة ضعفتها زكي مبارك
من الوجهة الشعرية ، ولكنه استدرك قائلا : هي من خير الشواهد على المدائح النبوية .⁽²⁾

ويعلق يوسف العظم على رثاء حسن من خلال عقده موازنة بين رثائه في الجاهلية ،
ورثائه في الإسلام بقوله : " ويكثر رثاء صادقا نابعا من قلب مؤمن محب لإخوانه ، مفجوع
بفقدهم ، حزين على فراق أحبة لا تربطه بهم رابطة من مال ولا آصرة من منفعة وإنما
رابطة عقيدة وآصرة إخاء صادق لا تنفصم عراها "⁽³⁾ .

¹ - المصدر السابق ، 457-455/1 .

² - المدائح النبوية في الأدب العربي ، 32 .

³ - شعراء الدعوة الإسلامية ، 50 .

ولا شكّ في أنّ الصّدق تآتى له من خلال إسلامه أولاً ، ومن خلال ملازمته لسيدّ الخلق ثانياً ، فقد لازم النبيّ طيلة مكثه في المدينة إلى يوم وفاته ، اكتسب منه الجرأة ، فقد كان لا يخاف في الحقّ لومة لائم ، وبالتالي فاضت قريحته الشعريّة بكاء ورثاء للنبيّ يوم وفاته ، وفي المحصلة عندما تعود إلى ديوانه ، تجد لوحات فنيّة رائعة يعج بها ، ويضمنها صفات النبيّ ومعجزاته وخصاله ، كانت بمثابة الفتح في التغني بها من قبل الشعراء بعد حسان ، ولكن بأسلوب يمتاز بالرقّة والسهولة بعيد عن التعقيد والغموض ، لتحكم بعدها أنّك تقف أمام شاعر حقيق بأن يلقب بشاعر الرسول وبلا منازع .

كعب بن مالك الأنصاري : (1)

من الشعراء الذين نذروا أنفسهم خدمة للدعوة المحمديّة ، فقد وقف شعره ولسانه من أجل ذلك ، وهو يعدّ ثالث شاعر من شعراء الرسول إلى جانب حسان بن ثابت وعبد الله ابن رواحة .

أسلم كعب مبكراً ، وشهد غزوات الرسول جميعاً إلا غزوة تبوك ، ولكنّه شمل مع صاحبيه (2) بالعفو الإلهي عندما نزلت آية التوبة (3) ، وقد أجاد في مناقضة شعراء قريش ، والذود عن حياض الإسلام ، ولشدة حبه للرسول فإنّ غالبية شعره جاء على شكل تصوير لمشاهد من حياة الرسول القائد و غزواته التي خاضها ضدّ الكفر وأهله ، وقد وصف ابن سلام كعباً بأنه " شاعر مجيد " (4) .

1 - هو كعب بن مالك بن أبي كعب بن القين كعب بن سواد ، أمّه ليلى بنت زيد ، ولد في يثرب ، شهد بيعة العقبة مع قومه وهو في الخامسة والعشرين ، فدخل الإسلام ، أخى الرسول بينه وبين الزبير بن العوام ، كان الرسول يطلب إليه أن ينشد ما قاله في الدفاع عن الإسلام ، قيل أنه توفي زمن معاوية سنة خمسين وقيل سنة ثلاث وخمسين . ينظر الأصفهاني ، الأغاني ، 27/15 . والمرزباني ، معجم الشعراء ، 342 . وعمر فروخ ، تاريخ الأدب العربي ، 323/1 . والزركلي ، الأعلام ، 228/5 .

2 - صاحباها هما : هلال بن أمية ومرارة بن الربيع .

3 - قال تعالى : " وعلى الثلاثة الذين خلفوا حتى إذا ضاقت عليهم الأرض بما رحبت وضاقت عليهم أنفسهم وظنوا أن لا ملجأ من الله إلا إليه ثم تاب عليهم ليتوبوا إن الله التواب الرحيم " التوبة ، آية 118 .

4 - طبقات فحول الشعراء ، 183 .

ويعرب كعب عن سعادته الغامرة بمجيء الإسلام ، حيث يفتخر بقومه لأنهم آمنوا ،
ونصروا الدين الجديد ، وأعزوا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وذلك بأسلوب شيق
وبيان رفيع ، يدل على قدرة شاعرية فائقة ، يقول في بدر : (الكامل)

لأنا عبــــدنا الله لم نرج غيره رجاء الجنــــان إذ أتنا زعيمها
نبي لــــه في قومه إرث عزّة وأعراق صدق هذبها أرومه
فساروا وسرنا فالتقينا كأننا أسود لقساء لا يرجى كليهما
ضربناهم حتى هوى في مكرنا لمنــــحر سوء من لؤي عظيمها
فولوا ودسناهم ببيض صوارم سواء عليــــنا حلفها وصميمها (1)

والأبيات تحفل بالمعاني الإسلامية ، فالرسول عزيز من بيت عزّ ، وقومه ركيزة من ركائز
الدولة الإسلامية ، وهم من ساعد على نشره ، وأبلوا بلاء حسنا في معارك الإسلام الفاصلة ،
فهم الأسود في ميدان الوغى ، ونالوا من أعدائهم بالصوارم والبيض .

وعندما أتت موقعة بدر ، وقف كعب متوعداً أبا سفيان بن حرب بهزيمة نكراء ستطلّ
عليهم من كداء ، عندها سيفرّ من اللقاء يقول : (الوافر)

فما حامــــت فوارسكم ببدر ولا صبــــروا به عند اللقاء
وردنــــاه بنور الله يجلو دجى الظلــــماء عنا والغطاء
رسول الله يقــــدمنا بأمر من أمــــر الله أحكم بالقضاء
فما ظفــــرت فوارسكم ببدر وما رجعــــوا إليكم بالسواء
بنصر الله روح القــــدس فيها وميكاــــل فيا طيب الملاء (2)

ويستغل معركة بدر ، حيث يشن هجوماً عنيفا على الفئة الباغية ومن ناصرها من
الشعراء ، ويبين سوء المنقلب الذي حاق بالكفار وأعوانه ، ويصوّب سهامه ضدّ سادة قريش ،
ممن قتلوا في هذه الموقعة ، فالنار مثواهم ، يقول : (الطويل)

عجبت لأمــــر الله والله قادر على مــــا أراد ليس لله قاهر

1 - ابن هشام ، السيرة النبوية ، 261/2 .
2 - نفسه ، 261/2 .

قضى يوم بدر أن نـالقي معشرا
وقد حشدوا واستنفـروا من يليهم
وسارت إلينا لا تحـاول غيرنا
وفينا رسـول الله والأوس حوله
وجمع بني النـجار تحت لوائه
فلما لقيناهم وكلّ مجاهد
شهدنا بأنّ الله لاربّ غيره
وقد عرّيت بيض خفاف كأنها
بهنّ أبـدنا جمعهم فبتدّوا
فكـبّ أبوجهل صريعا لوجهه
وشبـبة والتميمي غادرن في الوغى
فأمسـوا وقود النار في مستقرّها
تلظّـى عليهم وهي قد شبّ حميها
وكان رسـول الله قد قال أقبلوا
لأمـر أراد الله أن يهلكوا به
بغـوا وسليل البغي بالناس جائر
من النّـاس حتى جمعهم متكاثر
بأجمـعها كعب جميعا وعامر
له معقـل منهم عزيز وناصر
يمشـون في الماذي والنقع ثائر
لأصـحابه مستبسل النفس صابر
وأنّ رسـول الله بالحقّ ظاهر
مقاييس يزهيها لعينيك شاهر
وكان يلاقـي الحين من هو فاجر
وعتـبة قد غادرنه وهو عائر
وما فيهم إلا بـذي العرش كافر
وكلّ كفور في جهنّم صائر
بزبر الحـديد والحجارة ساجر
فولّـوا وقالوا: إنما أنت ساحر
وليس لأمـر حمّه الله زاجر (1)

وبعد موقعة أحد يقف كعب ليردّ على هبيرة بن أبي وهب المخزومي ، حيث تتجلى
فيها روعة التصوير في طاعة المسلمين لرسول الله والتفافهم حوله ، والدفاع عنه ، وهم لا
يفعلون ذلك إلا من أجل التقربّ وكسب رضا الرّب يقول : (الطويل)

وفيـنا رسول الله نتبع أمره
تدلّى عليه الرّوح من عند ربّه
نشاوره فيـما نريد وقصرنا
وقال رسـول الله لما بدوا لنا
وكونوا كمن يشري الحياة تقربّا
إذا قال فينا القول لا نتطلّع
ينزل من جـو السماء ويرفع
إذا ما اشتهى أنا نطيع ونسمع
ذروا عنـكم هول المنية واطمعوا
إلى ملك يحيا لديه ويرجع (2)

1 - كعب بن مالك، الديوان، 46-48.

2 - نفسه ، 58-63.

ويقف كعب في غزوة الخندق موقفا بطوليا ، يظهر قدرا كبيرا من الالتزام الديني، يفتّ في عضد الكفار ، ويكرّ عليهم ويتحدّاهم في ساحة المعركة ، ويذكر صنوف العتاد الذي جهّزه المسلمون للانقضاء على الأعداء ، ويثني على المجاهدين الذين ناصروا الرسول ، وأسلموا أنفسهم لله طائعين ، وسلكوا طريق النصر، والله ناصرهم لا محالة ، يقول :

(الكامل)

من سرّه ضرب يجمع بعضه بعضا كعمعة الأباء المحرق
فليأت مأسدة تسن سيوفها بين المذاذ وبين جـزع الخندق
دربوا بضرب المعلمين وأسلموا مهجرات أنفسهم لربّ المشرق
في عصبنة نصر الإله نبيه بهيم وكان بعيدة ذا مرفق
في كلّ سابعة تخط فضولها كالنهي هبت ريحه المترقّق (1)

ويتخذ كعب من موقعة الخندق مسلكا للردّ على شعراء قريش ويهاجمهم، فقد تصدّى لابن الزبيري(2) في البائية قائلا : (الكامل)

أبقى لنا حـدث الزمان بقبية من خير نحلة ربنا الوهاب
بيضاء مشرقية الذرا ومعاطنا حمّ الجذوع غزيرة الأحلاب (3)

فهو يبدأ قصيدته بالحديث عن المدينة المنورة ويبين جمالها، وكيف حماها الله سبحانه من الأعداء ، ثمّ ينتقل الشاعر إلى وصف الخيل ، حيث أفاض في وصفها بشكل دقيق ، ثمّ يصف أبطال المسلمين ويعدّد تشكيلات الجيش ، ويدخل في وصف السلاح ، ثمّ يمدح النبيّ الكريم ويشيد بالنعمة الكبرى التي أسبغها عليهم الإسلام ، ثمّ يختتم بالبيت الذي أعجب به الرسول أيّما إعجاب ، يقول :

ومـواعظ من ربنا نهدي بها بلسان أزهر طيب الأثواب

¹ - المصدر السابق ، 75-76.

² - هو عبد الله بن الزبيري بن قيس، أحد شعراء قريش المعدودين ، كان يهجو المسلمين ويهاجمهم ، وكان شديد العداوة للرسول ، كان يهاجي حسان بن ثابت وكعب بن مالك ، ولكنه أسلم واعتذر للرسول فقبل اعتذاره، توفي في عهد عمر بن الخطاب، سنة 15 هجرية ، له ديوان شعر في المديح والهجاء . ينظر الصفدي ، الوافي بالوفيات ، 170/17. والزركلي، الأعلام ، 4/87. وعمر فروخ، تاريخ الأدب العربي ، 1/268. ومحمد أحمد درنيقة، معجم أعلام شعراء المدح النبوي ، 204-206.

³ - كعب بن مالك، الديوان، 26-27.

عرضت علينا فاشتهدنا ذكرها من بعد ما عرضت على الأحزاب
 حكما يراها المجرمون بزعمهم حرجا ويفهمها ذوو الأبواب
 جاءت سخينة كـي تغالب ربها فليعلمن مغالب الغلاب (1)

ولشدة إعجاب النبي بالبيت الأخير قال " لقد شكرك الله يا كعب على قولك هذا " (2)،
 ففي هذا البيت الأخير يبين كعب ما وصلت إليه قريش من غرور ، فقد عميت بصيرتها؛ لأنها
 أرادت الوقوف نداً لله ، ومن يفكر في ذلك فمصيره الخذلان والذل والهزيمة ، لأن الله
 غالب لا محالة .

ويغلب على شعر كعب في مديحه للرسول هالات دينية أخاذة تدل على قدر كبير من
 الالتزام الأخلاقي اتجاه النبي وحبّه المتغلغل في صدر الشاعر ، ونأى كعب بنفسه عن
 الألفاظ الجافية والمعقدة ، ولو أن كعباً لم يقل غير البيت إلي أعجب به الرسول لكفاه .

عبد الله بن رواحة (3):

لقد وقف ابن رواحة إلى جانب حسن وكعب بن مالك في الذود عن الإسلام ، وفي
 مهاجاة الكفار ، فكان يعيرهم بالكفر وعبادة الأوثان ، لكنهم كانوا يستخفون بهجائه في
 بادئ الأمر ، ولكن عندما أسلموا كان وقع الهجاء عليهم شديداً .

مدح عبد الله رسول الله مدائح عديدة ، وكان كثيراً ما يعنف قريش على عصيانها
 للرسول ، ويظهر قدراً كبيراً من المحبة والتوقير لهذا النبي ، قال يهجو أبا سفيان بن حرب
 بعد بدر : (الطويل)

1 - المصدر السابق ، 27-28. وسخينة هي قبيلة قريش .
 2- ابن سلام الجمحي ، طبقات فحول الشعراء، 222. وينظر معاذ السرطاوي وزميله، مختارات من الشعر
 العربي، 68-79. حيث شرحت القصيدة وعلق عليها تعليقات لطيفة .
 3- هو أحد النقباء الاثني عشر، أسلم وشهد بيعة العقبة الثانية ، كان كاتباً للرسول ، وبطلا مغواراً في الدفاع عن
 حامي الإسلام ، ومشهوراً بمحبته للرسول استشهد في معركة مؤتة سنة 8 هجرية . ينظر الصفدي ، الوافي
 بالوفيات، 17/168-170. وابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب، 1/12. وعمر فروخ ، تاريخ الأدب العربي ،
 262-261/1. وخالد محمد خالد ، رجال حول الرسول ، 206-209.

وعدنا أبـــــا سفيان بدرا فلم نجد لميعـــــاده صدقا وما كان وافيا
فأقســـــم لـــــو وافيتنا فلقيتنا لأبت ذمـــــيـــــما وافتقدت المواليا
تركنا به أوصـــــال عتبة وابنه وعمـــــرا أبا جهـــــل تركناه ثابوا
عصيتم رســـــول الله أف لدينكم وأمركـــــم السيئ الذي كان غاويا
فإنـــــي وإن عنقتموني لقائل فدى لرســـــول الله أهلي وماليا
أطعنـــــاه لم نعدله فينا بغيره شهابا لنـــــا في ظلمة الليل هاديا (1)

وعندما استشهد حمزة بن عبد المطلب في أحد، أخذ عبد الله يبكيه ويثبت من عزيمة الرسول حيث استشهد عدد من الصحابة - رضوان الله عليهم - . وها هو يمدح الرسول بأبيات في غاية الروعة، يذكر فيها بأنه وحي من الله ، وأفعاله كلها حسنة جميلة ، ويذكر بأن الأيام دول، يقول: (الوافر)

بكت عينـــــي وحق لها بكاهها وما يغنـــــي البكاء ولا العويل
على أســـــد الإله غداة قالوا أحمزة ذاكـــــم الرجل القليل
ألا يا هاشـــــم الأخيار صبرا فكل فـــــالكم حسن جميل
رســـــول الله مصطربر كريم بأمرـــــر الله ينطق إذ يقول
ألا مـــــن مبلغ عني لؤبـــــا فبعـــــد اليوم دائلة تدول (2)

ومن جميل نظمه في الخندق ، يقول: (الرجز)

والله لـــــو لا أنت ما اهتدينا ولا تصـــــدقنا ولا صلينا
فأنزلـــــن سكنة علينا وثبت الأقســـــدام إن لاقينا
إن الذيـــــن قد بغوا علينا إذا أرادوا فتنة أينا (3)

وعندما يمدح عبد الله بن رواحة الرسول - صَلَّى الله عليه وسلم - فإنه يذكر كثيرا من الصفات المعنوية ، التي كان يتصف بها ، ويكررها تأكيدا لتمييز النبي عن سواه ، فهذا عبد

1 - ابن هشام ، السيرة النبوية، 125/3.

2 - نفســـــه ، 89/3.

3 - نفســـــه ، 210/3.

الله يتهياً للخروج إلى مؤتة بمعية جيش المسلمين ، يأتي إلى الرسول ليودعه قائلاً :
(البسيط)

فثبت الله ما آتاك من حسن تثبيت موسى ونصرا كالذي نصرنا
إني تفرست فيك الخير نافلة الله يعلّم أني ثابت البصر
أنت الرسول فمن يحرم نوافله والوجه منه فقد أرزى به القدر(1)

وعبد الله بن رواحة لا يختلف عن حسان بن ثابت وكعب بن مالك في مديحه للرسول، وإنما تشعر بأن العاطفة الدينية تسيطر عليه وتملكه عن الآخرين ، وهذا يدل على عمق حب الرسول عنده ، أما مفرداته وألفاظه فقد جاءت موافقة للرسم العام الذي اختطه سابقه كعب في البعد عن الوعورة والتعقيد، ومع ذلك لم تنزل إلى حد الإسفاف أو الوضاعة ، وإنما جاءت مؤدية للغرض .

ومهما يكن من أمر فإن الملاحظ على شعر المديح النبوي الذي تأجج أواره في عصر الرسول والخلفاء الراشدين ، قد أخذ مناحي عدة :

. فمنه ما جاء على شكل مديح الأعيان والرؤساء وكان الغرض منه كسب النوال والعطايا مثلما فعل الأعشى في مدحته ، حيث خلت من أي عاطفة دينية، وكان الميزان فيها يميل إلى الجاهلية، وهذا يتوافق مع ما أشار إليه صلاح عيد بقوله " وليس المديح إلا واحدا من صور النشاط الفني، وإذا تأملناه في الشعر العربي وجدناه في صورته العادية أو الشائعة يتضمن غاية مزدوجة دائما هي غاية الممدوح وغاية المادح، وغاية الممدوح هي غاية سياسية في أغلب الأمر، وربما أضيفت إليها غايته من إرضاء حاجة النفس الإنسانية إلى الإطراء، أما غاية المادح ففضلا عما يتغياها من تكوين مشاعر مرغوبا فيها تجاه ممدوحه، فإنه لا يتورع عن التصريح المباشر بغايته الاقتصادية الأولى والسياسية"(2) .

. ومنه ما جاء على شكل اعتذار واستعطاف لكسب ثقة الرسول ، وللدخول في الدين

1 - المصدر السابق، 7/4.

2- صلاح عيد، مديح الرسول في فجر الإسلام ، 30.

الإسلامي ، وطلب العفو والصفح عمّا سلف ، ويمثل هذه الطائفة من الشعراء كعب بن زهير ، وحميد بن ثور الهلالي ، غير أنه يمكن القول إنّ شعر الوافد الجديد إلى الإسلام لم يكن يحتوي تلك العواطف أو المظاهر الدينيّة ، أو المعاني الإسلاميّة التي ظهرت عند الشعراء الذين كانوا محسوبين على الرسول ، وكانوا من السّباقيين إلى الإسلام ، وأبدعوا في ميادينه.

- ومنهم أولئك الشعراء الذين كان لهم السبق إلى الإسلام ، وتأثروا به تأثراً عظيماً ، ظهر هذا التأثير في المعاني التي طرقتها ، وهي بمجملها معان دينيّة خالصة ، تدل على تدين من جهة ، وتدل على ما تملك هؤلاء الشعراء من حبّ لشخص النبيّ صلّى الله عليه وسلّم ، بل غدوا متأثرين بنهجه وأقواله وتصرفاته ومستمدّين القوّة والعزيمة منه ، وبذلك التزموا تعاليم الإسلام ، مع أننا لا يجب أن ننسى أنهم مزجوا في مدحهم للرسول ما بين القديم الموروث ، والجديد المستحدث ، مطوّعين بذلك ملكتهم الشعريّة خدمة للإسلام والمسلمين ، ومصوّبين نار ألسنتهم إلى كلّ من يقف في وجه هذا الدين .

وبذلك نجد تبايناً من وراء مديح الشعراء في هذه الحقبة للرسول الكريم ، فمديح حسّان يختلف اختلافاً كبيراً عن مديح كعب بن زهير والأعشى ، مع كلّ ما نالته قصيدة كعب من استحسان وقبول وشيوع وذيوع عند الشعراء المقلّدين والمعارضين ، وهذا الكلام ينسحب على الاختلاف بين مديح الأعشى للرسول ومديح كعب بن مالك وعبد الله بن رواحة .

ويبقى أن نضيف أنّ هذه الحقبة كانت الرائدة والسّابقة ، بل القدوة والمثال المحتذى للشعراء الذين جاؤوا بعدها من حقب في ميدان المديح النبوي ، فقد أوجدت قصيدة كعب ساحة فسيحة للمعارضة ، وهكذا الحال بالنسبة إلى همزيّة حسّان التي عدّت من عيون المديح النبوي .

العصر الأموي :

وفي العصر الأموي تحديداً خفّ أوار مدح الرسول عن العصر السابق ، غير تلك المساجلات التي حاول فيها الشعراء ربط أنساب الممدوحين بالرسول ، وبذلك نخرج تلك القصائد التي مدح بها آل النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وعترته من فنّ المدائح النبويّة، نظراً لأنّ الشعراء عندما نظموا تلك القصائد سعوا لغاية محدّدة، وهي الانتصار لفريق على آخر ، وتبيان لأحقّيّة الانتساب إلى النبيّ محمد، ومن الشعراء الذين نحوا هذا المنحى الكميّت بن زيد في مديحه للهاشميين، وبيانه لأحقّيتهم بالخلافة على حساب الأمويين ، ويجدر بنا أن نشير في هذا المقام إلى المغالطة التي وقع بها زكي مبارك عندما جعل مدح آل البيت جزءاً من كتابه وضرب على ذلك أمثلة من شعر الفرزدق في مدح علي بن الحسين، والكميت في مدحه لآل النبي(1).

لذلك يجدر بنا التنويه إلى أنه لم يعثر على قصائد مستقلة في مدح الرسول في العصر الأموي، إلا في بعض القصائد فقد ذكر في بيت أو بيتين من الشعر، ونستثني كذلك الكميّت الذي مدح الرسول ببائّته ، ويمكن أن يعزى هذا الأمر إلى طبيعة العصر وما حمل من نزاعات، وخصومات، ومناحرات، ومفاخرات أبعدت الشعراء قليلاً عن النظم في المديح النبوي .

الكميت بن زيد (2):

يطالعنا الكميّت بقصيدته البائيّة التي بلغت (138) بيتاً، استغرق وصف الناقة(27) بيتاً، ثمّ انتقل إلى بكاء آل البيت ، ووصف مقتل الحسين، ويعبّر عن حبّه لآل النبيّ ولكن بأسلوب يحمل نزعة المتصوّفين، ثمّ انتقل إلى هجاء الأمويين، مصوراً ظلّمهم واستبدادهم،

1 - ينظر المدائح النبويّة في الأدب العربي، 39- 74.
2 - هو الكميّت بن زيد بن خنيس بن مخالد ، شاعر مقدّم ، عالم بلغات العرب، خبير بأيّامها من شعراء مضر، كان معروفاً بالنتشيع لبني هاشم ضدّ الأمويين ، تعدّ قصائده الهاشميّات من خير شعره وأجوده ، توفي سنة ست وعشرين ومائة هجرية . ينظر الأصفهاني، الأغاني، 113/15-130. وابن قتيبة ، الشعر والشعراء، 581/2-584. وعمر فروخ، تاريخ الأدب العربي، 704-697/1. وشوقي ضيف، العصر الإسلامي، 329-323. ومحمد عبد المنعم خفاجة، الحياة الأدبيّة في العصر الأموي ، 215-191.

والقصيدة أصلاً مخصصة لمدح آل البيت الكرام، ولكنها حملت في ثناياها كثيراً من صفات النبي، ومآثره التي تميّزه من بقية الخلق، ويصغ الشاعر معانيه بحلة دينية، وبثوب سار على نهج الشعراء من بعده، يقول فيها: (المنسرح)

فاعتَب الشُّوق من فؤادي وال شعري من إليه معتب
إلى السراج المنير أحمد لا يعيدني رغبة ولا رهب
عنه إلى غيره ولو رفع الذّاس إلى العيون وارتقبوا
إليك يا خير من تضمّنت ال أرض وإن عاب قولي العيب
لجّ بتفضيلك اللسان ولو أكثر فيك الضجّاج واللجب
أنت المصطفى المهذب المحض في الذّسبة إن نصّ قومك النسب
والسابق الصادق الموفق وال خاتم للأنبياء إذ ذهبوا
والحاشر الآخر المصدق لل أول فيما تناسخ الكتب
يا صاحب الحوض يوم لا شرب لل وارد إلا ما كان يضرب
نفسى فدت أعظمًا تضمّنها قبرك فيه العفاف والحسب⁽¹⁾

وقد عاب الجاحظ على الكميت قوله لتلك الأبيات، أو حتى استخدامه لتلك المعاني في مديحه للرسول، لأنه اعتبر مدحه للنبي بهذه الصورة كمن مدح الأمويين وعابه هاشميًّا لأنه جائز، أو العكس، وقد عدّه من المدح الخطأ.⁽²⁾

ويذهب الكميت إلى مباركة القبر الذي ضمّ الرسول، مثنيا عليه لأنه حوى الحزم والسّماحة والبرّ، يقول:

وبورك قبر أنت فيه وبوركت به ولله أهل بذلك يثرب
لقد غيّبوا برًّا وحزمًا ونائلًا عشية وارك الصفيح المنصب

ويعلق الجاحظ بقوله: "فلو كان لم يمدحه عليه السلام إلا بهذه الأشعار التي لا تصلح في عامّة العرب. لما كان ذلك بالمحمود"⁽³⁾

¹ - الكميت بن زيد، الهاشميات، 51.

² - ينظر الجاحظ، الحيوان، 5/169-170.

³ - نفسه، 5/171.

ويرد المرتضى على الجاحظ بأن ظاهر الأبيات خطاب للنبي صلى الله عليه وسلم ، ولكن المقصود هم آله رضوان الله عليهم ولأن المسلمين لا يمتنعون عن الإطناب في وصف النبي وتفضيله، وتعنيفه، وبذلك لا يعنفهم أحد ، وبذلك هو أراد آل النبي في حشد الصفات وتعنيفهم، فوجه القول إلى النبي صلى الله عليه وسلم (1).

ويبدو من خلال تفسير المرتضى لشعر الكميت أنه قد سلك طريق المديح النبوي خوفا من تعنيف الأمويين له ، وبذلك وظف حديثه عن النبي من خلال ذكره لصفاته توظيفا آخر، ظاهره مديح للرسول وباطنه مناصرة لمبدئه الذي نهجه، وإذا ما عناه المرتضى صحيحا يمكن الحكم بأن العاطفة التي ظهرت في الأبيات لم تكن الغاية منها تمجيد النبي، وإنما كانت سترا وغطاء لبت مقدار من الحب لآل النبي .

العصر العباسي:

في هذا العصر تواصلت الخلافات المذهبية، والطائفية التي طفت على السطح منذ بداية العصر الأموي، وانتشرت تيارات متناقضة ، وبرز شعراء مناصرون ومؤيدون، وآخرون كانوا على النقيض، ولكن على صعيد المدحة النبوية بقي الحال على ما كان عليه عند الأمويين، فلم تقصد لذاتها، على الأقل في العصر العباسي الأول، وإنما ظهرت على شكل أبيات ضمن قصائد تشترك فيها موضوعات مختلفة، ولكن سرعان ما بدأت تستقل شيئا فشيئا، ثم بدأت تطفو على مسرح الشعر قصائد كان الغرض منها المديح النبوي لذاته فقط .

¹ - ينظر أمالي المرتضى ، 80/2.

أبو العتاهية (1):

بالنظر إلى ديوانه فإننا نلاحظ طغيان الزهد بشكل لافت، وبغض النظر عن الطعونات الكثيرة التي وجهت إلى زهده، فلا ريب أن نذكر أن الشاعر قد أجاد وبرع فيه، وتدفتت التقوى والحكمة على لسانه، بأسلوب ملؤه الرصانة والجزالة، ولكنه في الوقت نفسه لا يتعد عن معجم الكلام الدارج بين أوساط الشعب، ويظلمه بمسحة من التضرع، لهذا كانت تتلقفه الأسماع كما الظمان الذي يحتاج إلى الماء البارد، ليطفئ ظمأه .

وقد أورد الصولي قطعاً لأبي العتاهية يمدح فيها الرسول، حيث أكرم الناس ببعثه، ويذكر الناس بالواجب الملقى على عاتقهم تجاه الرسول، ويلتفت إلى الشعراء يدعوهم إلى توجيه مدحهم إلى الرسول بدلاً من مدح الناس والبشر، يقول: (الرملة)

يا بني آدم صــــونوا دينكم	ينبغي للديــــن ألا يطرح
واحمــــدوا الله الذي أكرمكم	بنبي قــــام فيكم فنصح
بنبي فتــــح الله به	كل خيــــر نلتمــــوه وشرح
مرسل لو يــــوزن الناس به	في التــــقى والبرّ شالوا ورجح
فرســــول الله أولى بالعلا	ورســــول الله أولى بالمدح (2)

بأسلوب التقرير والنقد اللاذع الذي عرف به أبو العتاهية، وجه سهام نقده لفريقين، طالبا منهما نصره محمد صلى الله عليه وسلم مع ضرورة اتباعه، والسير على نهجه، وتوجيه مدحهم له دون سواه؛ لأنه القمين بذلك المدح .

¹ - هو إسماعيل بن القاسم، من أعلام الشعر في العصر العباسي الأول، اتصل بالهادي والرشيد، نظم كثيراً من الأشعار في التصوف وأبدع فيه، كان أحد الشعراء المطبوعين، وهو ممن يكاد أن يكون كلامه كله شعراً، توفي سنة مائتين وثلاث عشرة ينظر ابن قتيبة، الشعر والشعراء، 2/791-795. وبروكلمان، تاريخ الأدب العربي، 2/34-36. وشوقي ضيف، العصر العباسي الأول، 237-253. وأنيس المقدسي، أمراء الشعر العربي في العصر العباسي، 149-181.

² - الموصلي، أبو العتاهية أشعاره وأخباره، 100. ولم أعتز عليها في ديوانه .

وفي قطعة أخرى نجد أبا العتاهية يقف بين يدي الرسول راثيا، ومستحضرا شخصيته الكريمة، وكأنّ الرسول ارتقى إلى العلا في عهده، ويظهر الشاعر قدرا من العاطفة القويّة وهي عاطفة الحزن الشديد لفقد الرسول، ويظهر لنا أنّ أبا العتاهية من الشعراء القلائل الذين رثوا رسول الله بعد مرور قرنين على وفاته، وهذا يدل على مدى تأثره بشخص النبي، ويحمل ردّا على أولئك الذين وصفوا أبا العتاهية بالزندقة، يقول: (الطويل)

سلام على قبر النبي محمد	نبي الهدي والمصطفى المؤيد
نبي هدى الله بعد ضلالة	به لم نكن لولا هداه لهتدي
فكان رسول الله مفتاح رحمة	من الله أهداها لكلّ موحد
وكان رسول الله أفضل من مشى	على الأرض إلا أنّه لم يخلد
شهدت على أن لا نبوة بعده	وأن ليس حيّ بعده بمخلد ⁽¹⁾

ويذكر النبي صلى الله عليه وسلّم بعد زيارته للحرمين ، ويركّز على الصفات العظيمة والظاهرة التي تميّز النبي صلى الله عليه وسلّم ، ويركّز على المكان لما يحمل من خصوصيّة، فمجرّد الزيارة ، هيجان للعاطفة، وتخليد للذكرى التي تهيج البكاء والنحيب على قبر النبي الكريم، يقول: (الطويل)

ليبك رسول الله من كان باكيا	ولا تنس قبورا بالمدينة ثاويا
جزى الله عنّا كلّ خير محمدا	فقد كان مهديا دليلا هاديا
ولن تسري الذكرى بما هو أهله	إذا كنت للبر المطهر ناسيا
أتسى رسول الله أفضل من مشى	وآثاره بالمسجدين كما هيا
تكدّر من بعد النبي محمد	عليه سلام الله ما كان صافيا ⁽²⁾

ونلاحظ أنّ الشاعر في رثائه يركّز على عبارة (أفضل من مشى) وما هذا إلا تبيان لتعلقه بشخص النبي، ويختتم مقطوعته بالسلام على النبي، وعلى هذا النسق أخذ الشعراء يختمون مدائحهم فيما بعد .

¹ - المصدر السابق، 116.

² - نفسه، 433.

الحسن النيسابوري (1):

يقف أمام عظمة الخالق - عز وجل - ذاكرا ومسبحا ، وينتقل إلى تعداد خصال النبيِّ ومجزاته الباهرة ، حيث أشرقَت الأرض وعمَّ النور ، يقول : [المنسرح]

سبحان من ليس في السماء ولا في الأرض نـدَّ له وأشباه
أحاط بالعالمين مقتدرا أشهد أن لا إله إلا هو
وخاتم المرسلين سيِّدنا أحمد ربَّ السَّماء سَمَّاه
أشرقَت الأرض بعد بعثته وحصَّص الحقَّ من محيَّاه (2)

من خلال الأبيات السابقة يظهر مدى تأثر الشاعر بنور العقيدة الإسلامية، فالإيمان بالله، فهو الخالق المتفرد جلَّ في علاه ، والإيمان بالهدي النبوي، فنوره جعل الحقَّ يبين، من بعد بعثته رسولا من ربِّ العالمين .

مهيار الديلمي (3):

عندما أسلم مهيار ، ونور الله قلبه بالإسلام ، وقف يفاخر أهل ملته التي كان عليها، ويدعوهم إلى أن يحذوا حذوه ، ويعتقوا الإسلام ، ويمدح الرسول في ثنايا أبياته، يقول:
(المتقارب)

وبلَّغَ أَخَا صَحْبَتِي عَنْ أَخِيكَ عَشِيرَتَهُ نَائِيًّا أَوْ قَرِيبًا
تَبَدَّلَتْ مِنْ نَارِكُمْ رَبَّيْهَا وَخَبَّتْ مَوَاقِدَهَا الْخُلْدَ طِيْبًا

1 - هو أبو علي ، أديب نبيل ، وشاعر مصنّف ، من خوارزم ، شيخ أبي القاسم الزمخشري ، أديب فقيه فاضل وله نظم ونثر ، توفي سنة اثنتين وأربعين وأربعمائة هجرية . ينظر ياقوت الحموي ، معجم الأديباء ، 408/3-412. والصفدي، الوافي بالوفيات، 271/12. والسيوطي، بغية الوعاة ، 526/1.

2 - ياقوت الحموي ، معجم الأديباء ، 409/3.

3 - هو أبو الحسن مهيار بن مروزيه الديلمي الفارسي الأصل، انتظم في سلك الشيعة بعد إسلامه ، عمل كاتباً في ديوان الخلافة، أغلب شعره تعداد لمناقب آل البيت، توفي سنة أربعمائة وثمان وعشرين . ينظر ابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، 242/3. وانظر ابن خلكان، وفيات الأعيان، 359/5. ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة في أخبار مصر والقاهرة ، 26/5. شوقي ضيف، عصر الدول والإمارات، 375-378. وشوقي ضيف ، الفن ومذاهبه في الشعر، 355-375.

نصحتكم لو وجدت المصيخ وناديتكم لو دعوت المجيبا
أفيئوا فقد وعد الله في ضلالة مثلكم أن يتوبا
أمثل محمد المصطفى إذا الحكم وليتموه لبيا
بعدل مكان يكون القسيم وفصل مكان يكون خطيبا
وثبت إذا الأصل خان الفروع وفصل إذا النقص عاب الحسبا
وصدق بإقرار أعدائه إذا نافق الأولياء الكذوبا
أبان لنا الله نهج السبيل ببعثه وأرانا الغيوباً⁽¹⁾

فإنه يقبل توبة العبد إن هو تاب وأحسن التوبة، فهو يدعوهم إلى أن يفيئوا إليه؛ لأنه كهف التائبين، فإذا ما ولجوا في دين محمد فسجدون العدل وفصل الخطاب، والمعروف بأن الرسول كلما أطلق وعداً أو عهداً، فإنه يفي، وصدق الله رسوله عهده، عندما جاء بالغيبيات التي لا يستطيع أحد أن يأتي بها.

أبو العلاء المعري:

لقد اتهم أبو العلاء المعري بأنه تعرّض للأنبياء عموماً، وللرسول ودعوته على وجه الخصوص، فهاجمه بعض معاصريه، واتهم بالإلحاد، ولكن عندما نستعرض أشعاره التي وقف فيها مادحاً الرسول، نجد أن أبا العلاء مؤمناً إيماناً تاماً بالإسلام كدعوة أتى بها الرسول، وبالتالي يجعل الإيمان أساساً لحياته، ونحن لسنا في معرض الردّ على ما وجّه إلى أبي العلاء من اتهامات، ولكن لا بدّ من الإشارة إلى أن الجو الفكري المضطرب الذي نشأ فيه الشاعر كان له كبير أثر في نفسيته.

ومدحه للرسول ورد في اللزوميات، بمعنى آخر جاء في موطن الرصانة والقوة الذي عرف به أبو العلاء، ولكن الشاعر ابتعد عن الغموض والتعقيد الذين عهدناه عنه، وكان الشاعر طوع عاطفته فأجاد في تبيان أثر هداية الرسول للبشرية، مع أن هذا المعنى قد طرقت من قبل، ولكن يبقى الوقع خاصاً من شاعر يمدح الرسول كأبي العلاء، يقول:

¹ - مهيار الديلمي، الديوان، 13/1.

(الطويل)

دعاكم على إلى خير الأمور محمد وليس العــــــــــــــــوالي في القنا كالسوافل
 حداكم على تعظيم من خلق الضحى وشهب الدجــــــــــــــــى من طالعات وآفل
 وألزمكم ما لــــــــــــــــس يعجز حمله أخوا الضــــــــــــــــف من فرض له ونوافل
 وحثّ على تطهــــــــــــــــر جسم وملبس وعاقــــــــــــــــب في قذف النساء الغوافل
 وحرّم خمــــــــــــــــرا خلت أبواب شربها من الطيــــــــــــــــش أبواب النعام الجوافل
 فصلّي عليــــــــــــــــه الله ما ذرّ شارق وما فتّ مسكاً ذكره في المحافل (1)

وقد اتخذ شوقي ضيف من هذه المقطوعة ردّاً على من رمى أبا العلاء بالإلحاد، فلو كان ملحداً لما مدح النبيّ. (2)

الأبيوردي (3):

ذكرنا سابقاً في معرض الحديث عن قصيدة كعب بن زهير أنّ قصيدة كعب بن زهير قد لاقت استحساناً من قبل الشعراء، لذا تسابقوا إلى معارضتها، وبذلك نالوا شرف مديح الرسول، ولكنّ الفارق بين القصيدة (البردة) وتلك المعارضات أنها قيلت في حضرة النبي، والنبي غير مجود بين ظهراي الشعراء المعارضين، وكأنهم وجدوا في تلك المعارضة متنفساً لمدح الرسول من جهة، والسير على منوال بردة كعب من جهة أخرى.

غير أنّ بعض الباحثين من عزا عزوف الشعراء عن المديح النبوي - في القرنين الثالث والرابع على وجه الخصوص - إلى تهيب الشعراء من المديح، أو بالأحرى كيف يفتتحون

1 - أبو العلاء المعرّي، اللزوميات، 192.

2 - ينظر فصول في الشعر ونقده، 134-135.

3 - هو أبو المظفر محمد بن أبي العباس، لقب بفخر الرؤساء، وبجمال العرب، ونسبته إلى أبيورد وهي بلدة بخرسان، كان إماماً في العلوم، عارفاً باللغة والنحو والنسب والأخبار، وكان راويةً نسابةً وشاعراً ظريفاً، صنّف عدداً من الكتب، وله ديوان شعر محقق في مجلدين، من تحقيق عمر الأسعد، توفي سنة خمس مائة وسبع هجرية. ينظر ابن خلكان، وفيات الأعيان، 444/4-449. وابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، 206/5-207. والقفطي، إنباه الرواة على أنباه النحاة، 3/49 - 52. ابن العماد، شذرات الذهب، 18/4-20. والسيوطي، بغية الوعاة، 1/40-41. والسيوطي، تاريخ الخلفاء، 369-370.

مدائحهم النبوية ؟ وما المعاني التي تليق في مديحه؟ فخوفا من الوقوع في الخطأ وإبعادا عن الحرج لجؤوا إلى معارضة البردة، وغيرها من القصائد التي قيلت في حياة الرسول صلى الله عليه وسلم. (1)

والأبيوردي في معارضته لقصيدة البردة سار على غرار ما صنعه كعب ، فقد بدأ القصيدة بحديثه عن الرحلة وتغزل بمحبوبته سليمي واستغرق هذا عشرة أبيات، قدّم فيها الشاعر لقصيدته بشكل رائع، يقول : (البسيط)

خاض الدّجى ورواق الليل مسدول برق كما اهتزّ ماضي الحدّ مصقول
واعتاده من سليمي وهي نائية ذكر يورقه والقلب متبول
ربّا المعاصم ظمأى الخصر لا قصر يزوي عليها ولا يزري بها طول
فالوجه أبلج واللّبات واضحة وفرعها وارد والتمن مجدول
كأنما ريقها والفجر مبتسم فيما أظنّ بصفو الرّاح معلول (2)

والشاعر يترسم طريق كعب في غزله، فقد أطلق الصفات الحسية وترك المعنوية ، فبينما كعب يجمع بين الاثنتين ، وربما يعود السبب إلى أنّ الأبيوردي لم يسهب أو يطنب في أبيات الغزل، بعكس كعب الذي أسهب مما منحه حرية تعداد الصفات، وينقل الشاعر بسلاسة إلى الغرض الأساسي وهو مدح الرسول، يقول :

صدت ووقّرني شيبى فما أربي صهبا صرف ولا غيداء عطبول
وحال دون نسيبي بالدمى مدح تحبيرها برضى الرحمن موصول
أزيرها قرشيّا في أسرته نور وممن راحته الخير مأمول
تحكي شمائله في طيبها زهرا يفوح والروض مرهوم ومشمول
هو الذي نعش الله العباد به ضخّم الدسيعة متبوع ومسؤول
أتى بملة إبراهيم والوده قرم على كرم الأخلاق مجبول

1 - ينظر محمود سالم، المدائح النبوية حتى نهاية العصر المملوكي، 99.
2 - الأبيوردي ، الديوان ، 97/1 ، 99.

يا خاتم الرسل إن لــــم تخش بادرتي على أعاديك غالتي إذن غول(1)

ويعاهد الشاعر الرسول أن يلتزم هديه وسنته ، وأن ينافح عنه بكل ما أوتي من قوّة،
بلسانه وبسيفه، وأن يترسّم طريقه، وكأنّي بالشاعر يعلن إسلامه في هذه الأبيات، ويظهر كمّا
هائلا من العواطف الجياشة التي يبدي من خلالها إعجابه بالرسول، بذكر صفاته التي
يفوق بها البشر جميعا يقول :

والنصــــر باليد منّي واللسان معا ومن لــــوى عنك جيدا فهو مخذول
وساعدي وهو لا يــــلــــوي به خور على القنا في اتّباع الحقّ مفتول
فمر وقل أتــــبــــع ما أنت تنهجه فالأمر ممثــــل والقول مقبول(2)

ومن الإضافات الجديدة في مدحة الشاعر أنّه قام بمدح صحب الرسول، حيث ذكر
أبا بكر وعمر عثمان وعليّ، وبيّن مدى ما يكثّه من حبّ لهم، ويذكر التضحيات الجسام
التي قدّموها تثبيتا لدعائم الدولة الإسلاميّة، فحبهم تنال النجاة، ومن عارض فالسيف
مسلول في وجهه، يقول :

وكلّ صحبك أهــــوى فالهدى معهم وغرب من أبغــــض الأختيار مفلول
وأقتدي بضجيعيــــك اقتداء أبي كلاهــــما دم من عاداه مطلول
ومن كعثمــــان جودا والسّماح له عبء على كــــاهل العلياء محمول
وأين مثل عــــليّ في بسالته بمأزق من يــــرده فهو مقتول
إني لأعدل من لم يــــصــــفهم مقّة والناس صنــــفــــان معذور ومعذول
فمن أحبّهم نال النجــــاة بهم ومن أبي حبّهم فالسيف مسلول(3)

وبمجيء هذه القصيدة التي تعدّ بداية الظهور الفعلي لفنّ المديح النبوي بما تحمل
هذه الكلمة من معنى ، فيها يمكن القول إن المدحة النبويّة قد أخذت تتهادى لترسم

1 - المصدر السابق ، 1/ 100-101.

2 - نفسه ، 1/ 102.

3 - نفسه ، 1/ 102-103.

طريقها ، ويتفنن الشعراء في رسم ملامحها ، بل الإضافة إليها ليزيد جمالها وتكتمل صورتها عند الشعراء اللاحقين في القرن السادس والسابع وما تبعها من قرون .

ومهما يكن من أمر فإنّ العصر العباسي على ما عهد عنه من طول ، وما عرف عنه من غزارة شعر ، وكثرة شعراء نظموا في مختلف الفنون ، وعدّوا من أساطين الشعر إلا أننا نراهم قد تجبّبوا مدح الرسول ، فعلى سبيل المثال يكاد يخلو شعر المتنبي وشعر أبي تمام وغيرهما من الشعراء العظام من مديح للنبي ، وإن ورد المديح النبويّ في بيتين دون تخصيص منهم للمدح أو يقصد لذاته .

والمدح التي وردت عند الشعراء الذين خصّوا بالذكر لم يأت أصحابها فيها بالجديد ، فهي لا تتعدّى ذكرا لصفات النبيّ ، وتعدادا لمناقبه ، وأوردها أصحابها على شكل مقطوعات ، يثون فيها شرف الانتساب إلى الرسول ؛ لأنها مكانة سامية يتطلّعون من ورائها تحقيق غايات في أنفسهم ، تأييدا لفريق على حساب آخر أو كسبا لودّ خليفة أو أمير ، أو انتصارا لمذهب على حساب آخر ، وفي هذا العصر كان المناخ ملائما لظهور تيارات جديدة ، لم تعهد من قبل ، وكانت ترفد فنّ المديح النبوي بروافد كان لها كبير الأثر على المجتمع الإسلامي ، ومن هذه التيارات تيار الصوفيّة ، إذ عدّت المداح النبويّة بابا من أبواب الصوفيّة ، تغنى فيها الشعراء ، وأجادوا إجادة بارعة (1) .

وينسب إلى الصوفيين أنهم أكثر من تحدّث عن الحقيقة المحمديّة ، التي أفاض الشعراء في ذكرهم لها ، وكان عنوانها الغيبّيّات ، وتألّقا في رفع مرتبة النبيّ فوق الخلق بأسرهم ، ومن له قدم السبق من المتصوّفة في هذا المجال الحلاج (2) ، فهو يقول : " يا عجا ما أظهره وأبصره وأطهره وأكبره وأشهره وأنوره وأقدره وأصبره ، لم يزل كان مشهورا

1 - ينظر محمد عبد المنعم خفاجي ، الأدب في التراث الصوّفي ، 243 .

2 - هو أبو المغيث الحسين بن منصور البضاوي ، فارسي الأصل ، حاول أن يدعو إلى مذهب سياسي وروحي يقوم به فقه معيّن ورياضيات صوفيّة تتميز بالنظر والشدة للوصول إلى الهدف ، سجن بعد أن افتضح أمره ثمّ أعدم سنة ثلاثمائة وتسع . أبو طريف الشيبلي ، مقدّمة ديوان الحلاج ، 16-20 . وينظر ابن العماد الحنبلي ، شذرات الذهب ، 253/2 .

قبل الحوادث والكوائن والأكوان، ولم يزل كان مذكورا قبل القبل ، وبعد البعد، والجوهر والألوان ..."(1).

وظلّ طابع السهولة يلازم القصائد التي ظهرت في هذا العصر ، بل هي سمة من سماته ، إذ ابتعد الشعراء فيه عن الغموض والإبهام ، وجادت قرائح الشعراء في مدائحهم ببعض مفردات المديح النبوي، تاركين لمن جاء بعدهم للتأنق وتتميم ما نثروه ليصل فن المديح إلى أرفع درجاته ، وأبلغ سماته .

¹ - كتاب الطواسين ، 120.

الفصل الثاني :

عناصر المدحة النبوية في شعر العصرين الزنكي والأيوبيّ :

1. مقدّمة القصيدة.

2. عرض القصيدة .

3. خاتمة القصيدة .

إن الناظر للقصيدة العربية منذ منشأها إلى العصرين الزنكي والأيوبي ، يجد أن الشعراء في هذين العصرين قد خطوا خطو أسلافهم من جاهليين وأمويين وعباسيين، وبذلك نجد أن التقاليد التي رسمها وحدد ملامحها الشاعر الجاهلي هي تلك التقاليد التي سار عليها من أتى خلفه من الشعراء، بصرف النظر عن الغرض الشعري الذي طرقة الشاعر، لهذا نجد شوقي ضيف يقول: " وكأنما العصر الجاهلي نفسه هو الذي أعدّ للقصيدة التقليدية] عند العرب قصيدة المدح والهجاء، فإن الشعراء كانوا يحرصون في كثير من مطولاتهم منذ العصر الجاهلي على أسلوب موروث" (1).

تحدث النقاد العرب عن القصيدة العربية أحاديث كثيرة، وقد حدّدوا ملامحها الأساسية، وأشاروا إلى أنها تقسم إلى ثلاثة أجزاء أساسية وهي: المطلع والتخلص والخاتمة، وأتوا بمعايير خاصة للمفاضلة، وعلى الشاعر أن يجد ويجتهد منها: براعة الاستهلال والتخلص، والانتقال، وتليهما الخاتمة مع مراعاة استعطاف الجمهور، واستمالتهم. (2)

والقصيدة في العصرين الزنكي والأيوبي لم تتأثر بفعل التغير الزماني والمكاني، وإنما ظلت محافظة على شكلها ونسيجها المعهود، وإن كان الجمود ليس من صفة الأدب، لذلك نلمس أن المجازاة تبتعا للعصر أصبحت من السمات التي تميز القصائد على مدى العصور ، فقصيدة المديح بشكل عام وقصيدة المديح النبوي بشكل خاص، استجابت لإطار العصرين، فمظاهر التطور والتغيير موجودة، كل ذلك يعتمد بشكل أساس على قدرات الشاعر ومقدار ما يوظفه من خبرات في قصيدته، مع مراعاة البيئة الزمانية والمكانية، ويمتاز الشعر العربي بالتطور والتجديد في أبهى صورته وعصوره.

وقصيدة المديح النبوي ليست بمعزل عن الشعر العربي ، لهذا نلاحظ أن التجديد سمة من سماتها ، وإن كان كعب بن زهير حدّد بعضا من ملامحها، لكنها تطورت ووسمت بسمات العصر الذي وجدت فيه، وطبعها أصحابها بطابع يظهر كل مقدرته، وإبداعه.

1 - الفن ومذاهبه في الشعر العربي ، 18.

2 - ينظر علي عبد العزيز الجرجاني، الوساطة بين المتنبي وخصومه، 47.

ومن خلال ما سبق يمكن لنا إجلاء بعض ملامح التجديد في قصيدة المديح النبوي في العصرين الزنكي والأيوبي من خلال تناول المفردات الأساسية لبناء هذه القصيدة، ويمكن تناولها من خلال ما يلي:

1. المقدمة .
2. عرض القصيدة .
3. الخاتمة .

أولا - المقدمة :

عني النقاد العرب بمقدمة القصيدة باعتبارها جزءاً أساسياً كبقية الأجزاء في عناصر البناء، ولا شك في أن هذا الجزء شغل كثيراً من النقاد، ودارت حوله نقاشات ودراسات، نظراً لارتباطه بالوضع النفسي للشاعر، وهو أول ما يقرع السمع، ويحكم على جمال القصيدة من خلاله، لذلك لا بد من الإحاطة بأهمية المقدمة من خلال معرفة بعض آراء النقاد .

فالنقاد يضعون شروطاً خاصة للمقدمة، مثلما صنع ابن قتيبة حيث جعل مقياس الأساليب الحسنة والمتبعة عند الشعراء في مسالكهم، هو ذكر الديار والدمن والآثار، لما له من أثر على الظاعنين وذكرهم، ثم الوصول إلى النسيب، وما فيه من جلب للأسماع، وتأثير على النفوس والقلوب، ولأن طبيعة النفس الإنسانية تعشق ألفة النساء وما فيه من حيث بث الوجد، وفرط الشوق، وألم الفراق، وينتقل بعدها إلى مكابدة التعب والنصب والسهر والسرى، ومن ثم يذهب إلى المديح (1).

وقد دعا ابن رشيق الشاعر إلى " أن يجود ابتداء شعره، فإنه أول ما يقرع السمع، وبه يستدل على ما عنده من أول وهلة" (2).

1 - الشعر والشعراء، 1/74-75.

2 - العمدة في محاسن الشعر وأدابه ونقده، 1/195.

غير أن ضياء الدين ابن الأثير ذهب إلى أبعد من ذلك، فقد أطلق العنان للشاعر فطلب إليه " إذا نظم قصيدا أن ينظر، فإن كان مديحا صرفا، لا يختص بحادثة من الحوادث فهو مخير بين أن يفتتحها أو لا يفتتحها بغزل بل يرتجل المديح ارتجالا من أولها " (1).

وقد أكد حازم القرطاجني على ضرورة تحسين الاستهلاكات والمطالع والمقدمات، حيث جعلها بمثابة الغرة والوجه لما لها من أهمية (2).

وإذا ما أردنا استقصاء آراء النقاد في المقدمة، فهي كثيرة والمجال يضيق عن ذكرها جميعا هنا، ولكن حاولنا تسليط الضوء على أهم تلك النقاط عند أشهر النقاد، وبالنظر إلى مقدمة المديح النبوي في العصر الزنكي والأيوبي، فإنها قد التزمت تلك المعايير التي ذكرت، على أنه يجدر بنا الإشارة إلى أنها قد انتظمت تحت محاور متعددة وهي: الرئيسية وتتمثل في مقدمات التغني بالديار الحجازية، أو التشوق إليها، أملا في الوصول إلى أهلها، وهي شائعة عند أغلب الشعراء في هذا العصر، والمقدمات الطللية المعروفة والمطروقة في المديح النبوي وفي غيره، والأخرى المستحدثة وتتمثل في مقدمات حب الحبيب محمد، والمقدمات التي تتمثل في حب الذات الإلهية، وتمجيدها والمقدمة التي تدعو إلى النهوض من السبات.

أ. التغني بالديار الحجازية :

ويلوح في هذا الأفق قداسة المكان عند شعراء المديح النبوي، وذلك من خلال الاعتزاز بمدينة الرسول محمد على وجه الخصوص، وما يحمل هذا المكان من دلالات تاريخية، وأصالة عقائدية، فهي الموطن الأول الذي ترعرعت فيه العقيدة الغراء، على يدي المعلم الأول محمد - صلى الله عليه وسلم - كل ذلك بمباركة من رب السماء، وبدعم الصحابة النجباء - رضوان الله عليهم - فذكر المكان يدل على قداسة خاصة، ورباط مقدس، يهيج العواطف والمشاعر، ويستنهض الهمم لزيارة المدينة، وبذكر المكان

¹ - المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، 96.

² - ينظر منهاج البلغاء، 309.

هيجان للذكريات، ولا ننسى أن ارتباط المدينة (المكان) بشخص النبي يدل على علاقة قوية، وروابط أصيلة، كان للنبي دور الرائد والمعلم فيها.

يعدّ الصرصريّ من أبرز الشعراء الذين استكثروا من التغني بالديار الحجازية في فواتح مدائحهم النبوية، ربما يعود ذلك إلى طبيعة العصر الذي عاشه الشاعر نظراً لأنه عايش الحروب الصليبية، ورأى بأّم بصيرته ما تعرضت له بلاد المسلمين على يد النصارى من اغتصاب، فقد انتهكت الأعراض، ودنست البلاد، فمحاولة منه لاستنهاض الهمم عند المسلمين ركز على ذكر البقاع الحجازية لما لها من خصوصية وقدسية عند المسلمين، يقول: [البسيط]

مستك يا دارة الأحباب أفراح وصبحتك من الإقبال أرواح
وجاد تربك من صوب النعيم حيا هامي الشأبيب في الأطلال سحاح
وفضّ فوق ربك الروح نشر صبا مهينم مندليّ العطر فيّاح
ولا جفنا عذبات البان منك ضحا مغرّد غرّد الألحان صداح
وماس رننك واهتزت خمائله كأنه ثمل دارت له الراح
ولا تزال مع الأسحار دائرة من المعاني على أهليك أقداح
أخفي هواك ودمع العين يظهره والدمع للعاشق المستور فضّاح
ألتاع إن لم أجد من عنك يخبرني وإن بدا من حماك الركب أرتاح⁽¹⁾

فالشاعر يظهر تعلقاً بتلك الديار، فهو يدعو لها بدوام الخضرة، ومهما حاول أن يخفي هذا الحبّ الكامن في نفسه، فإنّ دموعه كفيّلة بفضحه، ويظهر الشاعر القلق الذي خالج صدره، ويبدّد هذا القلق الركب القادم إليه من تلك الديار.

وفي موضع آخر يديم الشوق لتلك المنازل، لأنها نعم المرتع للعيون النواظر، فيذكر سلع والعقيق، والثرى الطيب الذي حوى الحبيب، فرائحة المسك فواحة من ذلك الثرى، يقول الصرصريّ: [الكامل]

¹ - الصرصريّ، الديوان، 96.

بين العقيق وبين سلع مربع
 عطر الثرى أرج كأن لطيمة
 بدر السعادة كامل بسمائه
 حلو الجننا عذب الموارد عنده
 يا منزلا فيه لأرباب الهوى
 ما بال وردك ماؤه يشفي الصدى
 لي فيك عهد هوى قديم ليس له
 لولا أدكـارك لم يهزم معاطفي
 ولما أرقـت وهاج شجوي في الدجى
 وكذاك لـولا سرّ قصدك لم أكن
 ويعرض الحادي بجرعاء الحمى
 كلفي ببانات العقيق وإنما
 عجا لجسـم بالعراق مخلّف
 للقلب فيه وللنواظر مرتع
 من مسـك داريّ به يتضوّع
 وببرجـه شمس الحقائق تطلع
 من كلّ شرب معنويّ منبع
 مرأى يـرووق من الجمال ومسمع
 وأنا المحـبّ وغلتي لا تنقع
 عـذال في الإقلاع عنه مطمع
 برق على شعب الأبارق يلمع
 ورقـاء في فنن الأراكة تسجع
 ألتـاع إن ذكر الغوير ولعلع
 والجـزع من وادي الأراك فأجزع
 وجـه اشتياقي بالحجاز مبرقع
 وفؤاده مغرى بطيبة مولع⁽¹⁾

ففي الأبيات السابقة ذكر الشاعر معظم المواطن والبقاع الحجازية التي دأب الشعراء على التغني بها، وهذا ليس بالغريب على شاعر مثل الصرصريّ الذي أفاض في ذكرها وتعدادها في قصائده، فقد ذكر (العقيق، وسلع، وشعب الأبارق، والغوير، ولعلع، وجرعاء الحمى، ووادي الأراك، وطيبة) .

ويتأجج الشوق عند ابن جبير للديار الحجازية تحنانا، ووصولاً لزمزم والمقام، ومن خلال طيبة حيث الوصول إلى أهلها، فهو لا يرضى بديلا عن إلقاء السلام على ساكنيها، فالحياة ليست طيبة إذا لم يزر طيبة، يقول: [الوافر]

أقـول وقد دعا للخير داع
 حرام أن يـلـذني اغتماض
 ولا طافـت بي الآمال إن لم
 حننت لـه حينـه المستهام
 ولم أرحـل إلى البيت الحرام
 أطف مـا بين زمزم والمقام

¹ - المصدر السابق، 277-278.

ولا طابــت حياة لي إذا لم أزر في طيبــة خير الأنام
وأهدــيه السلام وأقتضيه رضى يدنــي إلى دار السلام (1)

فالشاعر يعبر عن خلجات صدره ، وما يعتريه عندما يسمع نداء داعي الخير، فهو حتما
أول الملبيين لذاك الشخص، لأنه يبتغي غاية في نفسه ، يأمل تحقيقها.

ومن الشعراء من تنقل بين البقاع انطلاقاً من وطنه ، حتى وصل أرض الحجاز، فهذا
يعقوب الدمشقي لا يترك منزلاً إلا ويذكره ، مبدياً قدراً كبيراً من الشوق، ومصحوباً
بالدمع، وباحثاً عن الأجر: [الخفيف]

هجر الأهلــل والأحبة لما قصد الخالــق الجواد الفردا
وترامى عن جــق وأتى الكسوة والدمــع قد كسا الخدّ خدّاً
حار لماً رأى معالــم حورا ن وبصــرى لماً تبصّر رشدا
وســرى بعدها إلى المنهل الأزرق والشــوق قد تزايد جدّاً
عظــم الأجر بالعظامي لماً جدّ في قصده وأضحى مجدّاً
وتمــادى منه العمري العذب فوافــاه بفضل الثلج بردا
وأــتى حرّ وهو أحلى من الشهد د وأزكــى عذوبة وأشدّاً
ثمّ وافــى بسطة وبساط الشوق يحدوه والركائب تحدى (2)

ونلاحظ في حديث الشعراء في غزلياتهم الحجازية أنهم يكثر عن قضية تعفير الخدّ
بالتراب ، ويركز على الالتزام بفرض الحجّ ومناسكه، داعياً الشعراء إلى ضرورة التخلي
عن هوى سعدى ولبنى ، بل عليهم التغني بالديار المقدّسة، وأن يسرعوا في ذلك، يقول
يعقوب الدمشقي: [الخفيف]

خلّ عنها تغوّر غــورا ونجدا واهجــرن في المسير لبنى وسعدى
وصل الوخــد بالذميل فما ندرك ســوْلاً ولا بسيرك وخدا
واحترز في مناســك الحجّ واجعل فرضهــا وصلة إلى الله نقدا

¹ - فوزي الخطبا ، شعر ابن جبير ، 93.

² - ابن الشعار الموصلي، قلاند الجمال في فرائد شعراء الزمان، 160/10-161.

واقصد الكعبة الحرام وعفر بتراب المقام أنفا وخذاً
واعتمد في فعالك الحق واخلص تجد الحق قد أباحك خلدًا⁽¹⁾

بينما نرى فتیان الشاغوري يمّني النفس بزيارة تلك الديار الحجازية، ويطلب إلى
الحجاج أن يحملوا معهم شوقه لتلك الديار، ويثبوا أشواقه لساكن الديار الرسول
المختار، فنار الشوق ملتهبة، ويطفئها تقبيل قبر الرسول، وتمريغ خده بالتراب، يقول:
[الطويل]

إليك رسول الله مني ألوكه حنانيك قد ينو على العبد سيد
أومل من خير الأنام شفاعه بها في نعيم بالجنان أخلد
فأنت رسول الله وهي شهادة أقرّ بها حتى المعاد وأشهد
وددت بأنني زرت قبرك راجلا وقبّلت ترابا أنت فيه موسد
ومرغت خدي عند قبرك ضارعا بأرض حصاهها لؤلؤ ووزبرجد
واني لذو شوق إليك مضاعف بواعثه لا تأتلي تتجدد
ألا أيها الزوّار بالله بلغوا سلامي إليه وارفقوا وتأيدوا
وقولوا له فتیان يشكو صبا به إليك ووجدا حرّه ليس يبرد
يرجّي غدا تبريد غلته إذا شفعت له في الحشر والحوض مورد⁽²⁾

والشاعر في الأبيات السابقة يظهر قدرا كبيرا من التودد، ويأمل في طلب الشفاعه،
وهذا النمط يسير عليه أغلب الشعراء الذين مدحوا الرسول، وكأنهم يلتمسون
شيئا، يركزون عليه.

ويستذكر الحسن بن صافي - ملك النحاة - مدينة يثرب، ويحمل من يتوجه إليها
السلام، أملا في أن يبلغ دار السلام، لأن الاستجارة لا تتم إلا من خلال من كفل الشفاعه
لأمته أمام الديان، وعلى مرأى من الأشهاد، يوم التناد، فالرسول يرقد في
المدينة، والمسلمون ييمّمون اتجاهها، مقيمين شعائرهم، ومطبقين سنته - عليه السلام -

¹ - المصدر السابق، 10/159-160.
² - فتیان الشاغوري، الديوان، 109-110.

وملتزمين فرائض الدين الذي أتى به، لذلك تراهم يقصدون يثرب، حبا وطمعا ورغبة في الإجارة: يقول: [البسيط]

يا قاصدا يثرب الفيحاء مرتجيا أن يستجير بعليا خاتم الرسل
خذ من أخيك مقالا إن صدعت به مدحت في آخر الإعصار والأول⁽¹⁾

وفي قصيدة أخرى نرى أن التحنان يساوره مرة أخرى، فهو يبدي لوعة وشوقا كأنسان مغروم، قد شغه الوجد، يريد إيصال شوقه وغرامه لمن يعشق، فهو لا يتخذ من الحمام الزاجل ناقلا، أو مبلغا، وإنما يتخذ وسيلة أخرى وهي الأجدى من وجهة نظره، أي من جهز العدة، والزداد، والراحلة، وغذ السير طلبا للبقاع الحجازية، ووصولاً إلى الرسول، يقول: [البسيط]

من حامل عن أخيه بسط مألكة يهدّها إن أفيض القال والقيـل
يقول والحجرات الغرّ تسمعه والوفد كلّ بما يعنيه مشغول
هل سامع يا رسول الله أنت لمن ولاؤه لك مرويّ ومنقول
بلغت من غاية الإكرام منزلة عنها أعيّد الأمين الروح جبريل
ولترضك الصلوات الغرّ دائمة يزين أمراطها⁽²⁾ ما شئت ترفيل⁽³⁾

وقد اشتدّ الشوق والغرام، والتاع المستهام، حنينا ووجدا بذكر الحبيب، ويشتمّ من تربه الطيب، ممزوجا بدمع سكيب، فهذا عبد الرحمن الجوزي يبث شوقه لتلك الديار بعد أن نادى الداعي من كلّ الأقطار، ويكون الرسول الشفيح أمام الجبار، يقول من قصيدته البائية: [الوافر]

حداة العيس رفا بالنجائب فقلبي سار في إثر الركائب
وجسمي ذاب من ألم ووجد ومن شوقي إلى لقا الحباب
فهل لي من سبيل للتلاقي فدمعي قد غدا مثل السحاب
لئن سمح الزمان بطيب وصل وبلغت المقاصد والمآرب

¹ - ابن عساكر، تهذيب ابن عساكر، 167/4.

² - الأمراط: مفردا مرط، وهو الكساء من الصوف. الفيروز آبادي، القاموس المحيط، 1/926. (مرط).

³ - كمال الدين بن العديم، بغية الطلب في أخبار حلب، 5/2392. وينظر شفيق محمد الرقب، الشعر العربي في بلاد الشام في القرن السادس الهجري، 275.

لألثم وجــــه ذاك الترب جهرا وأرويه بأدمعي السواكب
وأحظى بالعقيق وساكنيه ومن قد حلّ في تلك الذوائب (1)

وفي غمرة الشوق للديار الحجازية، قام الشعراء بوصف أعباء الشقة التي قطعوها وصولاً للديار الحجازية، فقد وصفوا القفار والأمل يحدوهم بالوصول للديار، فالتعب نال منهم، ولكن الرغبة قوية، من ذلك يقول يعقوب الشيباني: [الكامل]

لأكلفناك قطع قفر قطعه يذر الفيـــــق وما عليه سنام
في صحائف تغلي لشدة حرّه وتجيش فيه بما حوته الهام
حسبأوه كالجمر تخطو فوقه فتكاد أن تتلهّب الأقدام
وإذا المـــــطيّ بنا بلغن محمدا فظهورهنّ على الرّحال حرام
قرّبنا من خير من وطئ الحما فلها علينا حرمة وذمام
عندي لها إن صافت ثمناتها أكناف يثرب مسرح ومسام (2)

ويهرول الركب إلى الحجاز فزعا، عندما ظهرت النار في الحجاز سنة 654هـ، حيث يتوجهون إلى الرسول طالبين لأنفسهم الشفاعة والنجدة، ففي المقدمة الحجازية يقول علي بن عمر بن قزل: [الطويل]

ألا سلما عنـــــي على خير مرسل ومــــن فضله كالسيل حطّ من عل
وأشرف من شُـــــدّت إليه رحالنا لتورد هيم الشـــــوق أعذب منهل
تحملن منا كـــــلّ أشعث أغبر فيا عجباً من رحلها المتحمّل
إلى سيّد جـــــاءت بعالي محله ومعجزه أي الكتاب المنزل (3)

ونلاحظ تأثراً واضحاً من قبل الشاعر بمعلقة امرئ القيس من جهة البحر العروضي، الطويل، والتضمين لبعض أشطار الأبيات، ومطلعها: [الطويل]

قفا نبك مــــن ذكرى حبيب ومنزل بسقط اللوى بين الدخول فحومل (4)

1 - صلاح الدين الهواري، المولد النبوي الشريف، 90.
2 - ابن الشعار الموصلي، قلاند الجمال في فراند شعراء الزمان، 88/10.
3 - ابن قزل، الديوان، 336.
4 - امرؤ القيس، الديوان، 26-7.

ويرى الباحث من خلال استعراض المقدمات الحجازية أنّ الشعراء حاولوا بثّ الحزن للرسول، وكأنّ حائلا حال بينه وبينهم و منعهم من زيارته، لذلك لجؤوا إلى التغمي بتلك البقاع التي يرقد فيها، أضف إلى ذلك الحرص والحذر من سوء العاقبة من خلال التنقل والترحال بين الأقطار، نظرا لأنّ الأمن كان شبه معدوم في وقت من الأوقات ، فالناس لم يكونوا بمأمن من الوصول إلى الديار الحجازية ، لهذا قام صلاح الدين وبعض قادة المسلمين بتأمين طرق الحجّاج خوفا عليهم من سطو الفرنج من جهة واللصوص من جهة ثانية.

ومن التعليقات الأخرى لظهور المقدمات الحجازية في المدائح النبوية في العصرين الزنكي والأيوبي محاولة الشعراء استبدال المقدمات الحجازية بالمقدمات الغزلية، نظرا لقداستها ، ولما لها من مكانة عند المسلمين (1).

ب. المقدمة الغزلية:

أسلفنا في الفصل السابق أنّ شاعر الرسول الأوّل حسان بن ثابت كان يفتح قصائده بالتغزل بمحبوبته التي يعشق، وكذلك الحال بالنسبة لكعب بن زهير عندما افتتح برده بالتغزل بمحبوبته سعاد، والمعروف أنّ الغزل فيه إمالة للقلوب ، وهذا النمط كان متفشيا في البيئات المختلفة عند الشعراء، لذلك لم يتهيب الشعراء من افتتاح مدائحهم بالغزل.

ولكنّ إذا جاز للشاعر التغزل وذكر المحبوبة، فهل يطلق له العنان في غزله كيفما يشاء؟! ويتصدّى للإجابة عن هذا التساؤل ابن حجة الحموي قائلا: " إنّ الغزل الذي يُصدّر به المديح النبوي، يتعيّن على الناظم أن يحتشم فيه ويتأدب، ويتضاءل ويتشعب، مطربا بذكر سلع ورامّة، وسفح العقيق والعذيب، والغوير ولعلع، وأكناف حاجر، ويطرح ذكر محاسن المرد، والتغزل في ثقل الأرداف ، ورقة الخصر ، وبياض الساق، وحمرة الخدّ، وخضرة العذار، وما أشبه ذلك " (2)

¹ - ينظر محمود سالم محمد ، المدائح النبوية حتى نهاية العصر المملوكي، 317.
² - خزانة الأدب، 1/ 36-37.

ويذهب الباحث إلى أن أغلب القصائد النبوية التي عارض فيها أصحابها قصيدة كعب ابن زهير قد جاءت موافقة لما نهجه كعب في مدحته خاصة فيما يتعلق منها بالمقدمة الغزلية، فالزمخشري سلك مسلك كعب في التغزل بأسماء، يقول من قصيدته اللامية :
[البسيط]

أضياء لي باللوى والقلب متبول	نجدني برق بنار الحبّ موصول
كأنّ ومضته من ناره قبس	فالخدد منه بماء الشوق مهطول
قمر خوافه يهوي إلى طلل	عهدي به وهو من أسماء مأهول
وكاد نضوي من فرط النزاع به	يطير تلقاء نجد وهو معقول
وقلت للركب في خافي الصوى قذف	عليه سجنف من الظلماء مسدول
أتلکم برقة من عارض ومضت	أم عارض بالبشام اللدن مصقول
أريهم البرق في نجد وبارقتي	نجاها خضل بالدمع مبلول ⁽¹⁾

ويذهب ابن الساعاتي المذهب نفسه، فهو يستهل مدحته النبوية بالغزل، فصاحب الصبابة ولهان ومعلول، والدمع المرسل نازف ومطلول، والبعد جلب للعاشق العويل، وأضحى الحبيب معزولا، يقول: [البسيط]

جدّ الغرام وزاد القال والقيـل	وذو الصبابة معذور ومعدول
ظللت في السدار أبكيها ويضحكها	دمع على تلكم الأطلال مطلول
لا جرّ حين خلت منهم ملاعبها	ذيل النسيم عليها وهو مبلول
مجالس أوحشت منهم وأندية	على العويل بها للصبّ تعويل
يا والي القلب أهواه ويظلمني	وكلّ والٍ بحكم الدهر معزول
أشكو فينصركم قلبي ويخذلني	وفي المحبة منصور ومخدول
للبرق فيك إشارات لها طربي	وللنسيم حديث عنك منقول ⁽²⁾

ويستغرق ابن الساعاتي في غزله وغرامه، وتأخذ المقدمة الغزلية خمسة عشر بيتا من واقع أربعة وسبعين بيتا هي عدد أبيات القصيدة، وفيها يضمّن الشاعر لواعج صدره،

¹ - علي عمرو، تحقيق ديوان الزمخشري ودراسة لشعره، القسم الثاني، 263.
² - ابن الساعاتي، الديوان، 47.

ومدى تأثره ببعده حبيبته، ولا ينسى أن يضيفي كما من الصفات الحسية والمعنوية للمعشوقة، وانظر إلى جمال التشخيص الذي أتى به الشاعر في البيت الأخير في قوله: (وللنسيم حديث) حيث جعل من النسيم إنسانا، وأضفى عليه الحركة والحيوية.

ويبلغ تأثر الشعراء بقصيدة كعب بن زهير مبلغا عظيما، فتراهم يشطرونها، فمن هؤلاء الذين نحو هذا النحو الشاعر شرف الدين الأنصاري، فمن شدة شغفه بقصيدة كعب قام بتضمين أغلب أبيات قصيدة كعب في لاميته، يقول: [البيسط]

أوهمت نصحا لو انّ النصح مقبول لا ألهيئك إني عنك مشغول
 بان التجلد عنّي والتصبر مذ باننت سعاد فقلبي اليوم متبول
 تياهة آثرت صدا لمغرمها متيّم إثرها لم يفد مكبول
 ثرت دموعي إذ افترت بذي أشر كأنه منهل بالراح معلول
 جديدة الحسن يبدو في مقسمها عتق متين وفي الخدين تسهيل
 حلمت عند تمنيتها بزورتها إنّ الأماني والأحلام تضليل
 خوّانة حققت فينا توعدّها وما مواعيدها إلا الأباطيل⁽¹⁾

ولا أعتقد بأنّ الشاعر كان صادقا في إطلاقه للصفات الحسية أو المعنوية، وإنما هدف من وراء ذكرها مجازاة كعب بن زهير في حديثه عن محبوبته التي طالما برع في التغزل بها، مع الأخذ بعين الاعتبار قصوره عن المجازاة، ولأنّ المعاني التي طرقها قصر فيها عن اللحاق بمعاني كعب، وعندما طرق كعب تلك المعاني فإنه أوفأها حقها.

المقدمات المستحدثة التي ظهرت في هذا العصر وتشمل:

أ. التغزل بالرسول محمد:

هذا اللون نشأ في مقدّمة المدحة النبوية في هذا العصر، ونلاحظ تفاوتاً في اهتمام الشعراء بهذه المقدّمة، ويظهر في تلك المقدمات مدى تعلق الشعراء بالرسول محمد،

¹ - شرف الدين الأنصاري، الديوان، 390.

وكأننا أمام عاشق ومعشوق، ويقوم الشاعر كذلك بإضفاء الصفات الحسية والمعنوية، ويبرزها من خلال شعره، فالخفة، والرشاقة، والطرف الغضبي، وبدر تمّ بازغ، وجاءت الصفات التي أودعها الله في شخص النبيّ ولم يمنحها لأحد سواه.

ويوجّه بعض الباحثين سهامه إلى هذا اللون من المقدمات الغزلية، فيطالعنا مسعد العطوي بقوله: "واستهلال قصيدة في مدح الرسول - صلى الله عليه وسلم - بالغزل بالمذكر مما يعاب على الأدب والشعر في تلك الحقبة الزمنية، وتدلّ على ذوق مريض" (1).

وقد علق مخيمر صالح على ظهور هذا اللون من المقدمات قائلاً: "فهي من أغنى المقدمات حياة، وحيوية، عمقا وتدققا." (2)

بينما عزا غازي شبيب ظهور مثل هذه المقدمات بأنّ الشعراء قد تأثروا بشعراء العصر الأموي، خاصة الغزل العذري، ومنهم من يعدّ هذا النوع من الغزل في المقدمات لونا من ألوان الابتلاء الرّباني، لأنّ الشعراء يتغزلون بمن أحبّوا، لهذا سيجتمعهم بهم يوم القيامة (3)، ومن ذلك يقول الإمام الرّباني، الصرصريّ - وهو من أكثر شعراء المديح النبوي نظما على هذا النمط - من قصيدته الغينية: [الكامل]

نفسى الفــــداء لبدر تمّ بازغ	ســــام على غصن الجمال النابغ
لا يعــــتري نقص المحاق كماله	كلا وليس قوامه بالزائغ
يهتــــزّ في حلال المواهب مائسا	في ظلّ قرب للجلالة سابغ
غــــضّ النضارة نشره متعطر	ريّان من نشر المزيد الزائغ
أهــــدى له الرحمن أحسن صبغة	فتبــــارك الرّحمن أحسن صابغ
بلغت عنايته به ما لم يكن	أحــــد إليه من الأنام ببالغ (4)

1 - الاتجاهات الفنية في الشعر إبان الحروب الصليبية، 171.

2 - المدائح النبوية بين الصرصري والبوصيري، 123.

3 - فنّ المديح النبوي في العصر المملوكي، 64-65.

4 - الصرصريّ، الديوان، 305.

ورسم الشعراء في مقدّماتهم الغزلية بالنبيّ صورة جميلة له، حيث ذكروا صفات النبيّ التي أعجبوا بها، والصورة التي رسموها لا تختلف في ملامحها عن صورة يرسمها أيّ شاعر لمحبوبته، وممن صور تلك الملامح الشاعر، شرف الدين الأنصاري، في مقدّمة احدى مدائحه النبوية: [مخلع البسيط]

ويلاي مـــــــن غمضي المشرّد	فيك ومــــن دمعي المردّد
يا كامــــل الحسن ليس يظفي	ناري ســــوى ريقك المبرّد
يا بدر تــــمّ إذا تجلى	لم يــــق عذر لمن تجلد
أبديت مــــن حالي المورّي	لما بدا خــــدك المورّد
رفقا بولهمــــان مستهام	أقامهــــه وجده وأقعد
مجتهد فــــي رضاك عنه	وأنت في أمره المقلد
ليس له مــــنزل بأرض	عنك ولا في السّماء مصعد ⁽¹⁾

ولم يقتصر الشعراء في تلك المقدّمات الغزليّة، على الصّفات الحسيّة، وإنما يحاولون إضافة ما هو جديد، وهو بثّ التحيّة والسلام، مزجاة إلى سيّد الأنام، يقول صفوان بن إدريس: [السريع]

تحية الله وطيبــــب السّلام	على رسول الله خير الأنام
على الذي فتح باب الهدى	وقال للناس ادخلوها بسلام ⁽²⁾
بدر الهــــدى سحب الندى والجدا	ومــــا عسى أن يتناهى الكلام
تحيّة تهزأ أنفاسها بالمسك	لا أرضى بمسك الختام
تخصّه مــــني و لا تنثني	عن آله الصّيد السّراة الكرام ⁽³⁾

وفي مثل هذه المقدّمات دأب بعض الشعراء على بثّ الشكوى للحبيب محمد، يطلب من خلالها الصّفح والعفو، ويتأتى ذلك لتقصير، أو لخشوع قلب، أو لكبح جماح الشهوات، وبذلك يطلب الشاعر وصل صفح من الرسول، عساه يبلغ ويكسب العفو ويحقق

¹ - شرف الدين الأنصاري، الديوان، 147-148.

² - في الشطر الثاني من البيت الثاني ورد خطأ في استقامة الشطر، ويستقيم بالقول: (ادخلوا بسلام) .

³ - ياقوت الحموي، معجم الأدباء، 4/339-340.

الأمنية التي لطالما حلم ببلوغها وهي تتمثل بالشفاعة يوم القيامة، من ذلك، يقول
الصرصري: [الطويل]

إليك رسول الله أشكو تخلفي وشدة تقصير بقلبي مجحف
وفقد خشوع للفوائد جالب وأعظم من فقديسه فقد تأسفي
إذا ألمعت للرشد في القلب لمعة نعمدها سدف الحجاب فتختفي
إلام وقد أكملت ستين حجة ألوث على ذلّ النقيصة مطرفي
وحتام أنهى النفس عن شهواتها وتضمن لي أن لا تعود ولا تفي
وأزجرها عن غيها وجماحها فتخدعني منها بوعده مسوف (1)

ومن الشعراء من بدأ قصيدته بتعداد صفات النبي، وقد تستغرق منه أبياتا طوال، وما
هذا إلا دليل قوّة الوشيجة وعمق الرابطة التي انطلق منها وبنى عليها هذه المدحة
النبوية، يقول جمال الدين أفضل الإسلام عبد الرحيم بن الأخوة البغدادي الشيباني:
[الكامل]

صلى الإله على النبي محمد هادي البرية والإمام المهدي
الصّابر البرؤوف المرتضى الماجد النبذب الكريم السيد
الصّادق المصدوق والبدر الذي عمّ البلاد بنوره المتجدد
نجّى به الله الأنعام من الردى والنّاس في ليل الظلام الأسود
لا ينقضي بين السورى إعجازه فديله في اليوم باق في غد
فمن اهتدى بهداه فاز ومن عتا عنه تردّد في العذاب الموصد (2)

وقد أورد له صاحب الخريدة قصائد ومقطوعات نظمها على هذه الصّورة، وكأنني
بالشاعر يردّ على فريق، أو يستنهض همّة الأمة لإحياء تعاليم الرسول، والبقاء على نهجه
الذي رسمه، فهو من رسم الطريق ووضّح معالمها، ودعا إلى سلكها، وضرورة التقيّد بها،
يقول في قصيدة أخرى: [المتقارب]

سلام على أحمد المصطفى سلام على الطاهر المرتضى

1 - الصّصري، الديوان، 326.

2 - العماد الأصفهاني، خريدة القصر وجريدة العصر، قسم العراق، 199/1.

ســــــــــــلام على صفة العالمين ســــــــــــراج البرية شمس الورى
ســــــــــــلام على خاتم الأنبياء محــــــــــــمد الماجد المجتبى
بــــــــــــه شيد الله ركن التقى بــــــــــــه رفع الله شأن الهدى
وأــــــــــــيد ملته فانطوى رداء الضلال بها وانجلي(1)

وظهور هذا النوع من المقدمات الغزلية في شخص النبي، لا يعد انتقاصاً من شخصه، أو مما عيب على الأدب والشعر، فهو لا يقارن أو يوازن بما ظهر في العصر العباسي، زمن أبي نواس عندما كان يصوغ جل شعره متغزلاً بالذكران، ولسنا في معرض تتبع تلك الأسباب التي دعت أبا نواس إلى التغزل بالذكران أو الإكثار منه، وما يهمنا أن أبا نواس كان مهتكاً، وشعره غير محتشم، ولكن شعراء هذين العصرين كانوا محتشمين مع الرسول، وفي هذا ردّ على الباحث مسعد العطوي عندما وجّه طعنا في هذا اللون من الغزل.

ب. مقدمة حبّ الذات الإلهية

وهي تلك المقدمات التي يبدأ الشاعر فيها بالحمد والثناء على الله - سبحانه وتعالى - . ويبدو أن تلك المقدمات ظهرت بوجود الأحداث الجسام التي حلت بالمسلمين في العصرين الزنكي والأيوبي، فالهجمات الصليبية والتترية، والانتكاسات الإسلامية على صعيد الحياة الاجتماعية، والثورات السياسية، والظواهر الطبيعية كالنار التي ظهرت في الحجاز سنة (654هـ) (2)، اتحاد هذه العوامل جميعاً دفعت بعض الشعراء إلى افتتاح مدائحهم النبوية بتمجيد الذات الإلهية، وطلب الرحمة والعفو، وبتعداد صفات الله ونعمه التي أسبغها على الإنسان .

و أورد أبو شامة المقدسي قصيدة لشاعر لم يورد اسمه نظمها في مدح الرسول وتعرض

¹ - المصدر السابق، 200/1.
² - ينظر أبو شامة المقدسي، الذيل على الروضتين، 295/5-296.

لنار الحجازية بالذكر⁽¹⁾، وفيها يتوجّه إلى الله بطلب العفو لأن المآسي والخطوب أحاطت بالمسلمين من كلّ جهة، يقول: [البيسط]

يا كاشف الضرّ صفحا عن جرائمنا لقد أحاطت بنا يا ربّ بأساء
نشكو إليك خطوباً لا نطيق لها حملاً ونحن بها حقا أحقاء
زلزلا تخشع الصّام الصّلاب لها وكيف يقوى على الزلزال شماء
أقام سبعاً ترجّ الأرض فانصدت عن منظر منه عين الشمس عشواء
بحر من النار يجري فوقه سفن من الهضاب لها في الأرض أرساء
يرى لها شرر كالقصر طائشة كأنها ديمة تنصبّ هطلاء⁽²⁾

ويتوجه ابن الأخوة من جديد إلى الله مثلما توجّه سابقاً إلى الرسول، طالباً منه العفو وجاءلاً الرسول شفيحاً له، عساه يفوز بالجنة، ويكثر من التسبيح لله، ويذكر الإنسان بعظمة الإله، ويعدّد أنعمه، يقول: [البيسط]

سبحان من جعل الكواكب زينةً وبهنّ في ظلم الليالي يهتدى
سبحان من رفّع السماوات العلا والأرض مهدها لأصناف الورى
سبحان من شقق البحار بقدره سبحان من أرسى الجبال على الثرى
سبحان من خلق العباد فمن رضي عنه استقل ومن تسخطه هوى⁽³⁾

ودعا بعض الشعراء إلى ضرورة التخلص من تلك المقدمات التي يتغزّل فيها أصحابها بعزّة أو سلمى، أو غيرهما من صوحيبات الشعراء، أو التغني بالملوك وحكمهم، فقد جرت العادة عند أغلب الشعراء في العصور السالفة إلى افتتاح قصائدهم بذكر المحبوبة، أو بمدح الملوك، وبذلك نشاهد دعوة صريحة من شعراء المديح النبوي في هذين العصرين، يحاولون فيها ثني شعراء عصرهم عن افتتاح قصائده بتلك المقدمات الغزلية، لأنها تجرّ عليهم المهالك، وبالتالي يتعدون عن التنسك الذي يقرب من الله.

¹ - وهي تلك النار التي ظهرت في الحجاز في أوّل جمعة من جمادة الآخرة سنة أربع وخمسين وستمئة في شرقي المدينة، وصفت بأنها نار عظيمة بينها وبين المدينة نصف يوم، انفجرت من الأرض وسال منها واد من نار حتى حاذى جبل أحد ثمّ وقفتن وعندما ظهرت هرع أهل المدينة إلى نبيّ الله عليه السّلام مستغفرين تائبين إلى ربّهم. أبو شامة المقدسي، الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصّلاحية، الذيل 293/5.

² - الذيل على الروضتين، 296/5.

³ - العماد الأصفهاني، خريدة القصر وجريدة العصر، قسم العراق، 138/1.

ومن الشعراء الذين نحووا هذا المنحى الصرصري ، الذي سلك في مقدمات كثيرة هذا المسلك، ويحمل في مضمونها دعوة صريحة إلى التنسك، ذلك المسلك الذي اتبعه الشاعر أبو العتاهية في أغلب قصائده، يقول: [البسيط]

دع ربع عزة واذكر عزة الملك ودار سلمى اجتنب تسليم من الهلك
 خل الغواني واشكر للغني وذر حبل اللوى وبحبل الله فامتسك
 واهجر جنى زخرف الدنيا الزهيد وصل بالزهد فيها جزيل البر والنسك
 واشدد يدك ياخوان الصفاء تصب وانبد وداد خؤون القلب مؤتفك
 وعن خليلك فاصفح إن تجد خلا سوى مخل لحد الشرع منتهاك
 واقبل نصيحة مستور أخي ثقة ولا تطع أمر واهي العزم منتهاك⁽¹⁾

فالشاعر قد سلك هذا الدرب تحقيقا لغاية في نفسه، فهي دعوة صريحة إلى كسب رضا الله ليغفر زلته وخطيئته ويكفر عن ذنبه، وهي ممهدة للوصول إلى مديح النبي وطلب شفاعته يوم يقوم الأشهاد .

ج - مقدمة النهوض من السبات:

وهي تلك التي جاءت دعوة صريحة للجهاد والقتال، والوقوف لصدّ العدوان، والذود عن الحمى ، من خلال بثّ روح العزيمة والجهاد، واستنهاض الهمم، في نفوس المسلمين، وكأنّ الشاعر قد رأى قصورا من أبناء المجتمع في هذا الجانب، فألمه ما رأى، وأثار سخطه على المجتمع ، فأخذ يعبر عن شعوره الداخلي ، ويبيدي نظرتة فيما يدور حوله، وأخذ يستذكر فيها الشاعر بطولة الرسول وصحبه في ميادين الوغى، يقول الصرصري . رحمه الله :: [الطويل]

ذر العجز وانهض خائضا للمعارك فما العز إلا في السيوف البواتك
 ولا تشن عن طلابك المجد همّة ولو كان في هام النجوم الشوابك
 وأقدم فإما أن ترى فوق معقل منيع وإما تحت وقع السئابك

¹ - الصرصري، الديوان، 362.

فلم نر إحدراز السّلامة للفتى المشمر إلا في اقتحام المهالك
أرى السّبيل المثلى على غير أهلها تضيّق وإن كانت رحاب المسالك
فلا ترض بالأولى وكن متطلبا نفيس المعالي بالعوالي الفواتك
ولا يلهك الإهمال عن سدّ خلة الثّغور برّبّات الثّغور الضّواحك (1)

فالصرريّ يعلم علم اليقين أن الأمة لا يمكن أن ترفع هامتها إلا بعزّها ومجدها
المأثول ، فعلها أن تذود عنه بالسيف الصّقيل، وكأني بالشاعر رأى بثاقب بصره ما تعرضت
له الأمة، فهي نظرة لا يتميّز بها إلا الشعراء ، وشاعرنا هذا ممن استشرفها، ولكن هيهات !!
فالصليبيون والتتار عادوا من جديد.

وتدور معاني مقدّمات المديح النبوي التي عثرنا عليها حول الغزل الذي كان مطروقا،
وإن دخلت الحدائث في المقدّمة من جهتين : ما يخصّ الرسول والتغزل به من جهة،
وكان الشعراء محتشمين متأدبين في هذا المجال إلى حدّ كبير، وما يتعلق بالثناء على
الله، وإظهار الخشية ، وتعداد صفاته ونعمه من جهة أخرى، وكلّ ذلك جاء مصحوبا
بعاطفة جيّاشة ونزعة إيمانيّة جارفة ، كيف لا؟! وأغلب الشعراء الذين نظموا المدائح
النبويّة هم من الفقهاء .

ثانيا: عرض القصيدة :

ذكرنا سابقا أنه لم تحفل شخصيّة من الشخصيات الإنسانيّة مثلما حفلت به شخصيّة
النبيّ محمد على الأصعدة جميعا، فقد امتدحه الأدباء والشعراء، وأجادوا في الثناء عليه،
فقد كانت أخلاقه وصفاته محور حديثهم، منهم من كرّر مدحه، ومنهم من تفنن وأجاد.

والناظر لقصيدة المديح النبوي في العصرين الزنكي والأيوبي، يجد أنها احتوت في
مفرداتها على مجموعة من أحداث سيرة الرسول من حيث (فضله و صفاته، وشجاعته،

¹ - المصدر السابق ، 359.

وبطولاته، ومعاركه) ومعجزاته والحقيقة المحمدية، وأصحابه، والتوسل به⁽¹⁾.

1. فضله وصفاته وشجاعته وبطولاته ومعاركه:

لقد امتدح الشعراء اليوم والشهر الذي ولد فيه محمد، فقد أشرقت الأرض بنور وجهه، وفرحت المخلوقات، وترنمت الطيور طربا، وتمايلت الأغصان فرحا، وكذلك النسيم والعطر قد فاح بمولده، وفرحت به آمنة بكبيرة البقاع التي نطقت شاكرة ربها هذا الفضل العظيم بمولد سيد المرسلين، يقول ابن الجوزي: [الكامل]

صباح الهدى ملأ الوجود سرورا	لما بدا وجه الحبيب منيرا
أطلعت ياشهر الربيع مشرفا	قمرا يفوق مع الكمال بدورا
شهر الربيع أتى بمولد أحمد	ولقد أتانا بالهناء بشيرا
وترنم الأطيوار عند ولاده	بقدم أحمد في الأنام نذيرا
وأتى النسيم مبشرا ومعطرا	وقضت بميلاد النبي نذورا
لما بدا وجه الحبيب تلالأ	كل البقاع وقد نطقن شكورا
ورأته آمنة يسبح ساجدا	عند الولاد إلى السماء مشيرا ⁽²⁾

ومن خلال الصفات التي ركز عليها ابن الجوزي، فقد حظيت صفات الرسول منها الخلقية والأخلاقية بنصيب وافر، فهو يقول: [الوافر]

ظريف كيس حسن جميل	سخي الكف سيماه الكرامه
لطيف الذات ما أحلاه بدرا	تثني الرمح حين رأى قوامه
رئيس سالم من كل عيب	بهيج نير وله علامه
له قدم لها في الصخر اثر	وفوق الرمل ليس لها علامه

¹ - لمزيد من الاطلاع على صفات النبي وخصاله وشمائله، انظر كتاب يوسف النبهاني، وسائل الوصول إلى شمائل الرسول.

² - صلاح الدين الهوارى، المولد النبوي الشريف، 88.

بشعر أدعج وله سواد كليل مظلم أرخى لثامه
 بطرف نيروله جبين له نور ينور في قيامه
 أزج الحاجبين بأنف اقنى كحيل المقلتين حوى القسامه
 ضحوك السنّ تنظّره بشوشا ومافي حبه عندي ملامه
 غزال سارح في أرض نجد يصيد الأسد إن أرخى لثامه (1)

فقد حاول الشاعر استقصاء الصفات الجسميّة والتركيز عليها، وهذا يظهر في مدائحه التي خصّ بها النبيّ محمداً، وأورد أيضاً صفاته المعنويّة التي تميّزه، مما جعل منها مضرب المثل، وموضع التناول.

ويقف ابن الساعاتي، ليدكر مكانة الرسول ويبين منزلته، حيث عمّ فضله البريّة جمعاء، وعلت منزلته فوق منازل النبيين، يقول: [البسيط]

لـولاه لم يك لا شمس ولا قمر ولا الفـرات وجاراها ولا النيل
 ولـم يجب آدم في حال دعوته نعم ولم يك قايل وهابيل
 فسـد الرسل حقا لا خفاء به وشافـح في جميع الناس مقبول
 له تزخرف أفناء الجنان وعن رضوانه حلّ منها العرض والطول
 كـم بردت غلة من ماء كوثره اذن وكـم فكّ مصفود ومغلول
 بث نبوتـه الأخبار إذ نطقت فحدّثت عنه توراة وإنجيل (2)

ويبين شرف الدين الأنصاري مكانة الرسول، ويثني على قدره الذي لا يداني، وبعدد دور الرسول في هداية الأمة الإسلاميّة، فمجده يفوق الآخرين، وبالتالي هو الذي يستحقّ الثناء والمدح، يقول: [مخلع البسيط]

خيـر نبيّ نبيـه قدر عـودي إلى المدح فيه أحمد
 ومرسـل حمده شعاري لأنـه في المعـاد أعود
 عقابـه للطغاة مقص وبابـه للغفـاة مقصد

1 - المصدر السابق، 93-94.

2 - ابن الساعاتي، الديوان، 48.

إن يحسده على علاه
أبـان نقص الجميع عنه
ردّ من العدل ما تولى
ألبسنا المجسد فانتصرنا
وكم شديد الضلال أعمى
فمثلته في العلاء يحسد
لما غدا في الكمال مفرد
كف من الجور ما تولد
بحدّ غضب له مجرد
أشرك لما رآه وحدّ(1)

فجعل من الرسول سبيلا للنصر، وماوى يلجأ إلى كهفه التائبين، فهو العزّ والفخر.

ويصل ملك النحاة بالرسول إلى مكانة سامية، فهو يتبوأ مكانة لا تدانى في السماء والأرض، فالقلم عاجز عن وصف مكانته، ومع ذلك تفخر النفس بهذه المكانة، ويختتم حديثه بالصلاة والتسليم عليه، يقول: [البسيط]

سمت علاك رسول الله فارتفعت
يا من رأى المالأ الأعلى فراعهم
يا من له دانت الدنيا وزخرفت الـ
يا من به عاد وجه الحق متضحا
علوت عن كل مدح يستفاض فما الـ
على علاك سلام الله متصلا
عن أن يشير إلى إثباتها قلم
وعاد وهـو على الكونين يحتكم
أخرى وبعـلاه يفخر النسم
من بعد أن ظوهرت بالباطل الظلم
جلال إلا الذي تنحوه والعظم
ما شئت والصلوات الغرّ تبسم(2)

أما أخلاق النبيّ فلو وضعت في كفة ووضعت أخلاق العرب والعجم ، فحتما سترجح أخلاقه، فهذا علي السخاوي يذكره، فالرسول من بدّد الظلمة، وكشف الغمّة، يقول:

نبينا بهـداه تهدي الأمم
محمد خيـر خلق الله كلهم
يا أمّة المصطفى هذا نبيكم
كما بنور سناه تشرق الظلم
لا العرب فيها له شبه ولا العجم
وهذه تربة المختار فاستلموا(3)

1 - الشرف الأنصاري، الديوان ، 149 .

2 - شفيق محمد الرقب، الشعر العربي في بلاد الشام في القرن السادس الهجري، 272.

3 - هنرييت سابا، اتجاهات الشعر العربي، رسالة دكتوراة مقدّمة إلى جامعة القاهرة، 290.

3- نفسـه ، 297.

وامتدح السخاوي حسب النبيّ في قصيدة أخرى، فهو خير الورى حسبا، وسيدّ الأنبياء، ويمتاز بسعة الفكر، وبفضل الكرم، كما تهتدي به الأمم، ولا نظير له عند العرب والعجم، يقول: [البسيط]

نبيّنا بهداه تهتدي الأمم كما بنور سناه تشرق الظلم
محمد خير خلق الله كلهم لا العرب فيها له شبه ولا العجم
يا أمّة المصطفى هذا نبيكم وهذه تربة المختار فاستلموا (1)

وبمثل ذلك المعنى يمدحه الشاعر يعقوب الدمشقي، ويذكر فضل الرسول من خلال تعداد سور القرآن الكريم، فقد خصّه الباري بها، ولم تنزل على أحد سواه، يقول:

[البسيط]

خير الأنام رسول الله من نزلت عليه طه وياسين وتنزيل (2)

وتصدّى الصرصي لسرد سيرة النبيّ في قصيدة يصل عدد أبياتها إلى ثمانمائة واثنين وخمسين بيتا من الشعر، بدأ بذكر أجداد النبيّ، ثم تناول مولده، ورضاعته، ونشأته، وبعثته، وأخلاقه، وإسراؤه، ومعراجه، وجهاده، ومعجزاته، يقول فيها: [الكامل]

لما اصطفى الله الخليل وزاده شرفا ونجّاه من النيران
اختار إسماعيل من أولاده وبني كنانة من بني عدنان
ثم اصطفى منهم قريشا واصطفى أبناء هاشم الفتى المطعان
ثم اصطفى خيبر الأنام محمداً من هاشم فسمت على قحطان
وأبان كعب جدّه في خطبة بعروبة في سائر الإخوان
فضل النبيّ وودّ أن يبقى إلى أيامه لقتال ذي شأن
ولقد بدت أنواره بجبين عبد الله ظاهرة لذي عرفان
وبدت لآمنة الحصان لحملها بأخفّ حمل راجح الميزان (3)

1- شفيق الرقب، الشعر العربيّ في بلاد الشام في القرن السادس، 272.
3- الصرصريّ، الديوان، 551.

ولا يترك الشاعر فرصة دون تبيان حسن أخلاق الرسول، وجميل صفاته، وأنه مؤهل من رب العالمين ليكون نعم المبلغ، ثم ينتقل للحديث عن معجزاته وفضله على بقية الأنبياء، ولا يفوته مدح صحابته الأخيار، وبذلك جاءت سيرة النبي متكاملة في هذه القصيدة .

ومضى الزمخشري في عرض الهدى النبوي، فالرسول خير من هدى العالمين، فقد أرسله الله إلى الثقلين، وهو خير من سلك طريق إبراهيم، وبعد ذلك انتقل إلى بطولته وشجاعته، فهو سيف مسلط على كل من وقف في وجه الباغين، والمعرضين، فقال:

إلى الثقلين المصطفى كان مرسلا	من المتعالي جدّه المبارك
ولمّا أتاهم بالحنفية التي	هي الصبح جلى جنح أسود حالك
بملة إبراهيم أثبت ملة	وأرسخها قبل الجبال الروامك
أناهم بآيات الكتاب فأصبحت	بوازع في الآفاق غير دوالك
بداهم بأشبه السيوف بواتك	فصدوا فثنى بالسيوف البواتك (1)

ويتحدّث عبد المحسن التنوخي عن ضرورة الالتزام بالدين الإسلامي، ويثني من خلال مديحه على القرآن الكريم، فهو منهاج حياة، وهو منقول عن العرش فلم يخالطه ريب، ففيه من الحكمة والبيان والموعظة مما يجعل البشر عاجزين عن مجاراته أو الإتيان بمثله، يقول:

هو النبيّ فمن والاه منتصر	على عداه ومن عاداه مخذول
لقد هدانا إلى دين له شهدت	بالحق والصّدق توراة وإنجيل
وجاءنا بكلام لا يبدّله	خلق وهول لكلام الله تبديل
فيه بيان وأمثال ومرحمة	وحكمة ومواعيظ وتفصيل
كلامه الصدق لا ريب يخالطه	لأنه عن إله العرش منقول (2)

1 - علي عمرو، تحقيق ديوان الزمخشري ودراسة شعره، 18.
2 - النبهاني، المجموعة النبهانية في المدائح النبوية، 36/3-43.

وبذلك نشاهد أنّ الشعراء اختلفوا في طريقة تقديم وعرض سيرة الرسول، فمنهم من بدأ بالحديث عن الصفات مباشرة، ومنهم من عرض أحداث السيرة حسب تطورها الزمني، مثلما فعل الصرصري، ومنهم من أفاض في بيان نسبه، ونلاحظ تفاوتاً في الحديث عن النسب، وتفوقه - صلى الله عليه وسلم - على بقية الرسل والبشر، وبطريقة التناول هذه يمكن القول بأنّ شعراء العصرين قد أجادوا أيّما إجادة في تناول المفردات النبوية التي تتكوّن منها المدحة النبويّة، ولا ننسى أنّهم ركزوا على حقيقة دينيّة وهي أنّ الدين الإسلامي حوى ما قبله من أديان وجاء متممًا لها، وشاملاً لما حوت، وبالتالي لا يقبل الله غير الإسلام ديناً.

2. معجزات الرسول:

لا شكّ في أنّ الحديث عن المعجزات النبويّة قديم حديث، لأنّ غالبية الشعراء قد تحدّثوا عنها وأفاضوا في ذلك، والمعجزات التي أجراها الله على يدي الرسول كثيرة، منها: ما هو سماوي كحادثة الإسراء والمعراج، أو أرضيّة كحنين الجذع، ومنها ما يتعلق بالإنسان أو الحيوان أو النبات أو الجماد، أضف إلى ذلك ما يتعلق بأخلاقه وبشارات الأنبياء والنبوءات، على أنّ أعظم معجزاته على الإطلاق هي معجزة القرآن الكريم، وهي المعجزة الباقية الخالدة إلى يوم القيامة. (1)

وأكثر الشعراء حديثاً عن المعجزات النبويّة الصّرصري، فقد أفاض في تعداد تلك المعجزات مع تنوعها، وتنصّدّها معجزة الإسراء والمعراج، والشفاعة الممنوحة له دون سواه، ويخاطبه متوسلاً به قائلاً: (البيسط)

يا سيّدا لاسمه المشتقّ من سمة الـ محمود بالنـور فوق العرش أسجال
يا سيّدا وضعت عننا بمبعثه مهدي الفـوائد آصار وأغلال
يا سيّدا نال بالمعراج مرتبة علياء فيهـا له قرب وإقبال

1 - ينظر مصطفى مراد، معجزات الرسول، 10.

يا سيّدا يوم حشر العالمين له
يا سيّدا خصّصه بالقطف من عنب
يا سيّدا في كنوز الأرض أصبح ذا
يا سيّدا سحّ ماء من أصابعه
يا سيّدا سبّحت لله في يده
يا سيّدا حنّ جذع حين فارقه
يا سيّدا سجد السّاني العصيّ له
يا من دعا بنزول القطر في سنة
بمقعد القوس تبجيل وإجلال
ربّ عليه له من وإفضال
زهد فحلت له في الحرب أنفال
من فارس هـو للأقربان فلان
صمّ صوامت والأصحاب حفال
حين تكلّى لها بالفقد إعوال
فأض بعد نفور وهـو مذلال
شهباء فانهلّ هامى الودق هطال⁽¹⁾

فالرسول قد خصّ بمقعد صدق عند مليك مقتدر لا يبلغه أحد إلا هو، ويغبطه عليه الأنبياء، والمؤمنون، وهو النبيّ الذي حللت له الغنائم، وسبّح الحجر بين يديه، وانهاى الماء بين أصابعه، وحنّ الجذع إليه بعد أن افتقده، فهذه مفاخر خصّ بها النبيّ، فتنبّه أيها السامع لما في ذلك عبرة وعظة .

وقد استغلّ بعض الشعراء حديثهم عن المعجزات، ليذكروا الناس بالواجب الملقى على عاتقهم تجاه ربّ السماوات، فالفرد يجب عليه أن يلوذ إلى ربّه، مصليا وصائما وزاهدا، ففي هذا صلاح له، وكأني بابن عربي يستغلّ التعريض بحادثة الإسراء والمعراج، ليتنزل بالذات الإلهية، ويدعو الناس إلى سلوك طريق الصوفيّة، يقول :

[البسيط]

أنضى الركاب إلى ربّ السماوات
واعكف بشاطئ وادي القدس مرتقا
وغب عن الكون بالأسماء يا سندي
ولذ بجانب فرد لا شبيه له
بل صم وصلّ وفكر وافقر أبدا
فقد قضى الله بالميراث سيّدنا
وانبذ عن القوس لب أطوار الكرامات
واخلع نعالك تحظى بالمناجاة
حتى تغيب عن الأسماء بالذات
ولا تعرّج على أهمل البطالات
تل معالِم من علّم الخفيّات
لكلّ عبد صدوق ذي تقيّات⁽²⁾

¹ - الصرصريّ، الديوان، 370-369.

² - ابن عربي، الديوان، 9.

وقد حاول بعض الباحثين التشكيك في صحة بعض المعجزات التي أوردتها الشعراء أثناء مدحهم للرسول، فمنهم من دعا إلى التحقق من صحتها، فقد أشار زكي مبارك في معرض حديثه بأن عرضها يحوي خطورة، وإذا قمنا بعرضها فإنها تحمل معها الخشية، وإن قصد بها النفع. (1)

ومن الشعراء من اقتصر على إيراد معجزة واحدة، حيث اقتصر على الظاهرة منها، فهذا شرف الدين الأنصاري اختار الشفاعة وضمنها همزيته النبوية، يقول:

فأننت النبيّ الوجيه الذي حوى في الشفاعة فضل الجزاء
فشرّفه الله مختاراه بخير صلاة وأزكى ثناء (2)

وفي لاميته يبين الأنصاري أن مجيء المعجزات وظهورها، هو تصديق للرسول، وبها نال القبول، يقول:

أظهرت فينا المعجزات فحققت صدق الرسول بلطف منع المرسل
فأطاع من سبقته له الحسنى ومن جاد القبول له بجد مقبل
وعصاك من كتب إليه شقاءه فطغى وأمهله ولما يهمل
زحزحت عن طروق المظالم عادلا فينا ومن للعدل إن لم تعدل (3)

وأودع عبد المحسن التنوخي مدحته اثنتين من معجزاته، فمحمد صاحب الحوض، وهو الشفيح المشفع يوم القيامة، يقول:

ذو الحوض يورده في الحشر أمته وذو الشفاعة ما في دين تأويل (4)

ومن الشعراء من تخير بعض المعجزات وضمنها مدحته، وجاء بها ليقنع النفس، ليحملها على الإيمان، ويحثها على الإقرار بحبّ الحبيب محمد، لتظلّ على صلة به، لتحظى بشفاعته يوم القيامة، يقول عبد الرحمن بن الجوزي: [البسيط]

1 - المدائح النبوية في الأدب العربي، 190.

2 - شرف الدين الأنصاري، الديوان، 536.

3 - نفسه، 562.

4 - إسماعيل النبهاني، المجموعة النبهانية في المدائح النبوية، 36/3.

يا نفس نلت المنى فاستبشري وسلي هذا الحبيب وهذا خاتم الرسل
 هذا الذي مـالأت قلبي محبته هذا الذي سهـرت من أجله قلبي
 هذا الذي في مقام الحشر شافنا إذا استغثنا بـه من شدة الوجـل
 هذا الذي جاء للأبـحار مالحة فمـجّ فيهـا فصار الماء كالعسل
 هذا الذي ردّ عيننا بعد ما قلعت وريقه قد شفى عيـن الإمام علي
 يا درّة الأنبيـا يا روضة العـلما يا ملجأ الغربـيا يا سيّد الرّسل
 كن لي شفيعا إذا جاء الحساب غدا من حرّ نار بهـا الأبحار تشتعل⁽¹⁾

وكثيرا ما كانت ترد المعجزات النبويّة في غمرة تبيان بطولات الرسول، وذكر معاركه الحربية التي خاضها من أجل تركيز دعائم الإسلام، وورودها في مثل هذه الأماكن يحمل دلالات خاصّة، فالإشادة بطولات الرسول وتعداد صفاته وهو في ميدان المعركة، يقصد الشاعر من ورائه استنهاض الهمم، وفيه دعوة إلى الإقتداء بالرسول وبالسير على نهجه لتخليص البلاد والعباد من دنس المحتل ووجوب دحره، يقول الصرصريّ:

[الطويل]

فقام بنصر الله بالسيف جاهدا فما رام إلا والظلام دحور
 فأضحت شمس الحق بعد كسوفها بأحمد يعلو ضوءها وينير
 له معجزات سوف أذكر بعضها اختصّاراً فأوصاف النبيّ كثير
 فمعجزة القرآن أعجز خصمه فحار فصيح القوم وهو مهير⁽²⁾

فالرسول بعد الدعوة السلمية، أعلنها جهاديّة محمدية، لكلّ من أمال وجهه وأعرض عن الدخول في دين الله، وصنع ذلك بعد أن أذن له .

والشعراء والكتاب يعجزون عن ذكر معجزاته جميعا، وبالتالي فهم لا يوردونها كاملة أو مفصلة، فهذا الزمخشريّ يذكر قصور الشعراء وغيرهم عن إعطاء الرسول حقه:
 محمد إن تصف أدنى خصائصه فيا له أقصّة في شرحها طول

¹ - صلاح الدين الهواري، المولد النبوي الشريف ، 100-101.
² - الصرصري ، الديوان ، 156.

وتبقى المعجزة مفردة مهمة من مفردات المدحة النبوية في هذين العصرين وفي بقية العصور اللاحقة، فقد عدت من المفردات التي لم يتوان الشعراء عن ذكرها، أو التغني بها، ولأنها تدل على العواطف الدينية التي يحملها الشعراء، عندما يذكرونها، وهي تحمل دلالات هامة، تبين قدرا كبيرا من الإثارة للسامعين تستهويهم وتجلب انتباههم لما تحمل من خوارق العادات، أضف إلى ذلك أنها لم تظهر إلا على يدي نبي من أنبياء الله، وكثرت عند الرسول الأكرم فخارا له، وتأيدا لدعواه، وحفزا للمتدربين، أو الجاهلين بأمور الدين من أجل دعوتهم للإيمان .

3. الحقيقة المحمدية :

عندما نذكر الحقيقة المحمدية، فإنه يتبادر إلى الأذهان مباشرة الصوفية والتصوف، وهم من تحدث عنها كثيرا، ويرون أن الرسول نور أزلي ظهر في آدم حين أوجده الله، وتمثل كذلك في إدريس حين أصبح نبيا، وكذلك وجد في شخص نوح حين دعا قومه وعصوه، وعندما صنع الفلك، ونجا هو ومن آمن معه، وتجلى بوضوح في شخص إبراهيم، فصورة موسى وعيسى، ثم ظهر باسم محمد آخر الأنبياء والمرسلين وخاتمهم.(1)

ويعلق محمود سالم محمد على ظهور الحقيقة المحمدية بقوله: "أخذ شعراء المدائح النبوية جميعهم بالحقيقة المحمدية، أخذ بديهة دينية لا تحتاج إلى نقاش، وذكروها في قصائدهم، ومدحوا رسول الله بها، بل جعلوها أقصى ما يمدح به، فقد استهوتهم نظرية الحقيقة المحمدية، لأنها تتجاوب مع تحليق الخيال ومع المبالغة الشعرية، وقد مدّهم أصحاب السيرة والخصائص والدلائل بفيض من الروايات الغيبية، التي تثير المخيلات، وتفسح القول أمام القول الشعري.(2)

وبالنظر إلى تلك المكانة السامية التي تبوأها الرسول بين الرسل، وحاز من بينهم أعلى المراتب، وتفاخر بذلك الشعراء، وأطلقوا لأنفسهم العنان في سبقه الأكوان وما

1 - ينظر علي صافي حسين، الأدب الصوفي في مصر في القرن السابع الهجري، 380.
2 - المدائح النبوية حتى نهاية العصر المملوكي، 249.

حوت، وتجسده فيمن سبقه من الرسل، مع أنهم بعثوا على فترات، إلا أن نوره سطع وغلب، واستحق بذلك هذه الرتبة التي تغنى بها الشعراء، وأصبحت مفردة لا غنى لشعراء المديح النبوي عنها، وظلوا يكررونها في مدائحهم.

ومن أقدم الشعراء الذين ذكروا النور المحمدي في أشعارهم العباس بن عبد المطلب عم النبي محمد، وذلك عندما مدحه، يقول: [المنسرح]

من قبلها طبت في الظلال وفي مستودع حياث يخصف الورق
ثم هبطت البلاد لا بشر أننت ولا مضغمة ولا علق
بل نطفة تركب السفين وقد أجم نسرا وأهله الفرق
تنقل من صالب إلى رحم إذا مضى عالم بدا طبق
حتى احتوى بيتك المهيمن من خندق علياء تحتها النطق
وأنت لما ولدت أشرقست ال أرض وضوءات بنورك الأفق (1)

وهذا ابن الساعاتي، يقف في مدحته مبينا مكانة الرسول، فهو جوهر الكون وأساسه، وهو من بشرت به الكتب السماوية، يقول الساعاتي عندما وقف معارضا كعب بن زهير في برده:

هو البشير النذير العدل شاهده وللشهادة تجر ريح وتعديل
لولاه لسم تك لا شمس ولا قمر ولا الفترات وجاراه ولا النيل
وسيد الرسل حقا لا خفاء به وشافع في جميع الناس مقبول
بث نبوته الأخبار إذ نطقت فحدثت عنه توراة وإنجيل (2)

وهذه الأبيات سبق أن سقناها في معرض الحديث عن مدح الرسول، وبيان صفاته، هذه الأبيات كانت بما حوت، وما فيها من تكرار، وأشار بعض الباحثين إلى أن

1 - الصّدي، الغيث المسجم في شرح لامية العجم، 275/1.
2 - ابن الساعاتي، الديوان، 48.

المعاني التي أوردها ابن الساعاتي هي التي استقرت لاحقا لدى الصوفيين من أمر الحقيقة المحمدية⁽¹⁾.

وتظهر النزعة الصوفية بجلاء في حديث ابن الجوزي عن الحقيقة المحمدية، خاصة في همزيتها، فهو يفتخر بشرف النبي، وبمكانته، فالرسول سيّد الكونين، وسيّد هاشم، به توسّل آدم من ذنبه، وكذلك فعلت حواء، ونوح عندما أتى قومه الطوفان، وكذلك نجا إبراهيم من النار عندما أوقدت له فخرج منها بسلام، وبوساطته دعا يونس في ظلمات الحوت، وإسماعيل وعيسى وداود وموسى، يقول:

هو سيّد الكونين سيّد هاشم	ما في سيادته عليه خفاء
فيه توسّل آدم من ذنبه	وتشفعت بجنابيه حواء
وبه توسّل نوح في طوفانه	فأجيب حين طغى عليه الماء
وبه الخليل نجا من النار التي	قد أضرمت من أجله الأعداء
وبه دعا إدريس فارتفعت له	عند المهيم من رتبة علياء
وبه الذبيح فدي بذبح جاءه	فله كما شهد الكتاب فداء
بمحمد فآز الكليم بطوره	لما أتاه من الإله نداء
إنجيل عيسى والزبور بفضله	شهدا وكرم فضل له وعلاء
وبعثه التوراة يشهد لفظها	للمصطفى ولها عليه ثناء
الله أكبر ما أتم فخاره	في بعض ذا تتخير العقلاء ⁽²⁾

ويرى الباحث أن تلك الأنوار التي ذكرها الشاعر؛ إنما هي من باب المبالغات التي دأب عليها الصوفيون، وأن الشاعر بإيراده لهذه الأنوار إنما تحمل دلالة قطعية على تعلق الشاعر بشخص النبي، فقد حملته العاطفة الدينية إلى ذلك، أضف إلى ذلك شدة الحب والتفاني في الحبيب ومن أجل رفع منزلته حدث بالشاعر إلى بلوغ تلك الذروة من التغني به.

¹ - ينظر محمود مكي، أدبيات المدائح النبوية، 106.
² - صلاح الدين هواري، المولد النبوي الشريف، 97-98.

وعند حديثنا عن الحقيقة المحمدية والتغني بها لا بدّ من التعرّيج على الشاعر
الصرصريّ، فهو ممن له صولات وجولات في هذا الباب، يقول: [الكامل]

يا سيّد الأشراف يا من حبّه في كلّ قلبٍ صادق مغرور
يا من لرتبته التّبيّ سمّت الذرى علم على همام الذرى مركز
بـرزت في نيل المقامات العلى ولمثل مجـدك يثبت التبريز⁽¹⁾

وتتعدّد طرق الصوفية، وتظهر في هذين العصرين مجالات يصل فيها الشعراء إلى
الرمز، خاصّة أولئك الذين شغفوا بالذات الإلية وبحبّه، فهم يستغرقون حواسهم في إبراز
شاعريتهم، وصولاً إلى من أحبّوا، فهذا عمر بن الفارض (توفي سنة ستمائة واثنين
وثلاثين هجرية) يقول:

وما منهم إلا وقد كان داعياً به قومه للحقّ عن تبعيّة
فعالنا منـهم نبيّ ومن دعا إلى الحقّ منـنا قام بالرّسليّة
وعارفنا في وقتنا الأحمدي من أولي العزم منـهم آخذ بالعزيمة
وما كان منهم معجزاً صار بعده كرامة صديق له أو خليفة
كراماتهم من بعض ما خصّهم به بما خصّهم من إرث كلّ فضيلة⁽²⁾

فهو جعل السّبق للنبيّ، والرسل الذين سبقوه من قبل كانوا تابعين له، فأخبر أنّ للنبيّ
المعجزات، ولغيره من الأنبياء السّابقين الكرامات، فهم بمثابة أصحابه الذين كانت
ترافقهم بعض الكرامات.

وهذا ابن عربيّ يعبر عن أزليّة النور المحمديّ أو الحقيقة المحمديّة، فالشاعر يظهر أنّ
محمدًا أوّل الوجود كله، نزل مؤيّدًا بالقرآن معجزته الكبرى، وفي ثنايا حديثه عن أزلية
النور، ذكر مجموعة من الصفات التي خصّ بها النبيّ، وتحدّث عن معجزاته، يقول في
دالّيته: [الطويل]

ألـم تـمـر أنّ الله أكـرم أحـمدا ونـادى به حتّى إذا بلغ المدى

¹ - الصرصريّ، الديوان، 238.

² - ابن الفارض، الديوان، 104.

تلقاه بالقـرآن وحيـا منزلا فـكان له روحا كريما مؤيدا
وأعطاه ما أبقي عليه مهابة فأورثه علمه وحلما وسوددا
وأعلى به الدين الحنفي والهدى وصيره يوم القيامة سيّدا
وهيأ يوم الفصل عند وروده له فوق أدنى في التقرب مقعدا⁽¹⁾

ونلاحظ في الأبيات السابقة، أنّ الشاعر لم يأت بالغموض والتعقيد اللذين درج عليهما
عندما يفرق نفسه في معرض تعلقه بالذات الإلهية، أو عند حديثه عن الحقيقة المحمدية
التي أفاض في ذكرها كباقي الصوفيين.

كما نلاحظ أنه قرن محبة الرسول بمحبة الله، وجاء هذا مخصصا عند الصوفيين، وفي
ذلك يقول شوقي ضيف: "ويدوي المديح النبوي في كل مكان، ويتكاثر في كل بيئة،
وخاصة بيئة المتصوفة الذين جعلوا محبة الرسول جزءا من محبة الذات الإلهية، بل إنّ
محبتهم واحدة، وحقيقتهم واحدة، فلا فرق بين الحقيقة المحمدية والحقيقة الإلهية
التي تمثلت في الأنبياء، وتمثلت في أقطاب الصوفية من بعدهم، ولعلّ متصوفا لم يتغنّ
بأزلية الوجود المحمدي كما تغنى ابن عربي الصوفي المشهور"⁽²⁾

ويذكر الشاعر شرف الدين الأنصاري الحقيقة المحمدية، فقد اصطفى الله نبيّه، وحباه
بالقرب من دون البرية، وبذلك أصبح مضرب الأمثال، يقول في لاميته:

ومن اصطفاه الله من دون الورى فأجله فوق الكواكب من عل
وحباه بالقرب الذي أضحي له جبريل عن عجب الجلال بمعزل
وعلا في الامثال فهو لمن علا في الوصف أقصى غاية المتمثل⁽³⁾

¹ - ابن عربي، الديوان، 123.

² - فصول في الشعر ونقده، 232.

³ - شرف الدين الأنصاري، الديوان، 561.

ويقف الشاعر عبد المحسن التنوخي على قبر محمد صَلَّى اللهُ عليه وسلَّم ، ويمتدح نوره المحمدي، فنور الرسول صَلَّى اللهُ عليه وسلَّم قد أضاء قبره، و من يشاهد نوره فإنه يذهل، ويمتدّ نوره ليصل إلى هايل الذي اقتفى النهج المحمدي، يقول: [البسيط]

يا طيبُ طبت بقبر فيك ساكنه لــــه على كــــلّ خلق الله تفضيل
قبر بــــه النور لا تخبو أشعته رائـي سناه من الأنــــوار مدهول
قبر له حلّ بيتا حلّ فيه رضا من الإله وتكريم وتبجيل
فيه النبويّ الذي لولا نبوته لما اقتفى الرشد قبل اليوم هايل (1)

وأغلب شعراء العصرين الزنكي والأيوبي تحدّثوا عن الحقيقة المحمديّة، وأوردوها في قصائدهم النبويّة، ويعود ذلك لأسباب منها: انتشار الصوفيّة والحبّ الإلهي، والوازع الديني، والحرص على صفّ المسلمين وجماعتهم من الأخطار التي أهدقت بهم، والردّ على أهل العقائد والنحل الأخرى، خاصّة تلك التي كانت منتشرة في مصر وبلاد الشام، ولا نستثني وجود النصارى، الذين غزوا بلاد المسلمين، وورودها يحمل دعوة إلى التمسك بالمنهج النبوي؛ لأنّ فيه الصّلاح في الدارين، ولا يجب أن ننسى أنّ أغلب الشعراء الذين مدحوا الرسول كانوا من الفقهاء، وبالتالي هم أقرب الناس إلى الدعوة المحمديّة، ومن نظم على شاكلتهم إنما صنع ذلك مجاراة لهم .

4. صحابة الرسول وآل بيته - رضوان الله عليهم جميعاً .:

لقد تبوّأ الصحابة - رضوان الله عليهم - مكانة بارزة في الإسلام منذ ظهوره، لهم أياذ سابعة عليه، فهم المناصرون للرسول منذ اليوم الأول لبداية الدّعوة المحمديّة، نالوا درجات رفيعة ومنازل عالية، وأخصّ بالذكر أولئك الذين خلفوا محمداً بعد وفاته، ولم ينل أيّ واحد منهم مكانته تلك من فراغ، وكتاب صحيح مسلم يزخر بتلك الأحاديث النبوية التي تبين فضلهم (2) .

¹ - يوسف النبهاني، المجموعة النبهيّة في المدائح النبويّة، 36/3.
² - ينظر الإمام مسلم، صحيح مسلم، 1188. (كتاب فضل الصحابة رضي الله عنهم)

وقد بين الرسول فضل صحابته، ففي الحديث الذي أورده البخاري في صحيحه، يقول سيدنا محمد: " خير الناس قرني ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم، ثم يجي قوم تسبق شهادة أحدهم ويمينه شهادته " (1).

والحديث عن فضائلهم في الشعر العربي ليس بالغريب، فقد حاول الشعراء ذكر فضائلهم في منازل عدة، بداية من حسان ووصولاً إلى الشعر الحديث، مروراً بالشعر العربي في أزهى عصوره الأموية منها والعباسية، وفي باب المدائح النبوية كان الشاعر كعب بن زهير ممن له قدم سبق إلى مديحهم عندما قام بمدح المهاجرين، وسلك الشعراء مسلكه من بعده، وبذلك جعلوا مديح الصحابة مفردة من مفردات المدحة النبوية.

وذكر الصحابة في المدحة النبوية، يعني التغني بفضائلهم وبأمجادهم، فهم تحملوا مع الرسول عبء الرسالة، فقد ذكر الشعراء بطولاتهم، وتغنوا بتضحياتهم، وأشادوا بكريم شمائلهم، أما موضع مديحهم هذا من المدحة النبوية، فهو يأتي بعد مدح الرسول، وذكر معجزاته، أي في الأبيات الأخيرة، وتسبق الخاتمة.

وشعر المديح النبوي في العصرين الزنكي والأيوبي ذكر الصحابة بصورة بارعة، فأغلب مدائح الرسول تحتوي ثناء عليهم، وتركز على فضلهم، خاصة الخلفاء الأربعة، فقد جاؤوا مرتبين حسب خلافتهم للرسول، فقد وقف علي السخاوي، يعددهم ويبين فضل كل منهم، فأبو بكر من السابقين للإسلام، وكان حقيقاً بالخلافة لأنه قام بأعبائها خير قيام، وهو أحد الصحابة الذين أنفقوا أموالهم في سبيل الدعوة حتى غدا معدماً، وسماه الرسول بالصديق نظراً لسبقه وتصديقه للرسول، وهو أنيس الرسول في الغار، وسيكون رفيقه في الجنان منعماً، وبعد أن أقرأ الرسول السلام، يقول في ميميته:

[الكامل]

وعلى أبي بكر خليفتك الذي للحق قمام مثقفاً ومقوماً
وغدا بأعباء الخلافة ناهضاً لا عاجزاً فيها ولا متلوماً

1 - البخاري، صحيح البخاري، 204/2. (باب فضل الصحابة)

وعلى سبيل الله أنفق ماله حتى تمسك بالعبادة مقدا
سماه بالصديق صدق نقيّة سبق الرجال إلى النجاة فأسلما
وغدا بذيل المصطفى متمسكا وعلوى أوامره يشدّ مصمما
وأنيسه في الغار حيث يقول لا تحزن فإن الله أمنع من حمى
وصحبتيه في قره ورفيقه يوم القيامة في الجنان منعما (1)

ونلاحظ أن ثناءه على أبي بكر قد استغرق سبعة أبيات، وانطلق يمدح عمر بن الخطاب، الخليفة الثاني، يقول:

وعلى أمير المؤمنين منكس الأصنام حين غدا بملتها مسلما
عمر الذي للدين كان مؤيدا ولمن يعافك مذلا مراغما
في الحق فظّ لئن متعظم يجفو الشريف له ويدنو الأيما
فتح الفتوح وشاد للدين العلى وغدا به ربّع الضلال مهديما (2)

وينتقل إلى عثمان بن عفان، واصفا حياؤه، وهو من جمع القرآن، واستحت منه الملائكة، وزوج ابنتي الرسول، وبذلك نال شرفا رفيعا، يقول:

وعلى ابن عفان الذي استحيت لأجل وقاره منه ملائكة السما
القانت العقب الصبور أحاطت ال بلوى فأذعن للقضاء مسلما
عثمان ذي نور نصير المصطفى زوج ابنتيه علا بذلك مكرما (3)

ثم يمدح أبا الحسن علياً، الذي ارتضاه الله إماماً، كريم النسب، وصاحب الفخر، وزوج البتول، ما تأخر يوماً عن نصره الإسلام والدين، يقول:

وعلى أبي الحسن الإمام المرتضى ذي الفخر والنسب الكريم المنتما
زوج البتول أخوي الرسول فتى الوغى ما فرق قط ولا تأخر محجما (4)

1 - ابن الشعار الموصلي، قلاند الجمال في فراند شعراء هذا الزمان، 26/5-25/5.

2 - نفسه، 26/5.

3 - نفسه، 26/5.

4 - نفسه، 27-26/5.

ومن الشعراء الذين ركزوا على الخلفاء الأربعة، مع عدم إغفال الآخرين من الصحابة، الصرصريّ الذي يقف مركزاً على جانب النصرة للرسول في ميادين القتال، فهم نعم النصير ، وهم من فتح الأمصار، واستحقوا أن يكونوا نعم الأخيار، يقول: [البسيط]

واختار أصحابه منها لنصرته من كل ما معلم في الحرب مشتهر
فاختار منهم لنصر الدين أربعة ساروا ووقد خلفوه أحسن السير
منهم أبو بكر الصديق مؤنسه في الغار إذ نفروا من حادث الغير
ومنهم عمر الفاروق مفتح ال أمصار عدل الحكم لم يجر
وإن عثمان ذا النورين جامع آ يات الكتاب لمنهم خير مصطبر
والهاشمي علي صهره وأبو سبطيه منهم إمام طاهر الأزر
أولئك شهد الهادي البشير لهم حقا بمقعد صدق عند مقتدر
وأهل بيته رسول الله ليس لهم مكافئ في فخار عند مفتخر
والأربعون فمن أبدال أمته زهر خلائقهم أبهى من الزهر (1)

فالشاعر ينطلق من مدح الرسول إلى مدح خلفائه الأربعة، ثم ينتقل لمدح آل البيت ثم الأربعين المقربين، وهؤلاء الصحابة يستحقون أعلى الجنان عند عزيز مقتدر.

غير أن بعض الشعراء لم يفصحوا من خلال مدحهم بأسماء الصحابة ، وإنما امتدحوا معتمدين مدحهم ليشمل الصحابة، وآل البيت ، والأحزاب ، وأهل الفضل، والقدر الرفيع، يقول ابن الجوزي: [الوافر]

عليه الله صلى ما تغنى حمام فوق أغصان الربيع
وآل ثم أصحاب وحزب أهيل الفضل والقدر المنيع (2)

ويمدح عبد المحسن التنوخي الصحابة، ولكنه لا يفصح من خلال مديحه لهم بذكر أحدهم، وإنما عمد إلى بيان فضلهم ، وذكر مآثرهم على الإسلام، فقد كانوا متممين

¹ - الصرصري، الديوان، 201-202.

² - صلاح الدين الهواري، المولد النبوي الشريف، 91.

ومكتملين، وبما أنهم أرضوا ربهم، فقد رضي الله عنهم، يقول في لاميته: [البسيط]
ثم الصلاة على أصحابه فيهم قد كان للدين تميم وتكميل
وعنهم رضي الرحمن إنهم أرضوه والأجر عند الله مكفول
هم الألى بايعوه تحت أيكته وللملائك تكبير وتهليل⁽¹⁾

ومديح الشعراء للصحابة يقودنا إلى تضمين الشعراء مدائحهم النبوية مديح آل البيت
النبوي، فقد تغنوا بهم، من هنا جاءت الانطلاقة، حيث ازدهر مديح آل البيت من
خلال المدائح النبوية، إذ تعدّ المدائح النبوية حديقة غناء يانعة أثمرت ونبتت فيها
أنواع من الورود التي تعبق بروائح عطرية من بينها مديح آل البيت الكرام، وكلّ جاء
بصرف النظر عن الطائفة أو ما يعرف بالتشيع، وإن أغرق الشيعة بمديح آل النبي، وأفردوا
قصائد مستقلة في مدحهم.

تفاخر الشعراء بمدحهم لآل النبي، فمجدهم مأثول في الجاهلية والإسلام، ولا
يستطيع أحد أن ينكر هذا الشرف، والفضل يعود إلى روابطهم الأسرية بالنبي محمد،
وفضلهم تقصر عنه السادات، ويتغنى عبد المحسن التنوخي بهم قائلا:

هـل مثل مجدكم آل النبي له في الجاهلية والإسلام تأثيل
مجد أثيل قريش شيدته لكم ما شأن شائدة ذمّ وتبخيل
فخرا بذلكم آل النبي فقد أدركتم ما وننت عنه البهاليل⁽²⁾

وبعد فإن ابن جبير يعبر عن حبه للرسول، ثم يلتفت لبيت هذا الحب إلى آل بيته
الغرّ الميامين، فيصفهم بالنجوم المضيئة، ويدعو إلى موالاتهم، مع أنه يوضّح مبدأه
صراحة، فهو لا يكنّ حقدا لصحابته، ويرى أن من يكنّ حقدا لهم هو كافر، وجاحد
لفضلهم وجهادهم، ونصرهم للرسول بالسيف عندما تطلب الأمر، يقول: [الطويل]

أحبّ النبيّ المصطفى وابن عمّه عليّاً وسبطيه وفاطمة الزهرا
هم أهل بيت أذهب الرّجس عنهم وأطلعهم أفق الهدى أنجما زهرا

¹ - يوسف النبهاني، المجموعة النبوية في المدائح النبوية، 39/3.
² - نفسه، 39/3.

موالاتهم فرض على كل مسلم وحبهم أسنى الذخائر للأخرى
وما أنا للصحب الكرام بمبغض فإني أرى البغضاء في حقهم كفرًا
هم جاهدوا في الله حق جهاده وهم نصرُوا دين الهدى بالظبا نصرا
عليهم سلام الله ما دام ذكرهم لدى الملائكة الأعلى وأكرم به ذكرا⁽¹⁾

5. التوسل بالرسول صلى الله عليه وسلم :

لعل التوسل بالنبي محمد يعدّ من مفردات المدائح النبوية المهمة؛ لأنها الغاية التي من أجلها قام الشاعر بالمديح، ولم تكن البغية من وراء هذا التوسل تحقيق مكاسب مادية، أو دنيوية، وإنما أرادوا طلب العفو، واستسماح الرسول كي يكون نعم العون يوم القيامة، لهذا لجأ أكثر الشعراء إلى التوسل بالنبي، ويعزى هذا إلى حاجة في نفس الشاعر يريد بثها، ربما لمعصية اقترفها، ويبغي تبرئة نفسه منها، لشعوره بعظم الذنب، أو وراثاً لأمة يندب حظها، ويرثي لحالها.

وممن يصوّر بعض الملامح النفسية في قصيدة المديح النبوي ويختار التوسل عنواناً له، قول شرف الدين الأنصاري في إحدى مدائحه النبوية، حيث يصوّر حالته النفسية التي وصل إليها، ويطلب من الرسول أن يكون شفيعه، يقول: [الكامل]

أدعوك للجلى وتلك شفاعة لم ترض لي أني أخاف وأنت لي
إن لم يكن عملي زكياً فادع لي قطع الفلذذي بتذلي
أحسن وأجمل بي لعلني أنني في الفعل لم أحسن ولما أجمل
وانظر إليّ بعين عونك نظرة أهدى بها سنن الطريق الأمثل
فلقد ضللت عن الرشاد وإنني بك أستنير وأنت هادي الضلل
وإليك من دون الأنعام توجّهي وعليك ممن بين الكرام معولي
ولقد أتيتك مادحاً لتجيزني في الحشر كاسات الرحيق السلسل⁽²⁾

¹ - فوزي الخطبا ، شعر ابن جبير، 64.
² - شرف الدين الأنصاري ، الديوان ، 563.

فالشاعر يبين مقصده من وراء مديح الرسول، فالنفس قد ضلت، وعمله ما عاد زكياً، لذا أسرع إلى الرسول يطلب إحسانه وإجماله، ويضفي الشاعر نفحة صوفية من خلال تلذذه بالتذلل والانقياد والانصياع لأوامر الرسول أملاً في العفو، فالرسول هادي الضلل، وهو كهف التائبين إلى الله، لهذا خصّ الشاعر الرسول باللجوء دون سواه، ورغبة من الشاعر في أن يشرب كأساً يوم القيامة من يد الرسول لا يظماً بعدها أبداً.

على أن فتیان الشاغوري يلجأ إلى الرسول طالبا العفو والشفاعة كي يكسب من خلالهما نعيم الجنة، وظلها الوارف، وهذا أقصى ما يتمناه الإنسان على ربه يوم القيامة، ونراه عمقا إيمانياً من خلال التركيز على الشهادة التي هي ركن الإسلام الأول، يقول:

[الطويل]

أَوْمَلُّ مَنْ خَيْرَ الْأَنَامِ شَفَاعَةَ بَهَا فِي النَّعِيمِ بِالْجَنَانِ أَخْلَدُ
فَأَنْتَ رَسُولُ اللَّهِ وَهِيَ شَهَادَةٌ أَقْرَبُ بِهَا حَتَّى الْمَعَادِ وَأَشْهَدُ⁽¹⁾

ويقف ابن الجوزي مخاطباً رسول الله ويطلب إليه مدد العون يوم القيامة، فالغفران مقصد الركبان، وقد جاؤوا جميعاً إلى جناب السلطان، عسى أن يدخلوا جنة الرضوان، يقول: [الخفيف]

يَا رَسُولَ اللَّهِ يَا حَبِيبَ اللَّهِ أَنْتَ لِي عَمَلٌ يَوْمَ أَلْقَى اللَّهُ
رَنَا وَالرَّكْبَانَ نَحْوَذَا السُّلْطَانَ نَرْتَجِي الْغَفْرَانَ بِجَاهِ رَسُولِ اللَّهِ⁽²⁾

ويرفض الزمخشري أن يكون مدحه للرسول صلى الله عليه وسلم أملاً في تحقيق مطامع مادية، حتى لو كانت أموال البرامكة كلها ما عدلت شفاعة الرسول، لأن المال هالك مع الدنيا الهالكة، وقد ركز على صفة السخاء التي كان يتميز بها سيدنا محمد، يقول في الكافية: [الطويل]

إِلَيْكَ رَسُولَ اللَّهِ جَهَزْتُ مَدْحِي وَإِنَّكَ أَسْخَى كُلِّ بَاقٍ وَهَالِكِ

¹ - فتیان الشاغوري، الديوان، 109.

² - صلاح الدين الهواري، المولد النبوي الشريف، 92.

ألا إن أدنى رشحة من ندادك لم يقاس إليها بحر جود البرامك
 وإنني لفي أسخى الجوائز طامع فلا تـك في وادي تخيب تاركي
 وجائزتي فاعطـف عليّ شفاعـة تنجني إلى رضوان من يد مالك⁽¹⁾

ويمثل ذلك التوسل ما ساقه عبد المحسن التنوخي، حيث يشيد الشاعر بشمائل
 الرسول التي لا يخيب فيها رجاء من يرتجيه في الشفاعـة، فزيارة الشاعر للقبر كفيـلة بإقـالة
 العثرة، وبمحو الوزر والزلة، يقول: [البسيط]

لعلّ وزري إذا ما زرت قبرك أن يروح وهو بعفو الله مشمول
 عساك تسأل ربّ العرش فيّ فما يخيب من فيه ربّ العرش مسؤول
 فقد تـدنس عرضي بالذنوب عسى أن يغندي وهو بالغفران مغسول⁽²⁾

ومن الشعراء من مدح الرسول توسلاً به لعلّ الله يشفيه من مرض أعياءه، فقد وقف
 الصرصريّ طالبا البرء من عجزه، فقد عرف عنه بأنه كان أعمى، فهو قد ضاق ذرعاً بعماءه،
 ولا يستطيع تحمّل ما يلاقه ليلاً، فنراه يتوجّه إلى النبي لعله يطلب الشفاء له من ربّ
 العالمين، ويرد مثل هذا التوسل عند الشاعر في قصائد كثيرة، خاصّة تلك التي يبدي
 فيها عجزه عن الذهاب مع قوافل الحجّاج، فجسمه في العراق ولكن قلبه معلق بالحجاز
 يقول في رأيته: [مخلص البسيط]

ومـالـه غيركم إذا ما ضاق به الأمر من نصير
 يا حجّة الله في البرايا على مطيـع وذي نفور
 عطفـا على عـاجز ضعيف معالـج نفثة الصّدور
 قد ضـاق ذرعـا بما يلاقي في الليل منـها وفي البكور
 فسـل له رحمة ليشفي من ربّك الواحد الكبير⁽³⁾

¹ - علي عمرو، تحقيق ديوان الزمخشري ودراسة شعره، 21/2.
² - يوسف النبهاني، المجموعة النبهانية في المدائح النبوية، 36/3.
³ - الصرصريّ، الديوان، 210.

وفي موطن آخر يتوسل الشاعر بالرسول ليشكو إليه نوائب الدهر، فضيق الأحوال المعيشية مثل الغلاء، والهجمات المتكررة من قبل الأعداء، والخوف والفرقة، وانتشار الخبث والخيانة كل هذه عوامل دفعت الصرصري إلى التوسل، يقول الشاعر في الصّادية: [الطويل]

أغثني فإني في زمان خطوبه لها بين أحناء الرجال كصيص (1)
 غلاء وخوف واختلاف ومطعم خبيث وقرن خائون شصوص (2)
 وكيف نجا المرء والحال هذه إذا لم يكن منها إليك مغيص (3)

ومن خلال ما سبق تطالعنا توسلات المدائح النبوية في العصرين الزنكي والأيوبي، أن الشعراء قد ضمّنوها لمدائحهم لغايات (هموم فردية، وهموم جماعية) منها ما هو نفسي على نطاق الفرد، حيث يعبر الشاعر عن أوجاع أو عيوب، أو نقص، لهذا يلجأ إلى التوسل، ومنها ما يخدم الجماعة من خلال حمل الشاعر لهموم المسلمين، أو نقدا للمجتمع ينبغي من ورائه إصلاحه، وفيها دعوى مبطنة إلى التزام بالهدي النبوي، كل ذلك ساقه الشعراء في مواقع مختلفة من قصائد المديح النبوي، وجاءت تتراوح بين بيت شعري لتصل إلى سبعة أبيات وقد تزيد.

6. التغني بقبر الرسول صلى الله عليه وسلم، والحنين إليه:

ومن المفردات المهمة التي ظهرت في هذين العصرين في قصيدة المديح النبوي، ظاهرة التغني بذلك القبر الذي يحتل مكانة بارزة، وخصوصية قل نظيرها عند المسلمين عامة، وعند شعراء المديح النبوي على وجه الخصوص، والحقيقة أن الخاصية التي نالها تعود لمن حوى وضمّ، فهو حوى عظيم الأمة، ورجلا قلما جادت به الإنسانية والبشرية، فهو الرسول والقائد، وهو من أرسى دعائم الإسلام، وجاء بدين الله، دين البشرية جمعاء، لذلك هو خير من حضنته غرباء.

¹ الكصيص: الرّعدة. الفيروزآبادي، القاموس المحيط. 854/1. (كصيص)

² - شصوص: لصوص، جدبة. الفيروزآبادي، القاموس المحيط. 844/1. (شصوص)

³ - الصرصري، الديوان، 258. مغيص: محيص. هكذا في الديوان، ووجع في المعدة. الفيروزآبادي، القاموس المحيط، 856/1. (مغص)

وقدوم الشعراء إلى قبر الرسول والوقوف بين يديه، وهو مدفون لهم يأت من فراغ، وإنما أتى امتثالاً للآية القرآنية (ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم جاؤوك فاستغفروا الله واستغفر لهم الرسول لوجدوا الله تواباً رحيماً)⁽¹⁾.

وقد أورد ابن كثير ضمن تفسيره لتلك الآية بيتين من الشعر، يستشفع فيهما أعرابي عندما وقف على قبر الرسول وسلم عليه، فقد جاءه مستغفراً لذنبه، ومستشفعاً به ربه، وقال: [البسيط]

يا خيــــــــــــر من دفنت بالقاع أعظمه فطــــــــــــاب من طيبهنّ القاع والأكم
نفسى الفــــــــــــداء لقبر أنت ساكنه فيه العفــــــــــــاف وفيه الجود والكرم

وأورد ابن كثير على لسان العتبي قال: كنت جالسا عند قبر النبي فجاء الأعرابي فقال السلام عليك يا رسول الله، وقرأ الآية (ولو أنهم إذ ظلموا) وقد جئتك مستغفراً لذنبي مستشفعاً بك إلى ربي، وأنشد البيتين السابقين، ثم انصرف الأعرابي فغلبتني عيني فرأيت النبي في النوم، فقال: " يا عتبي الحق الأعرابي فبشره أن الله قد غفر له " ⁽²⁾.

وتناول شعراء العصرين الزنكي والأيوبي قبر الرسول في مدائحهم النبوية بشيء من الخصوصية، لذا وصفوه بأوضح وأرقى الأوصاف، واستخدموا مترادفات كلمة القبر مثل الضريح، واللحد والجدث.

فقد قام شرف الدين الأنصاري بوصف الرحلة التي قطعت حيث المشقة والعناء في الوصول إلى قبر الرسول أملاً في الصلاة بجواره، وطمعا بنيل شفاعته، وكل ذلك جرى في جوٍّ يملؤه الغبطة والمحبة، وقد استعمل كلمة الضريح يقول في دليته:

[مخلص البسيط]

وكم قطعنا إلى ذراه من مهمه موحش وفد فد⁽³⁾

¹ - سورة النساء، آية 64.

² - ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، 1/519-520.

³ - الفد فد: الفلاة والمكان الصلب الغليظ، والمرتفع، والأرض المستوية. الفيروز آبادي، القاموس المحيط، 1/443. (فأد).

حتى وفدنا إلى ضريح جنابه للوفد مشهد
 لذنا إليه به محبين طورا وتارة ركعنا وسجد
 نأمل فني ظلله إذا ما أبـرق من كادنا وأرعد(1)

وقد أفاض عبد المحسن التنوخي بالحديث عن قبر الرسول، فالمدينة طابت بوجود
 القبر الذي حوى صاحب الفضل، وحوى القبر كذلك نور محمد يخرج منه ليرى من
 مسافة بعيدة فيذهل مما رأى، وحوى القبر صاحب الهداية التي لولاها لضل أغلب
 الناس، وحوى صاحب الشفاعة التي يتمناها المسلم والكافر، فالقبر نال هذا التشريف
 بفضل من استقر به، وكذلك المدينة، يقول: [البسيط]

يا طيب طبت بقبر فيك ساكنه له على كل خلق الله تفضيل
 قبر به النور لا تخبو أشعته رائبي سناه من الأنوار مدهول
 قبر له حل بيتا حل فيه رضا من الإله وتكريم وتبجيل
 فيه النبي الذي لولا نبوته لما اقتفى الرشد قبل اليوم هاويل
 فيه النبي الذي لولا هدايته لما انجلى عن ذوي التضليل تضليل
 فيه النبي الذي لولا شفاعته ما فك من ربة العصيان مغلول(2)

وقد كنت أوردت بعضا من هذه الأبيات في معرض الحديث عن الحقيقة
 المحمدية، التي تجلت بوضوح، وبينما نرى بأن المسك يحسد تراب القبر لشرف ما
 يحوي، فإنك إن أتيت سيقابلك الجود، والكرم، وكل فضل، ومعروف وعزّ وسؤدد، يقول
 فتبان الشاغوري: [الطويل]

وذاك ضريح يحسد المسك ترابه وكل شريف القدر لا شك يحسد
 به حل كل الجود والمجد والندى وفضل ومعروف وعزّ وسؤدد

ويبلغ الغاية في التشوق المتجدد والدائم لذلك القبر، والحجرة البيضاء التي حوت
 الخير الذي يقصده الإنسان في الدارين، يقول من القصيدة نفسها:

1- شرف الدين الأنصاري، الديوان، 150.
 2- يوسف النهاني، المجموعة النبهانية في المدائح النبوية، 36.

وإني لذو شوق إليك مضاعف بواعثه لا تأتلي تتجدد
إلى الحجرة البيضاء والجدث الذي به الخير في الدارين يرجى ويقصد (1)

ويتساءل الصرصري إذا كان بإمكانه زيارة قبر النبي، ورؤية ذلك الضريح بناظره،
هيهات له ذلك فقد كان كفيفا، ولكنه يتمنى على الله ذلك كي يغسل ذنوبه، فطوبى
لمن زار النبي قبل موته، وطوبى لمن زاره أملا في وصول إلى مأربه من خلال نيل
شفاعته، يقول: [الطويل]

فطوبى لعبد زاره قبل موته ونال الذي يرجوه من ذلك القبر
ترى هل أرى ذاك الضريح بناظري وأغسل أوزاري فقد أثقلت ظهري (2)

7. العناية بمظاهر الطبيعة :

لا شك في أن الطبيعة بما حوت من مظاهر تعجز الألسنة عن وصفها، وتقف الأقلام
إجلالا واحتراما لها، نظرا لجماليات الإعجاز الرباني الذي ظهر فيها، ولأن ورودها هنا
في المدائح النبوية لم يأت صدفة؛ وإنما للتدليل على قدرة من أبدعها حيث العبرة
لأولي الأبواب من جهة، وردعا لأولئك المخالفين والطاعنين والساكنين من جهة أخرى.
وبذلك فموضوع الحديث عن مظاهر الطبيعة في الشعر العربي ليس بجديد، وإنما هو
قديم جديد، فقد تحدث الشعراء عن البدر، وشبهوا الرسول به، وصحابته بالنجوم
الطالعات، وكذلك شبهوا الإسلام بالظل الممتد وفي هذا يقول الزمخشري:

وما كان البدر تحتف حوله صحابة صدق كالنجوم الشوابك
إلى أن دجا الإسلام وامتد ظله وعض على إبهامه كل آفك (3)

ويكثر ذكر مظاهر الطبيعة في المدائح النبوية عندما يتغزل الشعراء بالمحبوبة، فالليل
يشبه شعر المحبوبة، وهو من التشبيهات المقلوبة الغريبة، ويتغنى الشعراء بالأشجار، والورد

1 - فتیان الشاغوري، الديوان، 109-110.

2 - الصرصري، الديوان، 197.

3 - علي عمرو، تحقيق ديوان الزمخشري ودراسة شعره، 20/2.

كالأقحوان ، وطير الكرى، والنسيم الذي يحمل الروائح الشذية، يقول عبد المحسن التنوخي: [البسيط]

يا ليل أشبه ليلي في ذوائبها منك اثنتان سواد اللون والطول
 كأنه أقحوان الحزن عاوده في الليل طلّ فأضحى وهو مصقول
 كأنما ربقها غبّ الكرى ضرب لمجتيه بماء السور محلول
 لأركب ظهر العيس يحملها شوق كحاملها بالشوق محمول
 قفرا خلت من دواعي الأنس ليس بها للطلح شرب ولا للطير مأكول (1)

فانظر كيف وظف العسل المستخرج من خلينه، وربطه بريق محبوبته، فسأل كماء الورد، ثم يذهب للعيس التي قطعت القفار وتحملت المشاق وصولاً للرسول، مع العلم بأن القفار خالية من كل أسباب العيش .

وعند وصفه للمسلمين وحديثه عن بطولاتهم وتضحياتهم، فقد وصفهم بالجبال الراسيات، وهم بحر الجود وعطاياهم كثيرة، وهي كالمنزل تنزل على الآخرين، وإذا ما نزلوا إلى ميدان المعركة فهم يكرّون على أعدائهم كالأسود، يقول:

إذا احتبوا فهم الأطواد راسية وإن حبوا فهم الدّماء والنيل (2)
 وهم غيوث لهم أموالهم مطر وهم ليوث لهم سمر القنا غيل (3)

وتشيع أوصاف الطبيعة عند شرف الدين الأنصاري، خاصة عندما يمدح الصحابة رضوان الله عليهم فهو يشخصهم ويرى جمال هديهم، ويشيع الحركة في هذا الوصف، ولهذا التشخيص أمثلة كثيرة عند غيره من شعراء المديح النبوي، يقول: [البسيط]
 نعم الهداة هم في كل مظلمة كأن أوجههم فيهم قناديل
 هيم إلي وردها لا يستفزههم صاف بأبطح أضحى وهو مشمول

1 - يوسف النبهاني، المجموعة النبهانية في المدائح النبوية، 32/3-33.

2 - الدّماء: البحر. الفيروز آبادي، القاموس المحيط، 459/1. (مأد)

3 - يوسف النبهاني، المجموعة النبهانية في المدائح النبوية، 38/3. الغيل: مأوى الأسد. الفيروز آبادي، القاموس المحيط، 1374/2. (غيل)

وكم بدا منهــــــــــــــــم بدر بكلّ وغي كَأَنَّ ضاحيه بالشمس مهلول (1)

وظهرت مظاهر الطبيعة بشكل لافت في مدحة ابن قزل عندما وصف النار الحجازية، فشررها كالبرق، ولها صوت كصوت الرعد عند قصفه، وقد تغير لون الشمس فأصبحت كالليل في سواده، أما القمر فإنه لم يبد كعادته للرائي، وغابت النجوم قبل أوانها، وتساعد الدخان منها، ووصف شدة حرارتها حيث ذبلت الأشجار العالية، ولهولها تزلزلت الأرض، يقول: [الكامل]

لها شرر كالبرق لـــــــــــــــن شهيقها كالرعد عند السامع المتأمل
وأصبح وجه الشمس كالليل كاسفا وبدر الدجى في ظلمة ليس تنجلي
وغابت نجوم الليل قبل غروبها وكدرها دور الدخان المسلسل
وهبت سموم كالحميم فأذبلت من الباسقات الشتم كل مدلل (2)

والصرصري من الشعراء الذين اتصلوا بالطبيعة، وبلغ الاتصال في أغلب مدائحه النبوية، وتظهر الطبيعة عنده في معرض وصف النبي، والحديث عن نبوته، يقول في قصيدته الرائية: [الكامل]

أبقى بسنته طريقا واضحا رحبا سواء ليله ونهاره
يمحو سنا الشمس الكسوف وينقص الـ قمــــــــــــــــر المحاق ويعتليه سراره
وشموس شرعة دينه محروسة من حوادث يمحو الضياء غباره (3)

فسنه واضحة عبّدت الطريق وبها أصبحت واضحة كما الليل والنهار، وهذا يدل على مدى تأثر المسلمين بهدي الرسول، وسيرهم على الطريق الذي اختطه ورسمه لهم، والرسول بنوره المشع غطى على الشمس والقمر، وغلب عتمة الليل، وهذه الشموس المتناثرة محروسة من حوادث الأيام.

¹ - شرف الدين الأنصاري ، الديوان ، 394 .

² - ابن قزل ، الديوان ، 337 .

³ - الصرصري ، الديوان ، 140 .

ومن الشعراء الذين مالوا إلى وصف الطبيعة ابن الساعاتي، ولا ريب في ذلك نظراً لأنّ الشاعر قد تعلق بدمشق، فقد وصف الرّياض وما فيها من أشجار وزهور وظلال ونسائم، وكذلك وصف المظاهر الجويّة من برق وسحاب وشمس ونجم، فهو شاعر دمشقي وخمائلها وبلابلها وكلّ جزء من أجزائها، وهو صورتها الواضحة ومرآتها الصّافية، ولسانها البليغ ولحنها العذب (1).

ومن الطبيعي أن يتطرّق ابن الساعاتي إلى الطبيعة في مدحته النبويّة، فقد ذكر المظاهر الجويّة من شمس وقمر، وكذلك المظاهر الطبيعيّة من أنهار وجنان، يقول:

لولا له لم تـــــــك شمس لا ولا قمر ولا الفرات وجـــــــاراها ولا النيل
له تزخرف أفنـــــــاء الجنان وعن رضوانه حلّ منها العرض والطول (2)

وتبقى الطبيعة من السمات التي وسمت بها المدائح النبوية في العصرين الزنكي والأيوبي، إذ أنّ أغلب الشعراء تحدّثوا عن مظاهرها بشقيها، الطبيعة الحيّة، في معرض حديثهم عن الحيوان، والطيور، والنبات، وفي تلك المظاهر الأخرى من وصف للشمس والقمر والنجوم وليل ونهار، كما يظهر الشعراء متعة عند حديثهم عن الطبيعة التي أبدعها الخالق، وشاهدها الرسول، ونظر إليها بعينيه، ودعا البشرية إلى التفكير بها، وبعظمتها لتقود الناس إلى التفكير بمن أبدعها.

8. التحذير من العدوان :

لقد كانت المدائح النبويّة عبارة عن منابر يتخذها الشعراء للتعبير عن عمّا يجول بخاطرهم، فتجد منهم من يبتّ شكواه من ألم ألمّ به، ومنهم من يطلب العفو لذنب اقترفه، أو يستشفح لمصيبة حلت، طبيعيّة كانت أو من صنع الإنسان، وعندما بدأ أعداء الإنسانيّة من أبناء الصّليب أو التتر يتحسّنون الفرصة تلو الأخرى للانقضاض على

1 - شفيق جبري، شعر ابن الساعاتي، مجلة المجمع العلمي العربي، دمشق، جزء 11-12. 1943.
2 - ابن الساعاتي، الديوان، 48.

المسلمين، والنيل منهم ومن دولتهم، فإننا نجد أمام ذلك الوضع الرهيب من ينصب نفسه للدفاع باللسان عن الحمى، أو يحرض المسلمين على الوقوف في وجه تلك الاعتداءات أو التحركات، وبذلك ضمن الشعراء مدائحهم النبوية التنبهات من الأخطار، وفيها دعوة صريحة للجهاد، والقتال من أجل درء أخطار الصليب والتتار، ومن الشعراء الذين استنجدوا بالرسول الصرصري، يقول: [الخفيف]

ويريد الكفار محو سناه	دون ما حـاولوه ضرب الحسام
فأعنا عليهم وأغنا	غوث نصـر على الطغاة اللئام
سل لنا الله ذا المعارج نصرا	دائـرا فيهم بكاس الحمام
وثباتا كيوم بدر لأقدام	جنود لنا ذوي إقدام
قل إلهي ثبت قلوب رجال	عن حريم الإسلام أضحت تحامي
واقذف الرعب في قلوب عداهم	وارمهم بالشئات بعد التمام
فلقد أربعوا قلوب البرايا	فتجافى الجفون طيب المنام (1)

فالشاعر يحذر المسلمين من خطر قادم، يريد اجتثاث الحق، ومحو دولة الإسلام، فيدعو الله ويتوجه إليه كي يخلص المسلمين من ذلك الخطر الداهم، ويمني نفسه بأن تكون الدائرة على المعتدين، ليصيبهم ما أصاب الكفار ببدر، ولتكون الغلبة عندها لأمة الإسلام، ويحقيق الخذلان بالكفر والأعوان.

والقصائد التي يستشرف فيها الصرصري ذلك الخطر الداهم كثيرة ومتعددة، يحاول فيها أن يبث العزيمة في نفوس المسلمين، ويستذكر بطولاتهم في شتى الميادين، يقول في قصيدة أخرى: [الكامل]

جاءت بعصبتـها الطغاة تروم من	دار الخـالفة خطة تستشنع
فدنوا فصفوا شر جيش ضلالة	بـإزاء جيش بالهدى يتدرع
وعووا عواء الكلب فوق سروجهم	وهـم أحق بوصفه ليروعوا
سل جبر أمتك الكسيرة إنه	لـم يبق قوس التجلد منزع (2)

1 - الصرصري، الديوان، 506-507.

2 - نفسه، 278-279.

بمثل تلك العبارات التحريضية نهج الصرصري، وبمثل ذلك القلب الذي يتفطر وجعا، خطّ طريقا للتوسل والشفاعة من الله أولا ومن الرّسول ثانيا، ولا ينفكّ عن ذلك في قصائد كثيرة، حملت عواطف متوهّجة ومتأجّجة حبا للمسلمين، وحقدا على الكافرين، وأملا بالنصر من ربّ العالمين .

ثالثا: الخاتمة:

مثلما أولى النقاد مطالع القصائد اهتماما بالغا، كذلك فعلوا مع خواتيم القصائد، فقد دعوا إلى الاعتناء بها؛ لأنها آخر ما يبقى منها في السّمع، فإن حسنت الخاتمة حسن الحكم على القصيدة، وإن قبحت قبحت القصيدة، وهي القفلة مثلما أوّل الشعر مفتاحه⁽¹⁾.

ومن النقاد من دعا إلى الاحتراز في الخاتمة، فقد وضعوا شروطا خاصّة، إذ يجب أن تتضمن حكمة بالغة، أو مثلا سائرا، أو تشبيها مليحا⁽²⁾، ومنهم من أوجب الاحتراز من وقوع الألفاظ الكريهة، أو تلك المعاني المنفرة، لأنّ ذلك يؤثر سلبا على إحسان القصيدة المتقدّم⁽³⁾.

إضافة إلى ما سبق من صفات الخاتمة، فقد أورد يوسف حسين بكار صفة مهمّة وهي أن تحتوي أجمل بيت في القصيدة، واستشهد بيت ابن الزبيري عندما وقف معتذرا بين يدي الرسول، حيث يقول: [الكامل]
فخذ الفضيلة عن ذنوب قد خلت واقبل تضرع مستضيف تائب

ومن تلك الصفات الخواتم الحسنة الأخرى التي أوردتها وأوردتها القدماء، وطلبوا إلى الشعراء بضرورة الالتزام بها، أن يكون تشبيها حسنا.⁽⁴⁾

1 - ينظر ابن رشيق القيرواني، العمدة في محاسن الشعر وأدابه ونقده، 210/1.

2 - ينظر أبو هلال العسكري، الصناعتين، 502.

3 - حازم القرطاجني، منهاج البلغاء، 285.

4 - ينظر بناء القصيدة في النقد العربي القديم (في ضوء النقد الحديث)، 229-230.

وإذا كانت جلّ القصائد التي تناولها في العصرين الزنكي والأيوبي موجهة إلى شخص النبي محمد صلى الله عليه وسلم ومدحه، فإننا نشاهد أنّ الشعراء أظهرُوا حرصهم على تحسين خواتم مدائحهم النبوية، فأغلب قصائد المديح النبوي في العصرين ركزت على خاتمة تكاد تكون هي السمة الغالبة للقصائد حتى غدت نهجا يتبع، وهي الصلاة والسلام على النبي المختار، فأغلب الشعراء أوردوها ضمن قصائدهم.

ومن الشعراء الذين ختموا مدائحهم بالصلاة على النبي المختار ابن الجوزي، وجاءت دعوة صريحة من الشاعر إلى دوام الصلاة على النبي، فالله يصلي عليه من فوق سبع سماوات، وعلى البشر أن يفعلوا ذلك صباحا ومساء، وجاء ذلك في بيت واحد يقول: [الكامل]

صلى عليه الله في السَّبعِ العُلا أبدأ وَمَا عَقَبَ الصَّبَّاحُ مَسَاءً⁽¹⁾

ويبدي الصرصري في أغلب خواتم قصائده النبوية تذلا وتضرعا للرسول صلى الله عليه وسلم، طالبا منه الشفاعة والعتو، ويطلب كذلك إلى الرسول أن يسأل له الخلاص في الآخرة، فالرسول صلى الله عليه وسلم خير مبعوث، وخير ناصح، يقول: [البيسط]

محمد خير مبعوثٍ بمرحمةٍ وجاهُهُ الغمُرُ للراجين مبدولُ
فاشفع لي الآن في إطلاقِ نفسي من وثاقها فقرينُ النَّفْسِ مَكْبُولُ
وفي المعادِ فسل حسنِ الخلاصِ لها إذ كـلَّ عبدٌ بما يعنيه مشغولُ
عليك أركى صلاة الله باقيةً بقاء دارِ إليها أنتَ منقولُ⁽²⁾

وفي مواضع أخرى نجد الصرصري يعكف على ختم قصائده بالتغني بالأماكن الحجازية، حيث يدعو لها بالسقاء من ربّ السماء، ويظهر قدرا كبيرا من تعلقه بها، ويدعو الله أن يرعها، يقول في ميميته: [الوافر]

فهل بالقباب قباب سلح طراز الملك واسطه النظام
رياض الأُنسِ مجتمعِ الأمانى مقيمٌ من عكوفٍ أو لمام

¹ - صلاح الدين الهوارى، المولد النبوي الشريف، 98.
² - الصرصري، الديوان، 401-402.

فَعَذِبَ شَرَابَهُمَا يَرُوِي غَلِيْلِي وَبَرْدَ ظَلَالِهَا يَشْفِي سَقَامِي
تَمَازِجَ حَبْهَاتِهَا بَدْمِي وَلَحْمِي وَمَخْيِي ثَمَّ خَيْمٍ فِي عِظَامِي
رَعَاهَا اللهُ ثُمَّ سَقَى رِبَاهَا غَمَائِمَ بِالرَّضَى فِيهَا هَوَامِي (1)

ويختتم ابن قزل (علي بن المشد) مدحته بالتغني بمدينة طيبة، حيث يتضوع المسك منها، ويعبق شذاها جنوبا وشمالا، كل ذلك جاء لفضيلة عظيمة، وفي تذكرها تذكر للحبيب محمد، فقد سكنها ودفن بها، وهو مأمول، وهو نعم المؤئل، فعليه الصلاة والسلام، يقول: [الطويل]

فِي رَاحِلَاتِهَا عَن طَيْبَةٍ إِنَّ طَيْبَةَ هِيَ الْغَايَةَ الْقُصْوَى لِكُلِّ مُؤَمَّلٍ
قَفَا نَبِكَ ذِكْرَاهَا فَإِنَّ الَّذِي بِهَا أَجَلٌ حَيْبٌ وَهِيَ أَشْرَفُ مَنْزِلٍ
دَخَلْتَ إِلَيْهَا مُحْرَمًا وَمَلْبِيًا وَأَضْرَبْتَ عَن سَقَطِ الدَّخُولِ فُحُومِلٍ
مَوَاقِفَ أُمَّا تَرْبَهُمَا فَهِيَ عَنبَرٌ وَأُمَّا كَلَاهَا فَهُوَ نَبْتُ الْقَرْنَفْلِ
يَضُوعُ شَذَاهَا ثُمَّ يَعْقِبُ نَشْرَهَا لَمَّا نَسَجْتَهَا مِّنْ جَنُوبٍ وَشَمَالٍ
فِي خَيْرِ مَبْعُوثٍ وَأَكْرَمِ شَافِعٍ وَأَنْجَحَ مَأْمُولٍ وَأَفْضَلَ مُؤَمَّلٍ
عَلَيْكَ سَلَامُ اللهِ بَعْدَ صَلَاتِهِ كَمَا شَفَعَ الْمَسْكَ الْفَتِيْقَ بِمَنْدَلٍ (2)

ويختار الزمخشري مدح الفئة المؤمنة التي ناصرته الرسول خاتمة لمدحته، ويهاجم فيها الفرق الضالة الزائلة، ويعقد موازنة بين الفئتين الموحدة المتمسكة بالتقوى والأخرى العاصية، يقول: [الطويل]

مُوحَّدُونَ إِلَهًا أَنْتَ صَفْوَتُهُ مَصْدُوقٌ فَلَا غَالَتَهُمُ غَوْلُ
إِنَّ زَالَ عَن رَمِي أَعْرَاضِ الْهَدَى فَرَقَ تَلَهُوا وَمُضَلَّلَةٌ قَالَتْ لَهُمْ زَوْلُوا
فَقُوسَ قَوْمِي بِالرَّضَى مَوْتَرَةٌ وَسَهْمَهُمْ بِاتِّبَاعِ الْحَقِّ مَنْصُولٌ (3)

1 - المصدر السابق، 502.

2 - ابن قزل، الديوان، 338.

3 - علي عمرو، تحقيق ديوان الزمخشري ودراسة لشعره، 266/2.

ومن الشعراء الذين درجوا على ختم مدائحهم النبوية بذكر أسمائهم السخاوي
والصّصريّ وابن الجوزي، فهذا السخاوي يتوجّه إلى الرسول في معرض طلب الشفاعة
لنفسه وللسامعين، وللمنشد، يقول: [الكامل]

يا ذا الجلال ارحم بحقّ المصطفى الـ عبد الفقيه المستجير المحرماً
وامنن عليه بتوبة تمحو بها مـا كان منه وما جناه وقدماً
واغفر لمنشدها عليّ ذنبه واغفر لمنشدها علي وارحماً
فبمدح أحمد يرجوان شفاعته ذا منشدا فرحاً وذاك منظماً
واغفر لمستمتع دعاء لهما فما أجدي دعاء المسلمين وأكرماً (1)

ويطلب فتیان الشاغوري من زوار قبر الرسول أن يبلغوه سلامه، فالشاعر صبّ فيه
لوعة واشتياق إلى من ضمّ القبر، فالنار متأججة في صدره، ولن يبرد إلا إذا تمكن من
زيارته وطلب شفاعته ليرد الحوض بصحبة الرسول، يقول: [الطويل]

ألا أيّهـ الزوّار بالله بلغوا سلامي إليه وارفقوا وتأيدوا
وقولوا له فتیان يشكو صباة إليك ووجدا حرّه ليس يبرد
يرجّـي غدا تبريد غلته إذا شغفت له في الحشر والحوض مورد (2)

ويعرب ابن الأخوة عن تقصيره في ثنائه على الرسول، فالثناء قاصر ولا يرقى إلى
مستوى الرسول، يقول بعد الصلاة عليه :

صلى عليه الله ما هبّت صبا أو جـنّ ليل أو بدا وضح الضحى
هذا ثنائي وهو دون محله من ذا ينال بكفه بدر الدجى (3)

1 - ابن الشعار الموصلي، قلاند الجمان في فراند شعراء هذا الزمان، 26/5.

2 - فتیان الشاغوري، الديوان، 110.

3 - ناظم رشيد، المدائح النبوية في أدب القرنين السادس والسابع للهجرة، 101.

ويقف ملك النحاة عاجزا أمام حضرة الرسول، فثناؤه المرسل إلى الرسول لا يعتريه الكذب والزيف والانتحال، يقول في ختام مدحته: [البسيط]

أَتَتِكَ غَرِّ قَوَافِي الْمَدْحِ خَاضِعَةً لَدَيْكَ فَاقْبَلْ ثَنَاءَ غَيْرِ مُنْتَحِلٍ
ثَنَاءَ مَنْ لَمْ يَجِدْ وَجَنَاءَ تَحْمِلُهُ إِلَيْكَ أَوْ صَدَّ بِالِاقْتَارِ عَنِ جَمَلٍ
صَلَّى عَلَيْكَ إِلَهَ الْعَرْشِ مُشْتَمِلًا عَلَيْكَ يَا خَيْرَ حَافٍ وَمُنْتَعِلٍ (1)

وبذلك نلاحظ أن أغلب خواتم قصائد المديح النبوي قد سارت على مبدأ واحد، لم يحد عنه أغلب شعراء الزنكيين والأيوبيين، حيث قام أصحابها فيها بالتوجه بالدعاء، وطلب الشفاعة، وطلب التوبة من الرسول، كي يكونوا رفقاء له يوم القيامة، ويحظوا بالقبول من رب العالمين.

¹ - كمال الدين بن العديم، بغية الطلب في تاريخ حلب، 5/ 2393.

الفصل الثالث:

أثر قصائد المديح النبوي في العصرين الزنكي والأيوبي
في العصور اللاحقة

لا شكّ في أنّ الشعر العربيّ متجدّد في أطواره، لذا لا ينفصم في عراه، وشعر المدائح النبويّة جزء لا يتجزأ من الشعر العربيّ، فقد تأثر الشعراء عبر العصور بامرئ القيس مثلاً، ونلاحظ ذلك التّأثر بتضمين أشطر شعريّة مثلما صنع ابن قزل في مدحته النبويّة، وكذا الشّأن عند بقيّة شعراء المديح النبوي، فإننا نجد أنّ شعراء العصرين الزنكي والأيوبي قد تركوا بصماتهم على فنّ المديح النبوي، وكان هذا بمثابة الدافع للشعراء الذين ورثوا فنههم إلى التّأثر بهم ومجاراتهم، وتضمين أشطارهم وأبياتهم، خاصّة أننا عرفنا أنّ تينك العصرين شهدا تكامل عناصر المدحة النبويّة .

إذا ليس من الغريب أن نرى تآجج المعارضات، والتشطيرات، والتخميسات، والبديعيات، وما إلى ذلك من فنون ظهرت وتألّق فيها أصحابها، فقد برز البوصيري في الحقبة التي تلت العصرين، وظهر شعراء آخرون لا يقلون في مدائحهم النبويّة عن تلك الدرجة التي وصل إليها الزمخشريّ، والسخاوي، والصّرصريّ وغيرهم ممن سبق وأبدع، وظلّ امتداد التّأثر حتى وصل إلى العصر الحديث، ليطالعنا البارودي، وشوقي، والبردوني، ومحمد التهامي، بتلك القصائد التي حملت في طياتها ما يحمل الإبداع والسير على نهج السلف من الشعراء الذين جادت قرائحهم بمدائح ظلت وستبقى أبد الدهر عنواناً للمدائح النبويّة.

وعندما نستعرض المدائح النبوية التي برزت وبدت متأثرة بما نظم في العصرين الزنكي والأيوبي، فإننا نجد أنّ العوامل التي ساهمت في كثرة المدائح النبوية في العصور اللاحقة تكاد لا تختلف كثيراً عن تلك العوامل التي دفعت شعراء الزنكيين والأيوبيين لنظم المدائح النبوية، حتى ليصل الأمر إلى أن تكون هي الأسباب نفسها، فكان التوسل بالرسول المخلص والشفيع يوم القيامة.

لذا سنقوم باستعراض تلك التّأثيرات من النواحي المختلفة، سواء كانت من حيث المضمون، أو من ناحية الخصائص الفنيّة، ومدى تأثر اللاحقين من شعراء المدائح النبويّة بمن سبقهم خاصّة شعراء العصرين الزنكي والأيوبيّ، وعليه سنحاول تسليط الضوء على مشاهير شعراء المديح النبويّ في العصر الملوكي وصولاً إلى العصر الحديث.

البوصيري (1):

فعلى صعيد المقدمات التي يفخر بها الشاعر ممجدا الذات الإلهية، ويعتذر إلى الرسول عن النار التي ظهرت في أرض الحجاز، ويثني على الله بالحمد العظيم، فالله نعم المانح، له الأمر من قبل ومن بعد، وحكمه ماض إلى يوم القيامة، أما الإنسان فلا حول له ولا قوة أمام تلك القدرة والعظمة، ويتصدى الشاعر فيها بالرد على النصارى واليهود، وينبri فيها لمدح الرسول، يقول في داليتيه: [الطويل]

إلهي على كلّ الأمور لك الحمد فليس لما أوتيت من نعم حدّ
لك الأمر من قبل الزمان وبعده ومالك قبل كالزمان ولا بعد
وحكمك ماض في الخلائق نافذ إذا شئت أمرا ليس من كونه بد
تضل وتهدي من تشاء من الورى وما بيد الإنسان غي ولا رشد(2)

ويظهر مما سبق أنّ الشاعر قد عايش ظهور نار الحجاز، وتكاد تكون المعاني المستخدمة هي تلك التي استخدمها ابن قزل عندما وقف معظما الذات الإلهية، ومادحا الرسول، ولكن الاختلاف يظهر عند ردّ البوصيري على النصارى واليهود، حيث فند مزاعمهم.

ويبدو تأثر البوصيري بشعراء الزنكيين والأيوبيين كبيرا، فهو في برده التي نظمها عندما أصابه الفالج، ويستشفع فيها بالرسول محمد، عله يبرأ من سقامه، وينال رضاه، ويستدرّ عطفه وصولا إلى البغية، فقد ابتدأها بالنسيب، ثمّ يذهب إلى التحذير من هوى النفس البشرية، ليصل إلى مدح النبيّ المختار والحديث عن مولده ومعجزاته وجهاده، ليختمها بالتوسل والمناجاة، وعندما ندقّ النظر في تلك القصيدة نجد أنّ صاحبها قد صنعها على غرار قصيدة ابن الفارض الميمية، ويظهر التشابه في المطلعين، يفتح ابن الفارض قصيدته بقوله: [البيط]

هل نار ليلى بدت ليلا بذى سلم أم بارق لآح في الزوراء فالعلم

¹ - هو شرف الدين أبو عبد الله محمد بن سعيد البوصيري، نسبته إلى بوصير من أعمال بني سويف بمصر، تنقف بثقافة عصره، فدرس القرآن، ودرس علوم العربية، اطلع على أسرار الصوفية، مدح الرسول بقصائد كثيرة، توفي سنة ستمائة وست وتسعين هجرية. ينظر ابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، 432/5.

² - البوصيري، الديوان، 61.

أرواح نعمــــــــــــــــان هلا نسمة سحرا ــــــــــــــــومــــــــــــــــاء وــــــــــــــــجــــــــــــــــرة هلا نهلة بغم(1)

بينما يقف البوصيري في بردته - وهي من الوزن نفسه، ويبدو التأثر واضحاً في المطلع، حيث يتغنى الشاعر بأسماء البقاع - ليقول:

أمــــــــــــــــن تــــــــــــــــذكر جيران بذي سلم ــــــــــــــــمزجت دمــــــــــــــــعا جرى من مقلة بدم
أم هبــــــــــــــــت الريح من تلقاء كاظمة ــــــــــــــــوأومض البرق في الظلماء من إضم(2)

ويتابع البوصيري تأثره بابن الفارض، وابن الفارض يلوم من يلومه في حبه، وأن من يجرب الحب لا يعرف اللوم والعتب، يقول:

يا لائــــــــــــــــمــــــــــــــــا لائمني في حبهــــــــــــــــم سفها ــــــــــــــــكف المــــــــــــــــلام فلو أحــــــــــــــــببت لم تلم

ويتابع البوصيري ابن الفارض ويجعل من اللوم قدراً، فإذا أصابك الشوق فلن توجه اللوم أو العذل لأحد، والسبب واضح ويسير فأنت ممن وقع فيه، يقول:

يا لائــــــــــــــــمــــــــــــــــي في الهوى العذري معذرة ــــــــــــــــمنــــــــــــــــي إليــــــــــــــــك ولو أنصفت لم تلم

ويبدو أن البوصيري كان متأثراً بالصوفيّة حتى النخاع، يظهر ذلك من خلال ظهور النفحات الصوفيّة، ففي مدحته النبويّة يتوجه إلى الرسول متوسلاً، ومن جهة أخرى يدل على قدر من التأثر بكبار الصوفيين من أمثال ابن الفارض، مما دعاه إلى النظم على غرار شعره عن طريق إيراد معانيه في شعره.

وقصيدته الميمية لاقت من الشهرة، والذيع، والسيرورة بين الناس، ما لم تلاقه أي قصيدة أخرى نظمت في هذا المضمار، وهي أصبحت وحياً للشعراء الذين نظموا في هذا الباب، أضف إلى ذلك عناية الشراح، والمخمسين، والمسبّعين، والمعارضين، وما هذا إلا دليل على قدرة الشاعر على النظم، واختيار المفردات، لذلك عني بها الناس، ولو أخذنا بعين الاعتبار مدى تسابق الناس على حفظها، فكان كل من أصيب بعلّة لجأ

¹ - حسن البوريني وعبد الغني النابلسي، شرح ديوان ابن الفارض ، 2/49-50.
² - البوصيري ، الديوان ، 165-173.

إليها مردداً عله يفوز بالصحة والعافية، وقد وضّح زكي مبارك أثرها في اللغة العربيّة، وعدّد أهمّ من شرحها وخمّسها وبيّن أهميتها.(1)

ومن جميل حديثه عن النبيّ وصحبه، حيث وصفه بأنه سيّد الكونين، ومن تمسك بحبله فلن يخيب أمله وظنه، وهو من ترجى شفاعته، فقد فاق النبيين مكانة، يقول:

محمد سيّد الكونين والثقلين من والفريقيين من عرب ومن عجم
 نبينا الأمر الناهي فلا أحد أبرّ في قـول لا منه ولا نعم
 هو الحبيب الذي ترجى شفاعته لكلّ هول من الأهوال مقتحم
 دعا إلى الله فالمستمسكون به مستمسكون بحبل غير منفصم
 فاق النبيين في خلق وفي خلق ولم يدانوه في علم ولا كرم
 وكلهم من رسول الله ملتمس عرفنا من البحر أو رشنا من الدّيم (2)

ومن جماليّات القصيدة ورود التشبيهات، فقد حذّر الشاعر من هوى النفس، خاصّة تلك الأمارة بالسوء، إذ لا يجوز أن تترك النفس لهواها، وإنما يجب أن تكون تحت قياد صاحبها فكلّ نفس بما كسبت رهينة، يقول:

والنفس كالطفل إن تهمله شبّ على حبّ الرضاع وإن تطفمه ينظم (3)

وحوث القصيدة على عبارات حكميّة، ضربت فيها الأمثال، وأصبحت جارية على ألسن الناس، نظراً لسهولة تداولها، ولما تحمل في مضامينها من إيجاز، يقول:

كـم حسنت لذّة للمرء قاتلة من حيث لم يدر أنّ السّم في الدّسم
 واخش الدّسائس من جوع ومن شع فربّ مخمصة شرّ من التخم (4)

ومهما يكن من أمر فإنّ برودة البوصيري جاءت موافقة لروح العصر الذي وجدت فيه، فهي لا تخلو من التكلف ومن طغيان المحسّنات البديعيّة، ولكن يسجّل للبوصيري فيها

1 - ينظر المدائح النبويّة في الأدب العربي، 142-150.

2 - البوصيري، الديوان، 167.

3 - نفسه، 166.

4 - نفسه، 166.

أنه كان صادق التعبير، أضف إلى ذلك أن المحسنات والزخارف اللفظية كانت مقبولة، ولم يمجها الذوق، وليس أدل على ذلك من شيوخها واهتمام الأدباء والعلماء بها، عربا كانوا أو غير عرب.

ويظهر تأثر البوصيري بمن سبقه من الشعراء، خاصة الصرصري، الذي قضى أغلب حياته زمن الأيوبيين، فالصرصري ابتداء معارضته لقصيدة كعب بن زهير قائلا: [البسيط]
إلى متى أنسا مشغوف ومشغول وكلم لقلبي تسويف وتسويل⁽¹⁾

وعندما وقف البوصيري معارضا كعبا، وقصيدته تلك أطلق عليها ذكر المعاد في معارضة بانة سعاد، وقد نظمها بعد أن جاوز الأربعين من عمره، حيث تأثر في مطلع قصيدته بمطلع قصيدة الصرصري، وتأثر كذلك بالمعاني التي أوردها الصرصري، ولكنه وجه الخطاب بلومه للإنسان، حيث يدعو إلى ترك الملذات، والابتعاد عن الشهوات، وفيها دعوة صريحة إلى الزهد، بينما لا نرى الأمر نفسه في اللوم عند الصرصري الذي وجه لومه لنفسه أولا لأنها أولى باللوم من غيرها، يقول البوصيري: (البسيط)
إلى متى أنست بالملذات مشغول وأنت عمن كل ما قدمت مسؤول
في كل يوم ترجي أن تتوب غدا وعقد عزمك بالتسويف محلول⁽²⁾

وجعل عمر موسى باشا من هذا المطلع حوارا ذاتيا، أي جرد الشاعر من نفسه شخصا يخاطبه⁽³⁾، ولكننا نرى أن الشاعر قد سار على نمط الصرصري، ولكنه حوّر المعنى، واستخدم التجريد.

وعندما وصف الصرصري القرآن الذي أنزل على محمد، فهو معجزته الكبرى، وعلى الإنسان أن يرتله ترتيلا، يقول:
هـذا الذي رتب القرآن مدحته فراقنا منه ترتيب وترتيل⁽⁴⁾

1 - المصدر السابق، 394.

2 - نفسه، 151.

3 - تاريخ الأدب العربي، العصر المملوكي، 187.

4 - الصرصري، الديوان، 395.

أخذ البوصيري هذا المعنى ووسعه، وأضاف إليه، فكلّ من يسمعه يهدى به يرشد، يقول:

يهدى إلى كــــلّ رشـد حين يبعثه إلى المسامع تــــرتيب وترتيل⁽¹⁾

وعندما نعقد موازنة بين الصرصريّ والبوصيري نجد توافقا بين الاثنين، فترتيب القصائد النبويّة إلى حدّ ما واحد عند الاثنين، هذا ما دعا مخيمر صالح إلى القول: "يمكن القول باطمئنان، إنّ قصيدة المديح النبوي عبر تاريخها الطويل لم تنضج أو تكتمل مثلما نضجت واكتملت عند الصرصريّ والبوصيري، فلقد استوعبت مدائحهما جميع عناصر قصيدة المديح أتمّ استيعاب، واستوفتها أدقّ استيفاء، واكتملت التقاليد الفنيّة ووضحت أيّما وضوح" ⁽²⁾

ومن خلال قصيدة ذخر المعاد نجد أنّ البوصيري قد وقف منصّبا نفسه ليكون خير مدافع عن العقيدة الإسلاميّة الغراء ضدّ هجمات الأعداء، ومحاولة تعرضهم لها، والمساس بها، ولا غرابة في ذلك، فالشاعر صوفيّ بالدرجة الأولى، وطبيعة الزمن الذي عاشه ووجد فيه الشاعر قد حفل بهجمات متكرّرة يوجّه فيها اليهود والنصارى سهامهم للأمة الإسلاميّة، وذلك من خلال سلسلة الطعونات للدين الحنيف، لذا انبرى الشاعر منافحا، بل محرّضا المسلمين على الوقوف صفا واحدا في وجه تلك المحاولات.

ويجدر بنا في هذا المقام أن نعرّج على همزيّة البوصيري لما لها من أهميّة في هذا المجال، ولعلها تكون رتبة رفيعة يستحقها منشؤها، وهي تدلّ على قدرة فنيّة بارعة، قلما تجد لها نظيرا، نظرا لطولها في بابها، إذ يبلغ طولها أربعمائة وسبعة وخمسون بيتا، يقول الشاعر في مطلعها: [الخفيف]

كيف تــــرقى رقيّــــك الأنبياء يا سماء مــــا طاولتها سماء
لم يســــاووك في علاك وقد حا ل سنــــا منك دونهم وسناء
إنما مثلــــوا صفاتك لنا س سنــــا مثل النجوم الماء

¹ - المصدر السابق ، 153.

² - المدائح النبويّة بين الصرصريّ والبوصيري ، 211.

أنت مصباح كل فضل فما تصدق إلا عمن ضوءك الأضواء⁽¹⁾

والشاعر ينهج نهج الصرصري في ترتيبها، فهو يبدأ بتعظيم النبي، ويتحدث عن نسبه وحسبه، وولادته، ثم يذكر معجزاته، ويتحدث عن المصاعب التي لقيها النبي في سبيل إرساء دعائم الإسلام، وتوطيد أركانه، ويهاجم النصارى واليهود لعلهم يتعظون، ويعير اليهود لقتلهم الأنبياء، وينتقل للحديث عن رحلته مع الركب، وصولاً إلى الرسول، ويتغنى بصحابة النبي وآل بيته، ويختتم بالتوسل والرجاء أملاً في العفو.

وفي معرض هجومه على اليهود، يبين بعضاً من صفاتهم، فهم من زاغ عن الحق، وكفر ببعثة النبي، وكذلك عبدوا العجل واستبدلوا الشر بالخير، هذا فضلاً عن خبثهم، وخديعتهم، يقول:

لا تكذب إن اليهود وقد زاغوا عمن الحق معشر لؤماء
 جحدوا المصطفى وآمن بالطاغوت قوم هم عندهم شرفاء
 قتلوا الأنبياء واتخذوا العجول إلا إنهم هم السفهاء
 وسفيه من ساءه المن والسلوى وأرضاه الفوم والقثاء
 ملئت بالخبث منهم بطون فهي نار طبباقها الأمعاء
 لو أريدوا في حال سبت بخير كان سبتا لدهم الأربعاء⁽²⁾

ومن خلال الأبيات التي هاجم فيها الشاعر اليهود، يعدد الشاعر ما عرف به اليهود من صفات قبيحة تدل على خبثهم وتعاليمهم عن البشر، واستفاد الشاعر في ذلك من القرآن الكريم الذي هو أول من تصدى لذكر خصالهم، وأبان ما حملة اليهود من خبث وحقد للمسلمين من جهة، ولعقيدتهم الغراء من جهة أخرى.

وتحاشياً للتطويل، قصرنا التمثيل والاستشهاد على مفردة واحدة من مفردات المدائح النبوية، وهي محاجة اليهود والنصارى والرد عليهم، ولكنني أحببت إيراد ما قاله

¹ - البوصيري، الديوان، 37-9.

² - نفسه، 22.

ياسين الأيوبي بشأن هذه القصيدة، "إنها عالم من المعاني والمناقب وأحداث التاريخ الإسلامي الأول، والعبر والأوصاف والأدعية والتمجيدات التي أسبغتها رسالة محمد صلى الله عليه وسلم وشخصيته ومواطنه، على الشاعر فجعلته يغرق في بحر شمائله وآياته ويسكب ذلك شعرا رائقا دافقا لا تشوبه شائبة" (1).

ابن دقيق العيد(2):

نظم الشاعر مجموعة من القصائد يمدح فيها الرسول صلى الله عليه وسلم، إذ جعل من مدح الرسول غاية سلكها لتحقيق أمنيته التي لطالما حلم بها، وهي دخول الجنة فهي غاية ما يتمنى المسلم، ويقف الشاعر ليرسل مع الفتية أجمل التحية، إلى سيد البرية، من قلب اعترته الحسرة، وعين لا تفارقها الدمعة، يقول في التخميس: (الطويل)

ذروا في السرى نحو الجناب الممئع لذيد الكرى واجفوا له كل مضجع
واهذوا إذا جئتم إلى خير مربع تحية مضى هائم القلب موجه
سريع إلى داعي الصبابة طيع
يقوم بأحكام الهوى وقيمها فكم ليلة قد نازلته همومها
فسامرها حتى تولت نجومها له فكرة فيمن يحب يديها
وطرف إلى اللقيا كثير التطلع (3)

فالشاعر عاشق و عليل وحبيبه وطيبه الرسول، ولا ينفك الشاعر يمدح الرسول، ويبين ما لحقه من أذى، ولكنه ناضل وتحمل، وكان مأوى لكل من أمل، أشاد للعز والفخار مجدا لم يتحول، ومدحته هذه قريبة إلى النفس، سهلة في مبناها ومعناها، ابتعد صاحبها عن الغموض والتعقيد، سلك فيها مسلك السابقين في التغني بالديار الحجازية، وأتى تشوقه موافقا لهم.

1 - أفاق الشعر العربي في العصر المملوكي، 119-120.

2 - هو تقي الدين، محمد بن علي بن وهب القشيري المنفلوطي المصري، درس على أبيه العلوم الشرعية والعربية، درس في مدارس عديدة كالفاضلية والكاملية والصالحية، شغل منصب القضاء في عصره مما مكنه من الاتصال بكبار رجالات الدولة، توفي سنة سبع مائة واثنتين هجرية. ينظر ابن حجر العسقلاني، الدرر الكامنة في المائة الثامنة، 4/91-96. وابن شاكر الكتبي، فوات الوفيات، 3/442-450. والزركلي، الأعلام، 6/283.

3 - يوسف النبهاني، المجموعة النبهانية في المدائح النبوية، 4/276-279.

وفي قصيدة أخرى نراه يقف ممجداً الرسول، فخصاله عديدة لا تحصى، ومعجزاته خارقة للعادة، نوره جليّ، ودينه واضح، تدارك الله به الخليفة لما طغى عباده، يقول:
[الخفيف]

شرف المصطفى رفيع عماده ليس يُحصى بكثرة تعداده
لاح للمهتدين منعه سراج بيد الله قدحه وزناده
بعثه بعث كليل خير وميلا د الهدى والتقوى مع ميلاده
المعاني لذاته وعلوم الغيب ب لذاته ومنه ما مداده
وله في صفاته ومزايا ه كمال تشجى به حسّاده
بهـرت كل من رآها كمالا وأقـرّت بفضـلها أصداده
كثرت معجزات أحمد حتى صار خرق العادات فيها اعتياده (1)

ويحث الشاعر الذاهبين إلى أرض الحجاز بالتشمير، وبذل الجهد والمشقة، لينالوا شرف التعطر بالثرى، يقول: [الكامل]

يا سائراً نحو الحجاز مشمرا اجهد فديتك في المسير وفي السرى
وإذا سهرت الليل في طلب العلى فحذار ثم حذار من خدع الكرى
فالقصد حيث النور يشرق ساطعا والطرف حيث ترى الثرى متعطرا (2)

فالشاعر يبدي قدرا كبيرا من عاطفة الحبّ والشوق، قصد من وراء ذلك تطويع النفس البشرية، حملا لها على الإيمان، ودعوتها إلى حبّ الأوطان، والتفاني من أجل الرسول ودعوته التي جاء بها، وحرص بها على المسلمين، فالتركيز على الديار الحجازية من قبل الشعراء في هذا العصر لم يأت من فراغ، فزرع الحبّ والتفاني من أجلها، كانت أهدافا سعى الشعراء إلى غرسها في نفوس الأمة الإسلامية.

1 - محمد أحمد درنيقة، معجم أعلام شعراء المدح النبوي، 381.

2 - نفسه، 382.

شهاب الدين محمود الحلبي⁽¹⁾:

له قصائد كثيرة في مدح الرسول، هذا ما يدل على ديوانه المنعوت (أهنا المنائح في أسنى المدائح) وعدد أبياته ثلاثة آلاف وثلاثة أبيات شعريّة⁽²⁾، ويغلب على مدائحه النبويّة افتتاحها بالمقدمات الحجازيّة، حيث يتشوّق ويحنّ لأرض الحجاز، ويبدو أن تأجّج العواطف وتدفعها تجاه الرسول حمله إلى النواح والندب على نفسه، ليحملها إلى الإعراض عن متاع الدنيا وملاذها، ويظهر هذا في أبهى صور التنسك والزهد.

ففي قصيدته النبويّة، يظهر قدرا من التبكيت، والتهويل لأنه جاوز السبعين، ويدعو نفسه إلى عدم التفريط لأن بوادر النوى (الموت) لاحت في الأفق، وبعدها سيأتي الرحيل، فبعد الشيب لا تسويف ولا تعليل: [الخفيف]

ليس بعد السبعين إلا الرحيل	فألم تسويف والتعليل
دهمتك النوى ولا زاد قدم	ت لها والممدى لديك طويل
لم يفدك الكثير من مهلة العم	ر فماذا عسى يفيد القليل
أنت فرطت فاعول الآن إن كا	ن يردّ الماضي عليك العويل
كم نذير أتاك شيب وضعف	وسهاد لا عمن هوى ونحول
وفراق الأحباب وهو على الرّح	لة واليبين لوعقلت دليل
ليت شعري إذا سئلت عن الغفل	لة من بعد هذه ما تقول
ما بقي في الزّمان فسحة آما	ل فعجّل فقد مضى التأجيل
قم وبادر وتب وسارع إلى الطا	عة من قبل أن يفوت القبول ⁽³⁾

¹ - هو الشيخ الإمام شهاب الدين محمود بن سليمان بن فهد بن محمود الحلبي، ولد في حلب وإبها نسب، تتلمذ على يد أكابر شيوخها، فقد تعلم الفقه، والعربي، وبرع في الخط، اتصل برجال المماليك، كان بارعا في نظم الشعر، له مؤلفات عديدة، منها: كتاب في وصف الخيل، حسن التوسل في صناعة التوسل، توفي سنة سبع مائة وخمسة وعشرين هجريّة ينظر ابن شاعر الكتبي، فوات الوفيات، 4/324-326. والزركلي، الأعلام، 7/172. ومحمد الهرفي، شعر الجهاد في الحروب الصليبيّة في بلاد الشام، 325-327.

² - شهاب الدين الحلبي، أهنا المنائح في أسنى المدائح، تحقيق ودراسة حسين الصياد، رسالة ماجستير، جامعة الخليل، 124.

³ - نفسه، 340.

ويتحدث الشاعر عن الشفاعة التي خصَّ بها سيّدنا محمد عن سواه من الأنبياء، يوم يقف البشر بين يدي الديّان، حيث سيحاسبهم على كلِّ كبيرة وصغيرة عملوها في دنياهم، فبعد أن يئس الناس، وانشغل كلُّ شخص بنفسه، هرولوا إلى الرسول طالبين عونهُ وشفاعته، فيقف الرسول صلّى الله عليه وسلّم بين يدي ربّه، ليكون نعم الشفيح، يقول الشّهاب محمود: (الكامل)

وحساب أعمّال الورى في يومهم عمّا مضى منهم على ذرّاتها
والناس قد يئسوا شفاعه كلّ من حوت القيامة في ذرى عرصاتها
يأتى في حمد ربّه بمحامد لا تدرك الأفهام كنه صفاتها
فيقال سئل واشفع فقد أعطيت من رتب الشفاعة منتهى غاياتها
فيقول أمّتي التي ما أشركت بك لحظّة هب لي ذنوب عصاتها
فهناك نعتق من لظى بشفاعة الها دي ونأمن من سطا لفحاتها
ونرى سننا دار النعيم بظله الضّا في ونطمع في جنى جنّاتها (1)

وفي معرض حديثه عن المعجزات النبويّة التي لا حصر لها ولا عدّ فهي كذرات الرّمال التي لا يمكن أن تحصى، فإنّ الشاعر لم يترك مدحة إلا ويقوم فيها بذكر المعجزات، ويتتبعها، ويفصّل الحديث عنها، ففي حديث عن شاة أمّ معبد التي مسح الرسول على ضرعها، فاستطاع هو وصحبه أن يشربوا من لبنها، بعدما كانت هزيلة، لا تقوى على إعطاء الحليب، فيصور الشاعر ذلك المشهد الرّائع قائلاً: [الخفيف]

وكذا شاة أمّ معبد مسّت كّفه ضرعها النحيف البالي
فامتلى ضرعها ودرّت على الفو ر برسّل جوار على استرسال
روّت القوم واستمرّت وما كان يرى في ضروعها من بلال (2)

1 - المصدر السابق ، 226-227.

2 - نفسه ، 381. بلال: جمع بلل، وهو النداءة والعافية. الفيروز آبادي، القاموس المحيط، 2/1281 (بلل).

وبذلك نشاهد أنّ شهاب الدين محمود، في مدائحه النبويّة قد تتبع الخط النبوي، واستقصى الأحداث التي رافقت محمداً صلى الله عليه وسلّم في دعوته، متتبعا سيرته العطرة، وأجاد في ذكره للحقيقة المحمديّة.

أمّا مثاليّة الرسول الخلقية، فقد ألحّ شهاب الدين محمود كغيره من الشعراء السابقين، أمثال الصرصريّ والبوصيري، فقد عملوا على تقديم الرسول بصورة البطل المحارب، مع احتماله لصنوف العذاب والأذى الذي لحقه منهم، فقد قابل ذلك بالصّح والحلم، إلا أنهم أصرّوا على عنادهم، لذا حاربهم لردعهم،⁽¹⁾ يقول: (البسيط)

فقام يدعـو بأمر الله منفردا	ولللّلال جيـوش كلها تجب
تضافروا وغدا الشيطان يجمعهم	فغالبـوا دينه لكنهم غلبوا
وقاطعـوه وآذوه بجهدهم	في الله وهـو عليهم مشفق حذب
يرودهم ويداريهم ويحلم عن	جهـالتهم ويراضيهم إذا غضبوا
حتى إذا ما عثـوا في كفرهم وعتوا	في الغيـّ وارتكبوا في البغي ما ارتكبوا
وعاندوا الحقّ كي يظفا بجهلهم	نور الهدى وتعامـوا عنه واجتنبوا
وعارضوا صحبه والسّابـقين فكم	آذوا وكمـم فتنوا منهم وكم غصبوا
رماهم بجـهاد فلّ حدّهم	فكـان حظهم من حربه الحرب
وفرّ شيطانهم عنـهم وأسلمهم	إلى الرّدى وثنااه عنهم الهرب ⁽²⁾

ويضرب الشاعر أروع الأمثلة لتضحيات صحابة الرسول الذين وقفوا مجاهدين، لا يهابون الأعداء، وكانوا الحصن الحصين للرسول ودعوته، ولم تكن تأخذهم في ذلك لومة لائم، يقول: [مجزوء الكامل]

سل يـوم بـدر عنهم	وعن العـدا فهـو الخبير
إذ أقبلت عليا قريش	وذلك الجـم الغفير
دلّغوا إليه يعزّه	للجهـل بالله الغرور

¹ - ينظر أيمن فرحان العمابرة، المدائح النبويّة عند شهاب الدين محمود الحلبي، دراسة موضوعيّة وفنيّة، 98. أطروحة ماجستير مقدّمة إلى جامعة مؤتة، إشراف شفيق فرحان الرقب، 1991.
² - نفسه، 349-348.

ويرونهم نـ زرا يصـ و ل عليـ هـ جمعهم الكثير
 فاستقبلوهـ مـ بالسعو ف ولـم يكـن فيهم فتور
 رامـوا الشـهـادة دونه هذا هـ و الفـوز الكبير
 خطبوا الجنـان فأذعنت إذ مـن نفوسـهم المهور
 وتزخـرت للقاءـهم منهـم الأسرّة والقصور
 فأمدـهم فـي يومهم بالنصـر ربّـهم القدير
 وملائـك تمـت بها في الحـرب بينـهم الأمور
 بشـرى مـن الله المهـي مـن تطمئـنّ بها الصّور
 فغـدت قـربش وجلهم إمّا قتيـل أو أسير (1)

وكان شهاب الدين محمود من الشعراء الذين تصدّوا لتلك الفئة من الضلال المتشيعين في العصر المملوكي الذين كانوا يقومون بسبّ صحابة الرسول، والطعن فيهم، فقد قام رجال الدين والعلم من الشعراء والأدباء يردّون عليهم، ويفنّدون مقولاتهم وطعوناتهم، يقول: [الكامل]

يا مظهـرا حبّ الرّسول وجهله يغريه مـن سفه بعض صحابه
 رمت الهـدى فضلت فيه لأنه ما جئـت حبّ محمد من بابه
 أتجبه وتعيب قومـا آمنوا بسنا هـ داه حال كشف حجابـه
 كذبتك نفسك ليس فضل كامل فـي دينـه إلا وهم أولى به
 أتذمّ أوّل مؤمـن ومصدّق مـن قومـه بإلهه وكتابه
 مهلا فما بدر الوجـود وقد سما فـي الأفق منتقـصا بنبـح كلابه
 أيكـون أوّل مؤمن سمع الهدى فأجـابـه مستوجبا لعقابه
 أفما يـدرّك عن ضلاله والهوى عقـل فإنّ الدّين ما يعنى به (2)

وجاءت أشعاره النبويّة نابعة من عواطف إيمانيّة نابعة من قلب شاعر وامق للرسول ودعوته، وحريص كلّ الحرص للذود عن حماه، وذلك من خلال التصديّ بسيفه اللساني

¹ - المصدر السابق، 291-292..

² - الشهاب محمود، أهنا المنائح وأسنى المدائح، 330-331.

الذي يقرّع الخصوم ، وينشر الوعي الديني، من خلال حديث عن الرسول ودعوته، وتبيان فضله، وترسيخ الأثر الذي دعا إليه محمد وصحبه، ولم يكن الشاعر يبتغي منزلة أو وزارة ، وإنما أراد شفاعة وجود بها الرسول عليه.

وبذلك نرى أنّ مضامين مدائحه النبويّة جاءت موافقة لما ضمنه من سبقه من شعراء المدائح النبوية، غير ما أدخله شهاب الدين في باب مقارعة الغلاة، والوقوف أمام طعوناتهم لصحابة الرسول، ومحاولتهم التقليل من مكانتهم، وكيل المسبّات لهم.

صفي الدين الحلبي⁽¹⁾:

للشاعر عدّة مدائح نبويّة، ولكن أشهرها وأهمها الكافية البديعيّة، وهي أوّل بديعيّة مكتملة في بابها⁽²⁾، ويظهر الشاعر تعظيماً للرسول من خلال مدائحه النبويّة، ففي مدحته النبويّة الرائيّة، وقف في المدينة، وقد جاشت نفسه حباً لمحمد، يقول: (الطويل)

إلى خير مبعوث إلى خير أمة	إلى خير مبعود دعاها بشيرها
ومن بشر الله الأنعام بأنه	مبشرها عمن إذنه ونذيرها
محمد خير المرسلين بأسرها	وأولها في الفضل وهو أخيرها
عليك سلام الله يا خير مرسل	إلى أمة لولاه دام غرورها
عليك سلام الله يا خير شافع	إذا النار ضمّ الكافرين حصيرها
تشرّفت الأقدام لما تابعت	إليك خطاها واستمرّ مريرها ⁽³⁾
وفاخرت الأفواه نور عيوننا	بتربك لما قبلته ثغورها
لأنك سرّ الله والآية التي	تجلت فجلى ظلمة الشك نورها ⁽⁴⁾

¹ - هو عبد العزيز بن سرايا، ولد في مدينة الحلة في العراق على الفرات، كان كثير التنقل والترحال بين المدن العربيّة، تتقف ثقافة أدبيّة، اتصل بحكام بني أيّوب، له مؤلفات عديدة منها: العاقل الحالي والمرخص الغالي في الزجل والكان كان والموالي، الدرّ النقيس في أجناس التجنيس، توفي سنة سبعمائة وخمسين هجريّة. ينظر ابن شاعر الكتبي، فوات الوفيات، 335/2. والزركلي، الأعلام، 18-17/4.

² - علي أبو زيد، البديعيّات في الأدب العربي، 71-74.

³ - مريرها: الحبل الشديد الفتل. الفيروز آبادي، القاموس المحيط، 659/1. (مرر)

⁴ - صفي الدين الحلبي، الديوان، 80-81.

فالشاعر تحدّث عن مكانة النبي وشرفه ، ثمّ انتقل بالحديث عن فضل النبيّ على أمّته، وذكر الحقيقة المحمديّة، وجاءت الألفاظ سهلة، خرجت بسلاسة ولم يكتنفها الغموض، فضلا أنّها لم تصل إلى حدّ العاميّة المبتذلة.

ويتوجّه إلى الرّسول بالشكوى لما آلت إليه أحواله، فهو يتحمّل من العذابات ما تنوء عن حمله الجبال والليالي، وذلك بعد أن قلب له الدهر ظهر المجنّ، حيث تحوّل الصّديق إلى عدو، ويذكر بأنّه مهما طال الزمن فالصّبر كفيل بنصره على عدوّه، يقول:

ليالي يعديني زماني على العدى وإن ملئت حقدا عليّ صدورها
ويسعدني شرخ الشبية والغنى إذا شأنها إقتسارها وقتيرها
ومذ قلب الدهر المجنّ أصابني صبورا على حال قليل صبورها
فلو تحمّل الأيام ما أنا حامل لما كساد يمحو صبغة الليل نورها
سأصبر إماما أن تدور صروفها عليّ وإمّا تستقيم أمورها (1)

ويزجي الحلي تحيّاته إلى المصطفى وآله وصحبه الغرّ الميامين، حيث يترك جانبا لمدحهم، والثناء عليهم بغرر القوائد النبويّة، فأصحابه . عليه السّلام . نجب صيد، ولا يحلّ لامرئ أن يضمّر لهم العداوة والبغض، وإلا كان شقيا غير سعيد في دنياه وآخره، يقول في ذلك في القافية التي بدأها بذكر جماليّات الطبيعة الغناء، وتدرّج فيها إلى مدح النبي، وختمها بالإطراء على صاحب الرسالة، مستهديا بمن سبقه، ومتخذًا التوسل طريقا لتحقيق غايته: [البسيط]

صلى عليك إله العرش ما طلعت شمس النهار ولا حست أنجم الغسق
وآلك الغرر اللاتي بها عرفت سبل الرّشاد فكانت مهتدى الفرق
وصحبك النجب الصّيد الذين جروا إلى المنقب من تال ومستبق
قوم متى أضمرت نفس امرئ طرفا ممن بغضهم كان من بعد النعيم شقي
ماذا نقول إذا رمنا المديح وقد شرفتنا بمديح منك مستبق

1 - المصدر السابق، 78.

إذ قلت في الشعر حكم والبيان به سحر فرغبت فيه كل ذي قلق
فلا أخلّ بعذر من مديحك ما دام فكري لـم يرتج ولم يعق
فسوف أصفيك محض المدح مجتهدا فالخلق تفنى وهذا إن فנית بقي (1)

ولقد صدق الحلبي فيما قال فهو قد مات ، أمّا شعره فخالد وباق، وزاد شعره تشريفاً أنّه
جاء في مدح النبيّ، الذي ما فتئ يحض على الشعر الذي يوافق الشريعة، ويحمل في
طبّاته الحكمة والبيان، وابتعد به صاحبه عن الرذيلة والهوان.

وفي موطن آخر يطالعنا الحلبيّ في قصيدته النونيّة، وعلى غير عادة الشعراء، حيث
يفتحها بالمعجزات التي رافقت طلعة الرسول البهيّة على هذه البشريّة، فيران المجوس
خبت، وانشقّ إيوان كسرى أنوشروان، وبشرّ بقدومه سطيح الرّاهب، وأنبياء بني إسرائيل
لفضل الرسول دانوا، كما شهدت بفضائله التوراة والإنجيل، وبرزت شمس على الأكوان
تنشر ساطعة تحمل كلّ هداية وبيان، يقول: [الكامل]

خمدت لفضل ولادك النيران وانشقق من فرح بك الإيوان
وتزلزل النّادي وأوجس خيفة من هول رؤياه أنوشروان
فتأولّ الرّؤيا سطيح وبشرت بظهورك الرّهبان والكهّان
وعليك أرميّا وشعيا أنبيا وهمما وحزقيل لفضلك دانوا
بفضائل شهدت بهنّ الصّحف والتورا ة والإنجيل والفرقان
فوضعت لله المهيمن ساجدا واستبشّرت بظهورك الأكوان (2)

أبرز الحلبيّ نور الرسول إذ جعل أنبياء بني إسرائيل من أمثال أرميّا وشيعا وحزقيل
يدينون له، على الرغم أنّهم سبقوه، وعلى صعيد المعاني المستخدمة فقد جاءت موافقة
لقدر من مدح، فهي سامية وتدل على عمق الوازع الديني الذي حمله الشاعر وأراد
تحقيقه، وسعى من خلال قصيدته هذا، وغيرها من القصائد إلى نيل الجائزة، والمؤكد

1 - المصدر السابق، 88.

2 - نفسه، 82-83.

أنّ الجائزة ليست ماديّة، وإنما كانت طلب الغفران، لينال بها الجنان، ويعبر عن ذلك قائلاً:

فلقد تعرّض للإجازة طامعا في أن يقال جـزاؤه الغفران

أمّا ما يخصّ بديعيّته التي مدح بها النبيّ، وهي معارضة لبردة البوصيري، فقد اتفقت معها في الوزن والقافية، وموضوع القصيدة، واتجاهها في المديح، لذا حظيت بالشهرة والعناية من قبل الشرايح، فتلقفتها الأسماع بالقبول والإطراء، وهي تقع في مائة وخمسين بيتا من الشعر، ظاهرها مدح للرسول، ويتضمن كلّ بيت من أبياتها فنا أو أكثر من فنون البديع.

وتتوافق قصيدة صفي الدين الحلبي مع بردة البوصيري في الدافع الأصيل لنظم القصيدة، وهو المرض ورؤية الرسول - عليه الصلاة والسلام - والفارق بين الاثنتين أنّ الحلبي جمع أشات البديع، ويستعيز بها عن كتاب فيه⁽¹⁾. كيف لا؟ وقد نظم فيها مائة وخمسة وأربعين بيتا، اشتملت على مائة وواحد وخمسين نوعا من محاسن البديع، وذكر فيها من أصناف التجنيس مائة وواحدا وخمسين نوعا، في حين ألزم الشاعر نفسه عدم التكلف، وترك التعسّف، حيث السهولة طريقا، والرّقة مسلكا، وقوّة المعنى مبتغى⁽²⁾، يقول الحلبي في مطلعها: [البسيط]

إن جئت سلعا فسل عن جيرة العلم	واقـر السّلام على عرب بذي سلم
حسبي بذكرك لي ذمّـا ومنقصة	فيما نطقـت فلا تنقص و لا تدم
قالوا: ألم تـدر أنّ الحبّ غاية	سلب الخـواطر والألباب؟ قلت لم
لم أدر قبل هواهم والهوى حرم	أنّ الظبـاء تحلّ الصيد في الحرم
فإن سعـدت فمدحي فيك موجه	وإن شقيت فذنبي موجب النقم ⁽³⁾

¹ - محمود رزق سليم، عصر سلاطين المماليك، 181/8.

² - ينظر صفيّ الدين الحلبي، شرح الكافية البديعية في علوم البلاغة ومحاسن البديع، 54-55.

³ - نفسه، 57.

فالبيت الأوّل يحتوي على فنين هما براعة المطلع أو حسن الاستهلال، ويحتوي على الجنس، أضف إلى ذلك رقّة التّشبيب، وتجنّب الحشو، والبيت الثاني فيه فنّ النزاهة⁽¹⁾، والبيت الرابع فيه تشابه الأطراف⁽²⁾، وذلك بين (لم ولم)، وقد حمل الأخير براعة الختام.

وبشكل عام يمكن القول إنّ الحلّي أثر نمط السهولة واليسر، مما دفع عمر فاروق الطّباع إلى القول: " وكان صفيّ الدين بعيدا عن الغريب والحوشيّ في نمطه الشعريّ وطبعه الفنيّ وأساليبه فجاء إيقاعه عذبا ولفظه سهلا، وتواترت فيه إلى جانب الرّقّة والسهولة، جزالة ومتانة، فكانت البلاغة عنده إفصاح وبيان في قوالب محكمة من النسيج الشعريّ، فصان بذلك شعره " (3).

ويلاحظ على بديعيّة الحلّي أنها توافق نهج قصيدة المديح النبويّ بمخطّطها العام، فالمقدّمة الغزليّة، ثم مديح الرّسول، والحديث عن صفاته وأخلاقه ومعجزاته، وأغرق في الحديث عن الحقيقة المحمّديّة، فأنبأ الله توسّلوا بمحمد، لأنه الشفيح الأوحد، ويردّ فيها الشاعر على النصارى وما يدعون، ثمّ يختم بالصّلاة على النبيّ المأمون .

ومدائحه النبوية بشكل عام جاءت موافقة لما نظم سابقا في الثناء على الرّسول، وإجلاله وإكباره، وهذا ينبع من عاطفة دينيّة مشحونة بالحبّ والوفاء، وقد ابتعد الحلّي في مدائحه عن الألفاظ الوعرة، إلا أننا نجد التكلف باديا في بديعيّته التي سعى من ورائها للجمع بين فنين مختلفين وهما مدح الرّسول، وتعداد أنواع البديع، من هنا ظهر التكلف، ولكن يجدر بنا الإشادة بجهود الحلّي البلاغيّة التي هدف من ورائها خدمة اللغة العربيّة .

¹ - النزاهة : الإتيان بألفاظ فيها معنى الهجو الذي إن سمعته العذراء في خدرها لا تنفر منه. ابن حجّة الحموي، خزائن الأدب وغاية الأرب، 1/172. وعلق ابن حجّة الحمويّ قائلا : " النزاهة ما نظمها أحد في بديعيّته إلا صفيّ الدّين الحلّي " وهو نوع غريب، يحمل في ثناياه الحشمة، وهو في الأصل هجو.

² - تشابه الأطراف: هو أن يقوم الناظم بإعادة لفظة القافية للبيت في أول البيت الذي يليه. ابن حجّة الحموي، خزائن الأدب وغاية الأرب، 1/225-226. وقد استشهد ابن حجّة بهذا الشاهد في خزائنه.

³ - صفيّ الدّين الحلّي، الديوان المقدّمة، 18-19.

ابن نباتة المصري (1):

مدح ابن نباتة الرسول في خمس قصائد شعرية، ويغلب على شعره تفننه في أمور البديع، وصبغه لمدائحه بصبغة البديع، وهذا الأمر ليس بالجديد، فيغلب عليه من هذه الناحية مشابهة أسلوبه أسلوب صفي الدين الحلي الذي أفاض بعلم البديع وجعله مقصده في قصائده، ويغلب على مقدماته افتتاحها بالغزل الذي يشوبه مسحة من الشجون، وترافقه دمعات العيون، فالمعاني جميلة، والعبارات الواردة لطيفة، يقول في همزيته: [الوافر]

شجون نحوها العشاق فأووا وصبّ مـالـه في الصبر راء
وعين دمعتها في الحـبّ طهر كأنّ دمـوع عيني بيرحاء
كأنّ بكاي لي عبد مجيب فما فرجـي إذا إلا البكاء (2)

ثمّ يتجه إلى مدح الرسول صلى الله عليه وسلم، ويظهر علو مكانته بين الخلق حيث وصلت إلى الشمس، والرسول نور لكل من اهتدى، ولكنه نار لظى على أعدائه، ويهاجم ابن نباتة الملحدين، وينذرهم بالجحيم، يقول من القصيدة نفسها:

وأبـن الشمس منه سنا ولولا سناه لما أـلـم بها سناء
لمبعثه على العـادين نار وللهـادين نور يستضاء
سهام دعـالـه وسهام رأي لها فـي كل معركة مضاء
درى ذو الجيـش ما صنعت ظباه وما يدريـه ما صنع الدعاء
ولولاه لمـا حجّت وعجّت وفود البيت ضـاق بها الفضاء
فإن يتلا لـه في الحجّ حمد فقدمـا قد تلتـه الأنبياء
فقل للملـحين تنقلوها جحيما إنـما منكم براء
"وإنّ أبـي ووالده وعرضي لعرض محمد منكم وقاء"

1 - هو محمد بن محمد، جمال الدين الفارقي، ولد لأسرة عريقة في العلم والأدب في القاهرة، قضى أغلب حياته منتقلا بين مصر والشام، أقيمت الدنيا عليه زمن الأيوبيين، تسلم وظائف عديدة، كتب في التاريخ، وبرع في الشعر، من مؤلفاته: سرح العيون في رسالة ابن زيدون، وله ديوان شعر مطبوع، توفي سنة سبعمئة وثمان وستين هجرية. ينظر الصفي، الوافي بالوفيات، 311/1. وابن حجر، الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، 216/4. والزركلي، الأعلام، 38/7.

2 - ابن نباتة، الديوان، 1.

عليك من الملائك كل وقت صلاة في الجنان لها أداء⁽¹⁾

ويظهر تأثر الشاعر كبيرا بحسان بن ثابت كبيرا، إلى الحد الذي ضمّن في قصيدته بيت حسان كاملا (فإنّ أبي ووالده)، وكأنّي بالشاعر أتى بهذه القصيدة معارضا قصيدة حسان بن ثابت الهمزية، فهي جاءت على الوزن نفسه وكذلك القافية، فقد افتتح حسان قصيدته بقوله: (الوافر)

عفت ذات الأصابع فالجـواء إلى عذراء منزلها خلاء⁽²⁾

وفي قصيدة الميمية لا يصنع ما دأب عليه في غيرها من القصائد الأربعة بالبداية بالغزل، وإنما تحدّث مباشرة عن شرف مقام الرسول الذي لا يستطيع نظم أو نثر عن الإحاطة به يقول: [الكامل]

أوجـز مديحك فالمقام عظيم مـن دونـه المنثور والمنظوم
من كان في سور الكتاب مديحه مـا إذا تساور فكرة وتروم
بـدر تألق فالطريق محجّة لـذوي الهداية والصراط قويم
وتشـرّفت أرض بموطئ نعله وسمت حـصاها فالرجوم نجوم⁽³⁾

ثمّ ينتقل إلى مدح الرسول والثناء عليه، والمعاني المطروقة في هذا المجال مطروقة من قبل الشعراء السابقين، بمعنى أنّ المعاني مكرّرة، حيث يبيّن فيها مكانة الرسول، ويتخذ من عناصر الطبيعة ملاذاً ومسانداً لتشبيحاته.

أمّا في رأيته فهو يستهلها بالنسيب، ويستغرق منه سبعة وثلاثين بيتاً، يبدو أنّ الشاعر فيها قد كابد الأحزان، ويظهر أنه عانى قسوة الزمان، وغشاه الحرمان، وغلقت عليه الأشجان، ينتقل إلى مدح جناب الرسول، ويظهر فيها النور المحمدي، يقول ابن نباتة: [الطويل]

¹ - المصدر السابق ، 4-2.

² - حسان بن ثابت، الديوان، 17.

³ - ابن نباتة ، الديوان ، 428.

صحا القلب لب لولا نسمة تتخطر ولمعة بـ رُق بالغضا تتعسر
 بني أتم الله صورة فخره وآدم فـ في فخاره يتصور
 تحـ زم جبريل لخدمة وحيه وأقبل عيسى بالبشارة يجهر
 فمن ذا يضا هيه وجبريل خادم لمقدمه العالي وعيسى مبشر
 هو البحر فيـ المراض الموارد للورى ولكنـ العذب الذي لا يكدر
 تهاوى لمأتاه النجوم كأنها تشافه بالخذ الثرى وتعفر
 تنقل نوراً بين أصلاب سادة فله منه في سما الفضل نير
 به أيـ الطهر الخليلي فانحت يـ داه على الأصنام تغزو وتكسر
 ومن أجله جيء الذبيحان بالفدى وصيـ من دم بين الدماء مطهر
 وردت جيوش الفيل عن دار قومه فله نصل قبل ما سل ينصر
 عليك صلاة الله في كل منزل تعبـ عن سر الجنان وتعبر (1)

وقد علق عليها صاحب معجم شعراء المديح بقوله: " وهي خير ما قاله في ديوانه، فهي ممتاز بوضوح المعاني، وقوة السبك، مما دفع بمعاصريه إلى تلقفها والإعجاب بها" (2).

ويأبى ابن نباتة إلا أن يعارض كعب بن زهير في لامبته، ويظهر الشاعر فيها أنها نظمت بعد أن بلغ الشاعر الأربعين من عمره، يمتدح الرسول من خلال معجزاته، ونوره الذي عمّ الأرض والبشرية، يقول: [البيط]

ما الطرف بعـ دكم بالنوم مكحول هـ ذا وكم بيننا من ربكم ميل
 والسـ قد قرعتـها الأربعون وفي ضمائـ النفس تسويف و تسويل
 محمـ المـ جتبي معنى جبلته وما لآدم طـ ين بعد مجبول
 والمجتلى تـ جع عليه الرفيع وما للبدـ تـ جع ولا للنجم إكليل
 ذو المعجـ زات التي ما اسطاع أبرهة يغـ زو منازلها كلا ولا الفيل
 ما زال في الخلقـ ق ذا جاه وذا خدم لكنـ خادمه المشهور جبريل
 فاض الـ زلال المهتي من أصابعه نعـم الأصابع من كفيه والنيل

1 - المصدر السابق، 180-183.

2 - محمد أحمد درنيقة، معجم أعلام شعراء المدح النبوي، 389.

وبورك الـ _____زَادَ إِذْ مَسَّتْهُ رَاحَتُهُ فَحَبَّبَ—ذَا مَشْرَبٍ مِنْهَا وَمَأْكُولٍ
وحاز سهم الـ _____معالي حين كان له من قـاب قوسين تنويه وتنويل (1)

وعليه يبقى ابن نباتة يحمل في قصائده من الخصائص التي يتميَّز بها من غيره ،
وتطبعه بطابع خاص، فكثرة الحزن والأسى الذي يظهر في مقدّمات مدائحه النبويّة ما
جاءت من فراغ، وإنما مردّها إلى ما حملته نفسيته المتعبة أصلاً من ظروف الحياة
المريّة التي كابدها، فقد كان كثير العيال، فقير الحال، ومع ذلك عبّر عمّا في داخله من
خلال هجرته إلى الرّسول، وبثّ شوقه إليه، ويمدحه بقصائده التي خلت من التعقيد،
ونحت جانب الوضوح والسلاسة، مع قوّة الأسر والسبك، ومثل هذه الخصائص من النادر
أن تجتمع لدى شاعر غالبته الأحزان، وأوقعته الحياة في شركها، و تمنحه الفرصة
المناسبة ليتواءم معها.

ابن جابر الأندلسي (2):

نظم الشاعر مجموعة من القصائد النبويّة، أهمها تلك التي عارض فيها قصيدة كعب
بانة سعاد، ويبدو الشاعر فيها متأثر كلّ التّأثر بكعب وبردته، حيث يضمن قصيدته بعض
مفردات البردة، وينظر الشاعر إلى الرسول على أنه القمين بالثناء والمدح، فقد شرفه الله
بالمجد.

وجريا على عادة الشعراء السّابقين، فإنه يقوم بنشر ما طاب له من وجهات النظر في
الحياة، وهو في ذلك ينطلق وفق منطلقات الشريعة الإسلاميّة، فتراه يحارب تلك الآفات
الاجتماعيّة التي تبرز في المجتمع من حين لآخر من مثل الغيبة والنميمة، وتراه في
المقابل يحرّض على الفضائل الساميّة، فالوقار والصمت وطيبة النفس وغيرها من الفضائل
المحبّبة.

1 - ابن نباتة ، الديوان ، 372-373.

2 - هو أبو عبد الله ، محمد بن أحمد بن علي بن جابر الأندلسي الأعمى ، من مواليد المريّة في الأندلس ، تتلمذ على
أبيه ، تنقل بين المشرق والمغرب إلى أن استقر في به المطاف في حلب الشهباء ، من أشهر مؤلفاته: الحلة السيرا
في مدح خير الوري ، توفي سنة سبعمئة وثمانين هجريّة . ينظر المقري ، نفح الطيب في غصن الأندلس
الرطيب ، 1/38 . وابن حجر العسقلاني ، الدرر الكامنة ، 3/339-340 . و الصفي ، الوافي بالوفيات ، 2/157-158 .

وعلى النهج الذي اختطه كعب، ترى أن ابن جابر يفتتح معارضته بالنسيب، ويبدو عليه التقليد سمة بارزة، وهي قصيدة طويلة، أبدى فيها الشاعر قدرا كبيرا من الحبّ لسيدنا محمد صلى الله عليه وسلّم، فقلبه مجبول على حبّه، وصوّر رهبة الموقف يوم القيامة، حيث يأتي الخلق زرافى يقفون أمام الرسول يلتمسون شفاعته، بعدما طلبوها من عيسى الذي أوماً على الرسول، وعندها أخبرهم الحبيب بأنه لها كفيل، يقول فيها:

[البسيط]

بانت سعاد فعقد الصبر محلول والدمع في صفحات الخدّ مبذول
لي الأمان وحاشا أن أخيب ولي قلب على حبّ خير الخلق مجبول
ههادي البرية من بعد الضلال ومن له على الرّسل تخصيص وتفضيل
له الشفاعة حيث الرّسل جاثة وكلّ شخص لهول الحشر مخبول
وجاءت الخلق أفواجا ليلتمسوا لهم شفيعا وما في الأمر تمهيل
وحيث جاءوا رسولا قال لست لها فليس لي عن مقام الخوف تحويل
حتى إذا ما أتوا عيسى يقول لهم أمر الشفاعة للمختار موكل
هناك يدعى به سل تعط وادع تجب واشفع تشفع فوعد الله مفعول (1)

وفي قصيدة أخرى يعتمد اللام المكسورة الرّوي، ويجرد فيها سيرا على نمط الشعراء، ويطلب من نفسه العدول إلى المدينة المنورة، فهناك الرسول يرقد في جدته بطيبة، ويطلب أيضا من نفسه أن يدع ربع سعدى فالنزول فيه لا يجدي، يقول: [الطويل]

هم عدلوا نحو المدينة فاعدل ولا تك عمن ذاك الضريح بمعزل
ودع عنك سعدى والنزول بربعها وإن شئت إسعادا بطيبة فانزل
وسلمهم على ذاك الضريح فإنه ضريح به قد حلال أكرم مرسل
ويمّم جناب الهاشمي ولذ به ولا تبك من ذكرى حبيب ومنزل
هناك الجناب الرّحّب والمنعم الذي شفاعته للخلق أكرم موئل (2)

1 - محمد أحمد درنيقة، معجم أعلام المدح النبوي، 329.
2 - يوسف الذهاني، المجموعة النبهانية في المدائح النبوية، 267/3.

وهو يتأثر تأثراً واضحاً بدعوة ملك النحاة - الحسن بن صافي - عندما يطلب من نفسه ترك سعدى وديارها، ويحث على الذهاب إلى الديار الحجازية، وعندما يصل إلى خاتمة القصيدة، يرثي الشاعر فيها نفسه، وقد اقترب أجله، وعليه أن يخفف من وطأة الذنوب التي تثقل كاهله، لذلك يفرّ مهرولاً إلى الرسول لينال شفاعته، ويظهر الشاعر قدراً كبيراً من الاستعفاف لينجو، وفي هذا صدق عاطفة، يقول:

فيا خير خلق الله جاهك ملجئي وحبك ذخري في الحساب وموئلي
وكيف لقصدي أن يخيب وإنني بمدحك لله العظيم توسلي
مدحتك حاشا أن تخيب مدائحي فأنت الذي إن يسأل الخير يبذل
عسى لحظة من حسن جاهك ينقضي بها ألمي يا من عليه معولي
عسى أن يخف العفو ظهري للسرى فكيف نهوضي حيث ذنبي مثقلي
سأنجو بما أرجو من الكرم الذي شملت به في الناس كل موئلي⁽¹⁾

ومن الجدير ذكره أن القصيدة وإن كانت في المديح النبوي إلا أنها جاءت معارضة لمعلقة امرئ القيس (قفا نبك)، من حيث اتخاذ قافية اللام والبحر العروضي الطويل، وهذا يعدّ تأثراً بالموروث الشعري العربي القديم واحتفاء به .

وبديعته الميمية جاري فيها صفي الدين الحلبي، فقد مدح فيها النبي محمداً، ونظم من خلالها أنواع البديع، وهي من البحر البسيط، وبين الشاعر السبب وراء نظمه للبديعي⁽²⁾، يقول: (البسيط)

بطيبة انزل ويمم سيد الأمم وانشر له المدح وانثر أطيب الكلم
وابذل دموعك واعذل كل مصطبر والحق بمن سار والحظ ما على العلم
سنا نبي أبوي أن يضيّعنا سليل مجد سليم العرض محترم
جميل خلق على حق جزيل ندى هدى وفاض ندى كفيه كالديم
كف العداة وكعد الحادثات كفي فكم جرى من جدا كفيه من نعم⁽³⁾

¹ - المصدر السابق ، 272 / 3.

² - ينظر ابن جابر الأندلسي، الحلة السيرا في مدح خير الورى، 25.

³ - نفسه ، 30-28.

والأبيات السابقة أتت شاهدة على أنواع التجنيس من مثل: جناس الاشتقاق (بطيبة، وأطيب) وفي (يمم ، الأمم)، والجناس الملحق في الأفعال (ابذل ، واعذل) و (الحق ، والحظ)، وفي الأسماء (نبي ، وأبي) و (سليل ، وسليم) و (جميل ، وجزيل) والناقص (كف ، وكفى)، كما يحتوي البيت الأوّل على براعة الاستهلال ، فقد افتتح بدعيّته بالتعني بطيبة.

ولابن جابر قصيدة أخرى في المديح النبوي، حيث يوري فيها بسور القرآن الكريم، ويعد هذا تيسيرا على التلاميذ، نظرا لبراعة ابن جابر في التدريس، يقول فيها:

[البسيط]

في كلّ فاتحة للقول معتبرة حـقّ الثناء على المبعوث بالبقره
 في آل عمران قدموا شاع مبعثه رجالهم والنساء استوضحوا خبره
 قد مدّ للناس من نعمها مائدة عمّت فليست على الأنعام مقتصره
 أعراف نعمها ما حلّ الرجاء بها إلا وأنفـال ذاك الجود مبتدره
 به توسّـل إذ نادى بتوبته في البحر يونس والظلماء معتكره
 هود ويوسف كم خوف به أمنا ولن يروّع صوت الرعد من ذكره⁽¹⁾

ويبدو أنّ ابن جابر كان الرائد في مثل هذه التوريات، فكلمات (الفاتحة، والبقره، وآل عمران، والنساء، والمائدة، والأنعام، والأعراف، والأنفال، ويونس، وهود، ويوسف، والرعد) هي جميعا جيء بها تورية عن سور القرآن الكريم، ويمضي الشاعر على هذه الشاكلة حتى نهاية القصيدة.

¹ - يوسف النبهاني، المجموعة النبهانية في المدائح النبوية، 169-171.

عبد الرّحيم البرعي (1) :

بلغت مدائحه عشرين مدحة، وأغلب المعاني الواردة في قصائد المديح النبوي مطروقة من قبل السابقين، ففي مقدّماته يظهر الشوق والتغزل بالديار الحجازية، ويبيّن خصال النبيّ، وشرفه، وفضله ومكانته، وتحدّث عن معجزاته، كما تحدّث عن الحقيقة المحمديّة، وينتهي بمدحته إلى طلب الشفاعة من الرسول لعلّ الشاعر يصل إلى مبتغاه وهو الفوز بدخول الجنة .

ويسرع الشاعر إلى الرسول متوسلاً وطالبا العفو، ومظهرا قدرا من الأمل بأن يقبل الرسول توسله، ويطلق الشاعر مجموعة من الأوصاف التي تميّز بها الرسول، يقول:

[البيط]

محبّة لرسول الله أدخرها ليوم أسأل عن ذنبي فأجزاه
 حسنت ظني وآمالي بذني كرم تلقاك من قبل أن تلقاه بشراه
 محمد سيّد السّادات من وطئت حجب العـ ليلة المعراج نعلاه
 مهذب الخلق والأخلاق بهجته تريك عن حسنه عنـ وان حسناه
 ومثله ما رأته عين ولا سمعت أذن ونطق في الكـون أفواه
 كلّ الملائك والرّسل الكرام على فصّ الجلالة شكـل وهو معناه
 راحي وراحة روعي أنت أنت فما ألدّ ذكرك في قلبي وأحلاه
 يا سيّدي يا رسول الله خذ بيدي فـي كلّ هول من الأهوال ألقاه
 يا عدّتي يا نجاتي في الخطوب إذا ضـاق الخناق لخطب جلّ بلواه (2)

وفي قصيدة أخرى يثني على الرسول وصاحبيه، ويرتجي منهم الخير بالفوز، وشيمة هؤلاء الفضل وبالتالي شرفوا مدائحه فنالت الشرف لفضل ما حوت، ويتمنى أن ينال ما

¹ - هو العارف بالله عبد الرّحيم البرعي اليمني، ولد باليمن وتنتقل في البلدان العربية، المشرقية منها والمغربية، كان فقيها وعالما ومحدثا، أضف إلى ما سبق من أنه كان شاعرا رقيق الإحساس، له ديوان شعر يحتوي على عشرين مدحة نبوية، توفي سنة ثمانمائة وثلاث هجرية. ينظر عمر فروخ، تاريخ الأدب العربي، 821/3-822. و الزركلي، الأعلام، 343/3. وكحالة، معجم المؤلفين، 302/5.

² - عبد الرّحيم البرعي، شرح ديوان البرعي، 42-41.

ناله حسان بن ثابت الذي بشر بالحسنى، ويلحظ في قصائده إبحاره بطلب العفو ليرجح الميزان، وتصبح النفس خالية من الأحزان، يقول: [البسيط]

محمدًا سيّد الكونين والثقلين من والفريقين مـــــــن عجم وعربان
 ورجّ فضّل ضجيعيه فإنهما السيّدان المجدان الرفيعان
 وثق بحبل شهيد الدار تلوهما شيخ الكرامة عثمان بن عفان
 ثمّ ابلغ الغاية القصوى أبو حسن وابنناها أيضا وعمّاه الكريمان
 أئمّة زين الله الوجود بهم غرّ مهذبة أبناء غرّان
 لا غرو إن جعلوني مــــن تفضّلهم سلمان بيتهم مــــن بعد سلمان
 أو شرفوا قدر مدحي وهو شيمتهم أو بشروني بالحسنى كحسان
 الحمد لله هم ركني وهم عضدي وهم نجاتي وهم روعي وريحاني
 يا سيدي يا رسول الله يا أملي يا مؤلّي يا ملاذي يوم تلقاني
 هب لي بجاهك ما قدّمت من زلل جودا ورجح بفضل منك ميزاني⁽¹⁾

لا يخفي الشاعر تأثره بالشعراء الأقدمين ممن نظموا في المدائح النبوية، خاصة البوصيري، حتى أنه ردّد المفردات والكلمات التي أتى بها البوصيري في بيته المشهور من ميميته، ويقول فيه:

محمد سيّد الكونين والثقلين من والفريقين من عرب ومن عجم

وكذلك بعبد الرحمن بن الجوزي حيث يقول:

هـــــــو سيّد الكونين سيّد هاشم مــــا في سيادته عليه خفاء⁽²⁾

ويظهر أيضا أنّ الشاعر كان متأثرا بعليّ السخاوي والصرصريّ، اللذين كان يصرّحان بذكر اسميهما في المدائح النبوية، فالبرعي لا يكاد يترك مدحة نبوية إلا يذكر فيها اسمه،

¹ - المصدر السابق، 58-59.

² - صلاح الدين الهواري، المولد النبوي الشريف، 97.

ويأتي هذا في باب طلب الصفح من الرسول، لنفسه ولغيره من الأصحاب والإخوان، يقول:

فاعطف حنانا على عبد الرحيم ومن يليه في الناس من صحب وإخوان

ويطلب من الرسول أن يقله من عثرته، وذلك عن طريق منحه كتاب براءة من النار برفقة والديه، وأن يجيزه كرامة الدارين مكافأة لمدائحه، يقول:

فأقل عثــار عبــدك الدّاعي الذي يـرجوـك إذ راجـيك غير مخـيب
واكتـب لـه ولوالديه براءة من حرّ نار جهنّم المتلهّب
واقمـع بحـولك باغـضيه وكلّ من يؤذيه مـن متمرّد متعصّب
وأجز بهـا عبد الرحيم كرامة الدّارين إذ هي خيـر نظم معرب
واشفع لـه ولمن يليه وقم بهم في كلّ حال يا شفيع المذنب
وعليك صلّى ذو الجلال أتمّ ما صلى وسلم يا رفيع المنصب
وعلى صحابـتك الكرام وآلك الـأعلام أهـل الفضل كلّ مهذب
ما غرّدت ورق الحمّام وما انثنت عذب البشام ضحى بروح الأرنب(1)

ويقوم البرعي بتعداد معجزات النبي في مواضع كثيرة من مدائحه النبوية، فيذكر انشفاق القمر، وتظليل الغيم، وحنين الجذع إليه، وتسيح الحصى بين يديه، وشاة أمّ معبد، ويحشد تلك المعجزات في أغلب الأحيان في بضعة أبيات، يقول:

البدر شـققّ له والغيم ظلله والجذع حنّ وسبّحن الحصيّات
وشاة جابر يـوم الجيش معجزة نعم النبيّ ونعم الجيش والشاة(2)

ويظهر البرعي الحقيقة المحمدية جريا على عادة الصوفية، فمحمد نور امتدّ من عهد آدم انتقل من رحم إلى رحم حتى وصل إلى آمنة التي وضعتة، ونشأ في بني هاشم، وترعرع فتى ثمّ طفلا، وتوفي وهو كهل، ولكن آثاره ظلت علامة على الكون، فالحنفية السّمحة شاهدة عليه، وبها نسخت الملل والأديان جميعا، يقول في لاميته: [البيسط]

1 - عبد الرحيم البرعي، شرح ديوان البرعي، 65.
2 - نفسه، 162.

ما زال بالنور من صلب إلى رحم من عهد آدم في السّادات ينتقل
حتى انتهى في الذرى من هاشم وسما فتى وطفلاً توفي وهو مكتهل
فكان في الكون لا شكل يقاس به ولا على مثله الأقطار تشمل
بـه الحنيفة مرساة قواعدها فوق النجوم ونهـج الحق معتدل
ومنـه ظلّ لوء الحمد يشملنا إذا العصاة عليهم من لظى ظلل
وإنه الحكم العـدل الذي نسخت بدين ملتـه الأديان والملل(1)

وبما أنّ البرعي أحد المتصوفة فليس من الغريب أن تصبغ مدائحه النبوية بصبغة
الصّوفيّة، لذا نراه يميل إلى الرمزيّة الصّوفيّة، ويأتي بالاستعارة و التورية والكناية، وبذلك
نراه يؤصّل مبدأ الصّوفيّة في شعره ، ومع ذلك يظهر قدرة فائقة في التعبير عن معانيه
بكل سهولة ويسر، ولا يغرق الشاعر في الألفاظ الوعرة ، وتصل إلى حدّ الإسفاف، وفي
المجمل جاءت مدائحه كالماء تنساب انسياباً، واتبع البرعي فيها أسلوب الواعظين
الدعاة .

شمس الدين النواجي(2) :

يعجّ ديوان النواجي بتلك القصائد التي امتدح فيها النبيّ محمداً، حيث كان
النواجي كثيراً ما يرد الحضرة الشريفة، وفي كلّ زيارة يجدها مناسبة شريفة ويقوم بإلقاء
مدحة نبويّة بين يديّ قبر الرّسول، يعبر فيها عن شوقه للنبيّ وصحبه ، وقد بلغ من حبّه
للنبيّ مرتبة سامقة، إذ قد كوي بنار الحبّ وجزع قلبه، وخارت قواه ، حتى كأننا نقف
بين يدي شاعر ولهان يعاني تباريح الهوى ولوعة الحبّ من حبيب أعرض وجفا، وهذه
مزيّة متكررة في قصائد النواجي النبويّة.

1 - البرعي، شرح ديوان البرعي، 168-169.

2 - هو محمد بن حسن بن علي بن عثمان النواجي الشافعي، منسوب إلى نواج من غربيّة مصر، درس الفقه
والعربيّة، وحفظ القرآن الكريم مما أهله أن يكون مدرّساً، اتصل بحكام المماليك ومدحهم، له مؤلفات عديدة
ومتنوّعة في العروض واللغة والبلاغة والنحو، اعتنى أستاذه الفاضل حسن عبد الهادي بتحقيق ديوانه
كما حقق له المطالع الشمسيّة في المدائح النبويّة، وصحائف الحسنات في وصف الخال، وكتاب الشفاء في بديع
الاكتفاء، توفي النواجي سنة ثمانمائة وتسع وخمسين هجريّة. ينظر السخاوي، الضوء اللامع لأهل القرن التاسع،
231/7-232. حاجي خليفة، كشف الظنون، 2/ 1052. و البغدادي، إيضاح المكنون، 2/497. والبغدادي، هدية
العارفين، 200/2-201.

وبما أنّ النواجي مولع بالبلاغة العربيّة وبنفونها، فلا ضير أن تظهر تلك الفنون في قصائده النبويّة، خاصة أنه كان يعنى بالمحسنات البديعيّة، مثل التوجيه والتورية، ومراعاة النظر، وطباق ومقابلة، إلى غير ذلك من فنون⁽¹⁾.

ويطلب النواجي ممن يذهب في رحلة إلى الحجاز أن يحمل شوقه وحينه لذلك الحبيب، فللرسول منه تحية، ويظهر الشاعر تفننه في التغزل بالديار الحجازيّة، وجعله في هذه القصيدة عوضاً عن التغزل بالمحبوبة، يقول: (الخفيف)

عللوه بـ طيبة وبرامة وعـ ريب النقا وحيّ تهامه
واحملوا منـه للحبيب سلاما فعلى الحـبّ ما ألدّ سلامه
يا رعى الله جيـرة خيموا بالـ منحى من ضلوعه المستهامه
وبوادي غضا الجـ وانح شـبوا جمر نار القـرى وأذكوا ضرامه
ليت شعـري - وهم بقلبي نزول - كيف خانوا عهوده وزمامه
هم حمـوا بالحمى عقيلة خدر فتنت بالـ لحاظ غزلان رامه⁽²⁾

وعن فضل الرسول، حيث يبيّن مكانته السامية التي يزهو بها على بقية البشر، فهو من أتى بالدين الواضح، وأزال ظلم الجهل اللافح، وبدّد جهل الأمة الجانح، وبذلك هو نعم النبيّ الناصح، طهر القلوب من دنس، وأبعد عنها كلّ رجس، يقول في قصيدته التي ألقاها سنة أربع وثلاثين وثمانمئة: [البسيط]

محمد أحمد المختار أشرف من دعـ إلى طاعة الرحمن داعيه
ومن هـدانا إلى الإسـلام متبعا رضى الإلـه بتنزيل وتنزيه
ومن أانا بدين واضح فجلا غياهب الشرك وانجـابت دياجيه
خير النبيين لا شـيء يشابهه من الأنـام ولا ضـدّ يضاويه
رسول صدق بـراه الله غيث ندى فمرسل الرّيسـح جودا لا يباريه
وكان أجود مخلـوق وأجود ما يـكون في رمضـان بات يحييه
كم شدّ مئزره فيه وقـام على الـ أقـدام في خدمة المولى يناجيه

¹ - ينظر شمس الدين النواجي، المطالع الشمسية في المدائح نبويّة، 62-63.
² - حسن عبد الهادي، دراسة شعر شمس الدين النواجي مع تحقيق ديوانه، 16-15/2.

بيت عند إله العرش يطعمه مــــا لــــديه بلا كيف ويسقيه
بحر رأينا الوفا مــــن راحتيه فما أصابع النيل إن جادت أياديهِ (1)

وفي معرض حديثه عن معجزات النبيِّ الباهرات، يبيّن أنها جاءت ردّاً على قريش
وغيرها ممن كفر وأجحف بالنبيِّ كفراً وتكديباً، ثمّ يذكر بعض المعجزات الظاهرات مثل:
انشقاق البدر، والإسراء والمعراج، ووجود النبيِّ واختياره كان المعجزة الكبرى، يقول:
[الكامل]

سألت قريش أن يريهم آية كبرى فأظهرهم مــــا لهم في الحين
وأشار للبدر المنير فشقق في كبد السّماء وعــــاد كالعرجون
أسرى بــــه الرّوح الأمين لربّه بمقــــام صدق لا ينال مكين
وحباه رؤيته تعالــــى جلّ عن كيف وعن جهــــة وعن تعيين
وعليه قد فرض الإلــــه صلته خمــــس تحوز فضيلة الخمسين
من مثله والله أقــــم باسمه طــــه وأنزل مدحه في نون
ولكم له مــــن آية تتلى على صفحــــات أيام ومرّ سنين (2)

والنواجي من الشعراء الذين عبّروا عن واقع معيشتهم، فقد تعرّض في مدائحه النبويّة
لما أصاب أبناء بلده من طاعون وعدم وفاء النيل، إذ سجّل شكره لله، وصور فرحة
الناس، وأظهر مقدار بهجتهم عندما أفاض النيل ومنح الناس الخصب والنماء³، فهو يلجأ
إلى جناب الرسول أملاً في الشفاعة وطلب الرحمة، يقول في قصيدته التي ألقاها في
الحضرة النبويّة الشريفة، سنة إحدى وأربعين وثمانمائة هجرية: [البسيط]

هــــذا العقيق وهذا البان والعذب وهــــذه الحلة الفيحاء والكثب
فخلّ طرفــــك يقضي في منازلها دين اللقــــم ويؤدّي بعض ما يجب
يا للهنا نلنــــمنا المنى ونأى عنــــمنا العناء وزال الهمّ والتعب
هي المنازل إن شطــــت وان بعدت فلي بطيــــب شذا نعمانها طرب

¹ - المصدر السابق، 41/2.

² - نفسه، 95/2.

³ - حسن عبد الهادي، دراسة شعر شمس الدين النواجي، مع تحقيق ديوانه، 1/ 173.

وما نأت عــــن محببها ولا خفيت لكــــها بسنا الإجلال تحتجب(1)

وعندما غلت الأسعار، وحدث القحط بمصر، فإنه يتوجّه إلى ربّ العلاء يشكو متضرعا،
ويسأله الرّخاء بعدما حدثت الشدّة، والحنان تلو الحنان يا غياث الوري، فالخلق جميعا
أصبح مبتلى، يقول في لامبته: [الطويل]

لربّ العلاء نشكو أذى القحط والغلا
ونسأله في البأس واليأس والرّجا
غلا أرخص الأرواح لما تسّرت
ودارت رحاء الجذب في كلّ بلدة
فلا يرّجى منه يرّبره
ولا عيــــن أرض قد بكت فتفجّرت
ومــــا مسّنا فيه من الضّرّ والبلا
رخاء فقــــد متنا وعاجلنا البلى
بمــــور ضرام في صميم الحشا غلا
وما تركت للخصب في مصر منزلا
ولا بحر ريّ طاب عذبا وسلسلا
علينا ولا دمــــع من الغيث أهمل(2)

ويأتي هذا ضمن حسّ الشاعر الوطني بما آلت إليه أوضاع الأمة، ومن هنا يأتي دور
الشاعر الأساس، وهو عمق الشعور الوطني، والحرص عليه، وقد جاء هذا الشعور ممزوجا
بالشعور الديني، وعاطفة دينية فيّاضة .

و في بيان فضل الصحابة والأعوان والمناصرين يذكر النواجي أنهم السبب في نصر
الدين وجهاد الأعداء، وقد انتدبهم الله لقطع دابر القوم الظالمين، فقد استخدم
النواجي التوجيه بأسماء سور القرآن الكريم ويلاحظ مقدار التوفيق الذي صاحبه في
هذا الفنّ البلاغي، يقول: (البسيط)

وأيد الله في الدينــــا شريعته بســــادة من حماة الدين أبطال
باعوا النفوس ودينــــاهم فإن قتلوا لا يأســــفون على روح ولا مال
هم جاهدوا في سبيل الله وانتدبوا لقطــــع دابر قوم فيه ضلال
بالنصر والفتــــح ربّ الملك أيده وفي القتــــال حباه خير أنفال

1 - المصدر السابق، 2/ 68. وينظر شمس الدين النواجي، المطالع الشمسية في المدائح النبوية، 134.
2 - حسن عبد الهادي، دراسة شعر شمس الدين النواجي مع تحقيق ديوانه، 117/2. وينظر شمس الدين
النواجي، المطالع الشمسية في المدائح النبوية، 182.

فبالحديد سببى أحزابهم زمرا وزلزل الأرض منهم أي زلزال⁽¹⁾

أما بالنسبة لمدى تأثيره بمن سبقه من الشعراء، فهو يظهر إعجابه بكعب وبلاديته، ويظهر قدرا من التواضع أمام لاميته، يقول: [البسيط]

ولم أعارض بقولي من تقدمني منــــــــــــــــهم وإن عذبت مني الأقاويل
كعب له في مديح المصطفى قدم سباقــــــــــــــــة وبخير الخلق تفضيل
وروضة ابن زهير طــــــــــــــــاب مغرسها فزهــــــــــــــــرها بندى كفيه مطلول
وإن نسجت على منــــــــــــــــوال بردته طراز مــــــــــــــــدح له بالدرّ تكليل
فإنه كان مفتاحا لبــــــــــــــــاب هدى لنا به في ديار الخلد تأهيل
إن لم أفر بقبــــــــــــــــول في متابعتي (بانست سعاد قلبي اليوم متبول)⁽²⁾

وفي قصائد كثيرة يبدو تأثر الشاعر بابن الفارض واضحا وكبيرا، ففي باب المعارضة، نرى أن ابن الفارض يقول: [البسيط]

مــــــــــــــــا بين معترك الأحداق والمهج أنا القليل بلا إثم ولا حرج⁽³⁾

يقف النواجي معارضا ابن الفارض فهو يقول: [البسيط]

حي المنــــــــــــــــازل ذات الشّيح والأرج وانشد فؤاد مشوق للديار شجي⁽⁴⁾

ويبقى النواجي من الشعراء الذين نظموا غرر المدائح النبوية، بقطع النظر عن مقدار تأثيره بمن سبقه أو لا، وإنما اختار لمدائحه منهج السهولة والبعد عن التعقيد، مما جعل من تلك المدائح قريبة إلى الذهن، موافقة لفنّ المديح النبوي بشكله العام الذي اختطّ من السهولة والوضوح سبيلا للوصول إلى الغاية والمأرب المقصود.

¹ - حسن عبد الهادي، دراسة شعر شمس الدين النواجي مع تحقيق ديوانه، 134/2. وينظر شمس الدين النواجي، المطالع الشمسية في المدائح النبوية، 199.

² - حسن عبد الهادي، دراسة شعر شمس الدين النواجي مع تحقيق ديوانه، 25/2. وينظر شمس الدين النواجي، المطالع الشمسية في المدائح النبوية، 89.

³ - حسن البوريني وعبد الغني النابلسي، شرح ديوان ابن الفارض، 58/2.

⁴ - شمس الدين النواجي، المطالع الشمسية في المدائح النبوية، 122.

عائشة الباعونية⁽¹⁾ :

بشوق المدنف ووصف الطبيب، تتألق الباعونية في مديحها لسيد البرية، وبحرقه في الهوى لا ري لها إلا بالوصل مع الحبيب، فبعد أن تمادى الهوى واستفحل الداء جاء الدواء، وكان بالمدينة اللقاء، تقول: [الرمل]

قال لي الآسي وقد شفّ الضنى وتمــــادى الداء من فرط الهوى
لا شفا إلا بتريــــاق اللقا أو برشف الشهد من ذاك اللمي
آه وا حــــرّ غليــــلي في الهوى وبغير الوصل ما لي قطّ ري
يا تــــرى هل تسعفوني بالمنى قبل موتــــي وأرى ذاك المحي
مــــا قلوني لا ولكن قد شووا بالجفا والصّدّ قلبي أيّ شي⁽²⁾

و بكلمات محمومة، تدلّ على شوق يخالطه التوجع والحزن، تظهر الشاعرة تفجعاً فكأننا أمام عاشق متيمّ ينتظر بشغف لقاء الحبيب، وهذا لا يصدر إلا ممن شفه الوجد .

وبلغ من عائشة الشوق إلى الديار الحجازية مبلغاً عظيماً لا يدانى ولا يجارى، ولأنها مشغوفة بتلك الديار أصبحت علامة مسجلة، ومشهورة كالعلم، وبقلب مخلوط بنار الحرقه ولوعة الشوق، إذ نار اللوعة متأججة ولا يشفيها إلا الوصول للحجاز، ونيل الوطر، بمشاهدة الساكنين، وإلقاء التحيّة عليهم، تقول في بديعيتها: [البسيط]

في حسن مطــــلع أقماري بذي سلم أصبحــــت في زمرة العشاق كالعلم
أقــــول والدمع جار جارح مقلي والجار جار بعذل فيه متهم
يا سعــــد إن أبصرت عينك كاظمة وجئــــت سلعا فسل عن أهلها القدم
أحــــبــــة لم يزالوا منتهى ألمي وإن هــــم بالتنائي أوجبوا ندمي

¹ - هي عائشة بنت يوسف الباعونية، نسبة إلى باعون إحدى قرى عجلون الأردنية، ولدت في دمشق، حفظت القرآن الكريم وهي في سن مبكرة، تلقت العلوم الصوفية على شيوخ عصرها، انتقلت إلى القاهرة، حيث أجزت بالإفتاء والتدريس، لها مؤلفات عديدة منها: الفتح الحقي من منح التلقي، الملامح الشريفة والآثار المنيفة، القول البديع في الصلاة على الحبيب الشفيق، توفيت سنة تسعمائة واثنين وعشرين هجرية. ينظر حاجي خليفة، كشف الظنون، 1234/2. والزركلي، الأعلام، 241/3. و دائرة المعارف الإسلامية، 438/15. وعمر فروخ، تاريخ الأدب العربي، 930-926/3. و عمر رضا كحالة، أعلام النساء، 197-196/3.
² - يوسف النبهاني، المجموعة النبهاية في المدائح النبوية، 263-262/4.

كيف السَّلْو ونــــــــــــــــار الحبّ موقدة وسط الحشا وعيون الدّمع كالديم⁽¹⁾

وهي مدحة سامية بمدح الحبيب، ومجلية لوجوه البديع، تلمست فيها منشئتها غايتين وقضت بها وطرين، وبرعت فيها، وهما مدح الحبيب محمد لتنال ما تصبو إليه بطلب الشفاعة والضّراعة، وذكر أفانين البديع المختلفة التي أوردتها في القصيدة، خدمة للغة القرآن الكريم.

وتظهر الشاعرة قدرة فائقة في وصف محاسن الرّسول، فالألسنة تقف عاجزة، والشاعرة مجنونة بذاك الحسن، فقد وصفت وجنته، وقوامه، وجبينه، وثغره، وأنفاسه، كل ذلك ائتلف على شكل لوحة فنيّة غزليّة متسقة الجوانب، أبدعت فيه فنانة وضاهت به أعظم شعراء المديح النبوي، تقول من القصيدة نفسها: [الرّمّل]

وحبيبي قمــــــــــــــــر متسق في سنــــــــــــــــاه الشمس أضحت كالهبيبي⁽²⁾
 ذو قوام قام عــــــــــــــــذري في الهوى مــــــــــــــــذ تــــــــــــــــبدى من ثنّيات اللوي
 وجبين هلّ سعــــــــــــــــدي مذ بدا متــــــــــــــــسام عــــــــــــــــن هلال بسمي
 ولمــــــــــــــــاء الحسن فــــــــــــــــي وجنته رونــــــــــــــــق يربــــــــــــــــو على ورد الرّبي
 كــــــــــــــــل درّ وعقيق دون ما حــــــــــــــــاز ذاك الثغر من وصف وزبي
 واللمى أفديــــــــــــــــه عن معسوله قصــــــــــــــــر الشهد ولم يأت بشي
 وعبــــــــــــــــر المسك مــــــــــــــــن أنفاسه لم يــــــــــــــــزل يروى ولم يحك الثري
 ولعمري كــــــــــــــــل حسن في الوري قاصر عــــــــــــــــن حــــــــــــــــســــــــــــــــن جدّ الحسني
 أحمد الهــــــــــــــــادي إلى دين الهدى بيــــــــــــــــان محكم من عند حي⁽³⁾

وتلجأ الشاعرة إلى جناب الرّسول لتأمن الخوف، وتنجو من الذنب، فالرسول غيث، ومسحته كافية لمحو المحن والهموم، ففي قصيدتها التي أتت على منوال ميميّة ابن

¹ - ابن حجّة الحموي، حاشية خزّانة الأدب وغاية الأرب، نسخة دار القاموس الحديث، 311-317. وينظر يوسف النبهاني، المجموعة النبهانية في المدائح النبوية، 262/4.

² - الهبا: ما يرى في شعاع الشمس. الفيروزآبادي، القاموس المحيط، 236/1. (هيب)

³ - يوسف النبهاني، المجموعة النبهانية في المدائح النبوية، 264/4.

الفارض، نجد أن الشاعرة تتفق معه في كونها اتخذت الصوفية نهجا وطريقا، تقول في ميميتها: (البسيط)

كـم أعـقبت راحة باللمس راحته وكم محـا محـنة ريق له بغم
وذكره كـم لولا سـنة سـبقت إذا تكـرر يحيي بالي الرمم
قالوا هو الغيث قلت الغيث آونة يهـمي وغيث نداه لا يزال همي
جرّدت حجّي له من كل مفسدة ولم تزل بالصفا تسعى له قدمي
طه الذي إن أخـف ذنبي ولدت به أمنت خـوفي ونجاني من النقم⁽¹⁾

انظر إلى جمال التورية في قولها (ولم تزل بالصفا تسعى له قدمي)، في كلمة الصفا هي منسك مناسك الحجّ، وتعني سلامة النية والنقاء، فحجّها خالص لله ، ولا تفسده مفسد الدنيا مهما كان نوعها ، وهذا دليل على النية الخالصة لله دون سواه.

على ما أوردناه من أبيات نبوية في قصائد مديح النبي محمد فيبدو أن الشاعرة كانت متأثرة بشكل لافت بابن الفارض، لهذا ذهب عمر فروخ إلى القول: " كانت عائشة الباعونية عالمة وأديبة بارعة وشاعرة مجيدة، وكان أكثر شعرها بديعيات تنكئ فيها على ابن الفارض من حيث المعنى والبوصيري من حيث اللفظ والمعنى " (2).

عبد الغني النابلسي⁽³⁾:

تظهر النزعة الصوفية جلية في مدح عبد الغني النابلسي، ولكنه لم يأت بجديد على صعيد مفردات المدحة النبوية، وإنما نجد أنه ظلّ يترسم خطى الشعراء السابقين في

¹ - المصدر السابق ، 4 / 265.

² عمر فروخ ، تاريخ الأدب العربي ، 3 / 927.

³ - هو عبد الغني بن إسماعيل النابلسي، من مواليد دمشق، أكبّ على طلب العلم وقرأ القرآن، درس على أيدي شيوخ عصره، تصدر مجالس الوعظ والإرشاد بالجامع الأموي، برع في التصوف والأدب والرحلات، له مؤلفات عديدة منها: تعطير الأنام في تعبير المنام، كشف السرّ الغامض شرح ديوان ابن الفارض، نفحات الأزهار على نسيمات الأسحار في مدح النبي المختار ، توفي سنة ألف ومائة وثلاث وأربعين هجرية. ينظر البغدادي، إيضاح المكنون، 2/ 553. عمر رضا كحالة، معجم المؤلفين، 5/ 271. الزركلي، الأعلام، 4/ 32-33. و شوقي ضيف، عصر الدول والإمارات - الشام، 288-290.

إيراد مفردات المديح النبويّ الشائعة، ففي مطالع قصائده تتجلى المقدّمة الشوقية للديار الحجازية، وينتقل الشاعر إلى الثناء على الرّسول، ويقوم بتمجيده وتعظيمه، ويثني على فضله، والشاعر ممن نظم قصيدة نبوية يعارض فيها قصيدة كعب بن زهير، وقد جاءت على الوزن والقافية، يقول: [البسيط]

وفيك مرتبة مــــن بعد مرتبة تسمو ويسعد جيل بعده جيل
يا طيب مولد من طاب طاب الوجود به وكان ذلك في عام به الفيل
جاءت به ابنة وهب والكمال غدا وشاحه وعليه العزّ اكليل
حتى أضاعت نواحي المشرقين به كأنما شعلت فيه قنديل
وقمام يدعو لدين الله أمته حتى لهم بان تحريم وتحليل
وقد تنكست الأصنام وانخذلت عبّادها وانمحوت تلك التماثيل
ويوم بدر رمى الأعداء فانهزموا بمثل رممت الطير الأبايل
بالمؤمنين هو البرّ الرحيم له عراقية في معاليه وتأصيل
صلاة ربّ عليه دائما أبدا مع السّلام الذي لي فيه تطويل⁽¹⁾

وجريا على عادة شعراء المديح النبوي في ذكر المعجزات التي برزت بظهور محمد صلى الله عليه وسلّم، وكانت مؤيدة له في صدق دعواه، وهي كذلك دليل على تميّزه، فقد أدلى عبد الغني النابلسي بدلوه وأخذ يعدّد بعضا من تلك المعجزات، يقول في ميميّته: (الطويل)

وأعطاه ما لم يعطه أحد ومن مناجاته كأس له ونديم
بشاة وصاع من شعير كفى لدى المجا عنة ألفا والعجين مقيم
وقد ردّ عيننا بعدما قلعت على قتادة حتى راح وهو سليم
وأصغت إليه الجنّ تحفظ ما تلا وفي قومه دين الإله تقيم
وكان على الصّخر الأصمّ إذا مشى تغوص به أقدامه وتقوم
وقد عرفته المؤمنون وقد بدا على قدرهم والله فيه عليهم⁽²⁾

¹ - يوسف النبهاني، المجموعة النبهانية في المدائح النبوية، 3/125.
² - نفسه، 4/121.

وتراوح ذكر المعجزات عند الشاعر في بيتين، أو ثلاثة، وجاءت في ثنايا ذكر الشاعر وحديثه عن فضائل النبي، وفي معرض حديثه عن الصفات الحسيّة، فإنه يطلق مجموعة كبيرة منها، فالرسول أكحل، وجميل المحيّا، وأزهر اللون، وأسنانه ناصعة بيضاء، وضخم الكفين، وفي عينيه سواد، وخذاه تقطران حسنا وجمالا، يقول: [الخفيف]
 البشير النذير خيّر البرايا موسّع العالمين أمنا ويمنا
 دائم البشر أدعج شثن الكف فين سهل الخدين يقطر حسنا
 أكحل أبلج جميل المحيّا أزهر اللون أشنب الثغر
 أقنى⁽¹⁾

ومع تغنيه بتلك الصفات إلا أنه كان مؤدبا ومحتشما مع جناب النبي، وإطلاق تلك الصفات غاب عند شعراء المديح النبوي في القرنين الثامن والتاسع الهجريين، وها هو يعود من جديد عند الشاعر عبد الغني النابلسي، مع أنه جرى على أنه عادة عند الشعراء الذين عاصروا الرسول، وظهرت بجلاء ووضوح وتغنى بها شعراء العصرين الزنكي والأيوبي.

ويجعل النابلسي من الرسول سببا في تفريج الكرب التي تلم بالمسلمين، وهو سبب في إزالة الهمم والتعب، لهذا نراه يلجأ إليه عليه يكشف عن الكربة التي ألمت به، وبنزعة ملؤها المسكنة يلوذ الشاعر إلى جناب الرسول متضرعا قائلا: [البسيط]

يا سيّد الأنبياء والرّسل أجمعهم يا مــــن به زال عنا الهمم والتعب
 يدعوك مسكينك العبد الذي بطشت أيدي العبياد به والقلب مكتئب
 فاكشف له كــــرّبة أودت بمهجته يا خير مــــن كشفت عنا به الكرب
 وما دعوناك في تفــــريج شدتنا إلا لأنــــك في تفريجها سبب
 وأنت باب العطا والجود يا أملي بك الإله على طول المدى يهب
 صلى عليك الذي أهــــداك تكرمة للخلق تقضي بك الأيام ما يجب⁽²⁾

¹ - المصدر السابق، 4/ 193-194. وأقنى: في قصة أنفه احديداً قليل.
² - نفسه، 1/ 392-393.

وفي بديعته التي بلغت مائة وخمسين بيتا واشتملت على مائة وخمسة وخمسين نوعا من الأنواع البديعية، وأطلق عليها (نفحات الأزهار على نسَمات الأسحار في مدح النبي المختار) وجاءت على طريقة الأقدمين ، بعدما حرّكته الأفكار، وجاذبته الخواطر اقتحم المضمار وأنشأ بفضل قريحته نسَمات الأسحار، وأتبعها بشرح مستوف لوجوه الغرابة الواردة فيها⁽¹⁾.

وتلك البديعية من البحر البسيط، وهي معارضة لقصيدة ابن الفارض الميمية، فتجلى في مطلعها الشوق للديار، وبذلك وافقت الذوق في براعة الاستهلال أو المطلع عند البلاغيين، يقول الشاعر:

يا منزل الركب بين البان فالعلم من سفح كاظمة حيت بالديم
هـذا مديحي فإن نلت القبول به سعدت أولا فحسبي موقف التهم⁽²⁾

وله بديعية أخرى، أسماها (مليح البديع في مدح الشفيح)، ولم يزد عن سابقتها من فنون البديع شيئا، يقول فيها:

يا حسن مطلع من أهوى بذى سلم براعة الشوق في استهلالها ألمي⁽³⁾

وللنابلسي مخمّسات نبوية يظهر فيها مدى حبه وتعلقه بحبيبه، فهو صبّ لفرط وجده يظهر صابته، ويشارك أهل اللوعة والصبابة في ذلك ، ولكنه يتعلق بالنبي ، فهو من سلب لبه، وهو طبيبه ، يقول:

حبيبي إنني مسلوب لبّ ودائي منك موعود بطبّ
وقد أصبحت من وجد وحبّ أشـارك في الصّابة كلّ صبّ
إذا ما الليل جـنّ عليه جُنّا

¹ - ينظر عبد الغني النابلسي، نفحات الأزهار على نسَمات الأسحار في مدح النبي المختار، 3-4.

² - نفسه ، 4.

³ - علي أبو زيد ، البديعيات في الأدب العربي، 128.

ويبقى القول إنّ النابلسي من الشعراء المتيّمين بالنبيّ ومدحه ، وإن لم يصف جديداً ، فالمعاني التي أوردتها في مدائحه طرقت من قبل ، والمفردات التي حوتها مدائحه حوتها قصائد السابقين ، ولا يخفى علينا نفس النابلسي في معارضاته خاصّة في بدعيّته .

البارودي(1):

عدّ البارودي من الشعراء الذين بثوا دماء جديدة في الأدب العربي الحديث، نظراً للنفس الشعري الذي تميّز به، ومنهم من نظر إلى البارودي على أنه حلقة الرّبط بين الماضي وما حمل في ثناياه على نطاق العربيّة وفنونها ، وبين الحاضر الذي تعرّضت فيه الأُمّة العربيّة والإسلاميّة إلى صنوف من الغزو، العسكريّ منه والفكري الذي رمى من ورائه بنو الأصفر إلى طعن الأُمّة في لغتها وحضارتها، وتوجيه سهاهم إلى اللغة العربيّة التي هي أمّ البيان، فانبرى العلماء والمدافعون لصدّ مثل تلك الهجمات، وقام الشعراء بدورهم على الوجه الأفضل، فكان البارودي، وشوقي، والجواهري، وغيرهم من أبناء الأُمّة الغيورين عليها، والحريصين على ديمومتها واستمراريتها، إذ ساروا بخطى واثقة نحو التهام الماضي، وبثّ روح التجديد في العصر الحديث على نطاق الشعر، في مضامينه، وجوانبه الشكلية.

وعلى هذا النحو مضى البارودي، فقد كان نعم الممهّد لتطوّر الشعر العربيّ الحديث، فبعد أن اطلع على تراثنا القديم الذي استهواه كثيراً، دأب عاكفا على نظم الشعر الذي يدلّ على براعة ومقدرة تحسب لصاحبها، وتصل به إلى مصاف شعراء العصر الحديث.

¹ - هو محمود سامي بن حسن حسني عبد الله البارودي المصري، جركسي الأصل، أحد القادة الشجعان، نسب إلى إيتاي البارود بمصر، رحل إلى الأستانة فأتقن الفارسيّة والتركيّة، شهد حروباً عديدة، شغل مناصب عديدة انتهت إلى رئاسة النظار، نفي إلى جزيرة سيلان بعد مساندته لثورة أحمد عرابي، عاد إلى مصر بعد أن كفّ بصره، له ديوان شعر كبير، توفي سنة ألف وتسعمائة وأربع ميلاديّة. ينظر الزركلي، الأعلام، 171/7. وشوقي ضيف، البارودي رائد الشعر الحديث، 46 - 52 .

والبارودي ممن نظم في المديح النبوي، نظراً لتديته لا سيما في سنواته الأخيرة من عمره، فقد استفاد من الشعراء القدامى في أبهى عصور الشعر العربي، فعمل على معارضتهم . وديوانه يعجّ بالمعارضات لأشهر الشعراء في الحقب المختلفة ابتداء من العصر الجاهلي، مروراً بالإسلامي والأموي وصولاً إلى العصرين العباسي الأول والثاني، وانتهاءً بالبوصيري . على نطاق القصائد النبوية التي عدّت في ميدان السبق على هذا الصّعيد، فقد عارض قصيدة البوصيري، الذي بدوره عارض ابن الفارض في ميميته الشهيرة.

ويفتح البارودي مدحته النبوية بذكر المواضع والتغني بها جرياً على عادة الشعراء الذين سبق وتغنوا بها في العصور السالفة، فالشاعر يقرئها السّلام والتحية، ويزجيه مع البرق والريح، ثمّ ينصرف للحديث عن النسيب، وذلك تقليد متبع، مع أنّ الشاعر يعترف بأنّ النسيب جاء تقليداً فقد، ولا يقصد لذاته، فهو يفتح قصيدته قائلاً: (البسيط)

يا راءئـــــد البرق يممّ دائرة العلم واحدُ الغمامِ إلى حيِّ بذي سلم

وقد تتبّع الشاعر حياة النبيّ محمد صلى الله عليه وسلّم منذ مولده، وذكر بشائر ميلاده، وفي ذلك جاء مجارياً للنمط الذي اتخذه الصرصري في مدائحه النبوية، فهو يتحدث عن بشائر الميلاد والنبوة، ويذكر قصّة شرح الصّدْر عندما كان الرسول يرضع الأغنام عند أخواله من بني سعد، فجاءه جبريل وطرحه أرضاً، ثمّ أخرج من صدره العلقة السوداء، وفي ذلك تطهير لقلب الرّسول من الأحقاد والأهواء، يقول:

فبينما هـــــو يرعى البهيم طاف به شخصان مـــــن ملكوت الله ذي العظم
فأضجعه وشقا صـــــدره بيد رقيقة لـــــم يبت منها على ألم
وبعدهمـــــا قضا من قلبه وطرا توليا غسله بالســــلسل الشبم
مـــــا عالجا قلبه إلا لخلص من شـــــوب الهوى ويعي قدسيّة الحكيم(1)

¹ - محمود سامي البارودي، كشف الغمّة في مدح سيّد الأمة، 4847.

أما على صعيد حديثه عن المعجزات التي هي من المفردات المهمة في المدائح النبوية في جميع العصور، فالبارودي تناولها كما تناولها السابقون، فقد ذكر بحيرا الراهب ونبوءته حول الرسول ورسالته، وتحدث عن الغمامة التي لازمته في أسفاره، وذكر أيضا أغصان الأشجار التي ما فتئت يوما تحنو عليه بظلالها الوارفة، يقول:

وقال عنه بحيرا حين أبصره بأرض بصرى غير متهم
إذ ظلته الغمام الغرّ وانحصرت عطا عليه فروع الضال والسلم⁽¹⁾

ويتعرض بالحديث عن المعجزة الكبرى، ثم ينتقل بالحديث عن الهجرة المحمدية من مكة إلى المدينة، ويعرج إلى الغار والحمام، وكيف حماه الله ولم يهتد إليه كفار قريش، ثم ينتقل للحديث عن بناء دولة العز والريادة التي غدت العاصمة الأولى في تاريخ المسلمين، ومنها انطلقت الفتوح إلى أرجاء المعمورة، ولا يفوت البارودي الحديث عن غزوات النبي، ولا يغفل الشاعر ترتيب الأحداث ترتيبا تاريخيا، كما أجاد في وصف النبي بصفات القائد المحنك في ميدان الوغى، ويبرز في ذلك شجاعته، ويبيّن صبره واحتسابه، وكما يبرز الشاعر الرسول على أنه بطل المقاومة، يقول:

فلم يزل صابرا في الحرب يفتوؤها بالبيض حتى اكتست ثوبا من العنم⁽²⁾
فهذه الغزوات الغرّ شاملة جمع البعوث كدرّ لاح في نظم
نظمتها راجيا نيل الشفاعة من خير البرايا ومولى العرب والعجم
إنني مستشفع بالمصطفى وكفى به شفيعا الأهوال والقحم
فاقبل رجائي فمالي من ألوذ به سواك في كل ما أخشاه من فقم⁽³⁾

ونراه يمتدح نفسه وشعره في البيتين الأخيرين، حيث قصد من ذلك المديح نيل الشفاعة لأن الرسول صلى الله عليه وسلم سيّد الفريقين من عرب ومن عجم، ويلج

¹ - المصدر السابق، 49.

² - العنم: شجرة حجازية لها ثمرة حمراء، يشبه البنان المخضوب، أو أطراف الخروب الشامي. الفيروز آبادي، القاموس المحيط، 1503/2 (عنم).

³ - محمود سامي البارودي، كشف الغمة في مدح سيّد الأمة، 55. فقم: لم يسر الأمر على استواء الفيروز آبادي، القاموس المحيط، 1508/2. (فقم).

البارودي على طلب الشفاعة ويمكن أن نعزو ذلك إلى الأوضاع غير المستقرّة للشاعر فهو منفيّ في سرنديب ، ففي النفي معاناة ومكابدة للمشاقّ ، ويظهر الشاعر وحدته، من هنا ينطلق ناشدا الأمن ولا يخفي الشوق إلى المدينة حيث قبر الرّسول، يقول:

في بلدة مثل جوف العير لست أرى	فيها سوى أمم تحنو على صنم
لا أستقرّ بهـا إلا على قلق	ولا ألتزم بها إلا على ألم
إلا تلفست حولي لم أجد أثرا	إلا خيالي ولم أسمع سوى كلمي
فمن يردّ على نفسي لبانتها	أو من يجير فؤادي من يد السقم
ليت القطا حين سارت غدوة حملت	عني رسائل أشواقني إلى إضم
كأنها أحرف برقية نبضت	بالسلك فانتشرت في السهل والعلم
لا شيء يسبقها إلا إذا اعتقلت	بنانتي في مديح المصطفى قلبي (1)

فالشاعر يحزن لما آلت إليه أوضاعه التي يتقلب فيها بحزن وشقاء، فهو لا يعرف أحدا في تلك البقعة التي نفي إليها، والقصيدة عبارة عن برقية - إذا جاز لنا إطلاق هذه التعبير - يحملها خالص شوقه ومودّته ولبانته، ولا يخفي ما يكنه لمصر من شوق مقرون بشوق للرسول محمد وحبّه له .

ونرى البارودي يعتذر عن ذلك النسب الذي ابتداء فيه مدحته، ويبين أنّ السبب وراء بدئه بالنسب التزام التقليد المتبع والمتوارث عند الشعراء، حتى لا يحمل على إساءة الأدب مع الرّسول، يقول:

صدّرتها بنسب شفّ باطنه عن عفة لم يشنها قول متهم
لم أتخذها جزافا بل سلكت به في القول مسلك أقوام ذوي قدم (2)

1 - محمود سامي البارودي، كشف الغمّة في مدح سيّد الأُمّة ، 45.

2 - نفسهُ ، 80.

ويقول محمود مكي حول هذا التبرير الذي أتى به البارودي: " وهذا تحرّج قضى به تزوّمت مجتمعنا الحديث؛ فكعب بن زهير وحسان بن ثابت قدّما لمديحهما بغزل لم يحتاجا معه إلى مثل هذا الاعتذار "(1).

ويمكن القول بأنّ البارودي قد سائر الشعراء السابقين في مدائحهم النبويّة، حيث التزم الأدب في نسيبه، وإن حاول أن يبرر بدايته به، وفي قصيدته حاول أن يضمّ في ثناياها أحداثا كثيرة هدف من ورائها إلى الاستقصاء، جريا على عادة بعض الشعراء الذين ساروا في هذا المنحى، وإضافة إلى ما سبق فإنّ الألفاظ التي انتقاها البارودي كانت منسجمة مع طبيعة الموقف الذي اختاره، وابتعد بذلك عن التكلف، ولم يعمد إلى التميميق والزخرفة اللفظيّة، وحمل البارودي في قصيدته عاطفة جامحة تنمّ عن وعي دينيّ وعاطفة قويّة.

أحمد شوقي(2):

نظم أحمد شوقي عدّة قصائد يمتدح فيها النبيّ محمدا، وقد هدف شوقي من وراء مديحه للرسول، تذكير المسلمين بقائه الأوّل محمد - صلى الله عليه وسلم - وفيه دعوة إلى التمسك بالدين الذي جاء به خير البريّة، وكذلك يذكرهم بضرورة الوحدة، ونبذ الفرقة، وواجبهم المقدّس، وهو الجهاد ومغالبة النفس ونبذ التواكل.

إذا كان الهدف واضحا، فالنهوض من السبات، والوقوف بشكل قويّ أمام تلك الأطماع الغريبيّة، وهذا يبيّن مدى الحرص الذي قصده شوقي وأراد أن يؤصله في مدائحه النبويّة، أضف إلى ما سبق أن العصر الذي وجد فيه شوقي، يشبه إلى حدّ ما العصر الذي

¹ - أدبيّات المدائح النبويّة، 143.

² - هو أحمد شوقي بن أحمد شوقي، أمير الشعراء، ولد في كرمة بني هاني في القاهرة، شاعر البلاط في عهد الخديوي، درس في باريس، تدرّج في تلقّد المناصب حتى أصبح رئيسا للقلم في عهد عبّاس الثاني، وبعد سقوط حكومة الخديوي، نفي إلى برشلونة في إسبانيا، عاد إلى مصر بعد نهاية الحرب العالميّة الأولى، له مؤلفات عديدة منها: مصرع كليوبترا، ومجنون ليلى، قمبيز، علي بك الكبير، وغيرها، توفي سنة ألف وتسعمائة واثنين وثلاثين ميلاديّة. ينظر الزركلي، الأعلام، 136/1-137. و ميشال خليل جحا، الشعر العربي الحديث، 41-59. و أحمد شوقي، صفوة المؤلفات الكاملة - الشوقيّات - المقدّمة، 35-74.

تعرّضت فيه المنطقة إلى الهجمات الصليبية المتكررة ، على يد بني الأصفر، ومحاولاتهم
العديدة لتطويع البلاد والعباد.

وقد أشار الباحث ماهر حسن فهمي في معرض تعليقه على معارضة شوقي للبوصيري
قائلاً: " وعصر الحروب الصليبية هذا شبيه بعصر شوقي من حيث الصّراع الدائر بين
الغرب والشرق ولذلك نجد في شعر شوقي ما نجده عند شعراء هذا العصر من فرح
لانتصار المسلمين، والاستعانة بالرّسول ليأخذ بيد أمته"⁽¹⁾.

وأشهر قصائد شوقي النبوية شهرة، تلك القصيدة المسماة بنهج البردة، وهي معارضة
للبوصيري، وتبلغ مائة وتسعين بيتاً شعرياً، ويبدوها شوقي بمقدمة غزلية، بدا فيها شوقي
مقلداً للشعراء السابقين، إذ بلغت المقدمة أربعة وعشرين بيتاً، يقول: (البسيط)

ريم على القاع بين البان والعلم أحـلّ سفك دمي في الأشهر الحرم
رمى القضاء بعيني جوذر أسدا يا ساكن القاع أدرك ساكن الأجم⁽²⁾
يا لائمي في هـواه والهوى قدر لو شـفـك الوجد لم تعذل ولم تلم
يا ناعس الطّرف لا ذقت الهوى أبدا أسهـرت مضناك في حفظ الهوى فم
الحاملات لواء الحسـن مختلفا أشكـاله وهـو فرد غير منقسم⁽³⁾

ويظهر في البيت الثالث بأنّ الشاعر قد تأثر ببيت ابن الفارض، والبوصيري في البيت
الذي سبقناه سابقاً في معرض تأثر البوصيري بابن الفارض ، فالشاعر استلهم الماضي
وأجاد فيه شوقي أيّما إجادة تدل على قدر كبير من الذوق الرفيع، وقد جعل شوقي من
الهوى شيئاً قدره الله، فلا يجدر بمن يلوم أن يلوم، فكلما أسرع إلى اللوم نالك
الوهن والسّقم .

¹ - شوقي شعره الإسلامي، 30.

² - جوذر : ولد البقرة الوحشية الفيروزآبادي، القاموس المحيط، 517/1 (جذر)، الأجم: جمع أجمة، وهي
الشجر الكثير الملتف، وهو مسكن الأسد الفيروزآبادي، القاموس المحيط، 1417/2. (أجم)

³ - أحمد شوقي، صفوة المؤلفات الكاملة. الشوقيات - 213-212/1.

وقد جعل شوقي بينه وبين محبوبته حجابا عذريا، في ختام نظمه للمقدمة الغزلية،
فالحجب تحول وتمنعه منها، فهذا ضرب من العفة الذي تميّزت به قبيلة عذرة، والشاعر لم
يصل إلى منزل المحبوبة إلا في النوم، نظرا لبعده المنزل، يقول:

بيني وبينك من سمر القنا حجب ومثلها عفة عذرية العصم
لم أغش مغناك إلا في غضون كرى مغناك أبعده للمشتاق من إرم (1)

وبحس الشاعر المرهف ينتقل الشاعر موجهها الحديث إلى نفسه، ويخاطبها متخذا
الوعظ طريقا، وسبيلا لينهاها عن التفريط، وأن تتخذ التقوى سبيلا، ولا تغترّ بالدنيا مهما
أبدت من حسن فهي متقلبة، والموت نهاية محتومة للناس، كما الزهر فنهايته كالفحم،
يقول:

يا نفس دنيك تخفي كل مبكية وإن بدا لك منها حسن مبتسم
كم نائم لا يراها وهي ساهرة لولا الأمانى والأحلام لم ينم
تارة تمدك في نعمى وعافية وتارة في قرار البؤس والوصم
يا ويلتاه لنفسي راعها ودّها مسودة الصّحف في مبيضة اللمم (2)
والنفس من خيرها في خيرا عافية والنفس من شرّها في مرتع وخم (3)

وعندما توجه بالمديح والثناء على الرسول، نراه يعقد موازنة بينه وبين زهير وممدوحه
هرم ابن سنان، فزهير عندما مدح هرم بن سنان كان طامعا في تحقيق المكاسب
والصّلات المادية، أمّا شوقي فكانت البغية من وراء مديحه للرسول رضاء له، واعتزازا به
يوم لا ينفع مال ولا بنون، يوم الموقف العظيم، يقول:

علقت من مدحه حبلا أعزّ به في يوم لا عزّ بالأنساب واللحم
يزرى قريضي زهيرا حين أمدحه ولا يقاس إلى جوذي ندى هرم
محمد صفوة الباري ورحمته وبغية الله من خلّق ومن نسّم (4)

1 - المصدر السابق، 214/1.

2 - دها: أي دهاها. اللمم: جمع لمة، وهي الشعر الذي جاوز شحمة الأذن. مسودة الصحف كناية عن العمل
السيئ. ومبيضة اللمم: الشيب. الفيروز أبدي، القاموس المحيط، 1525/2. (لمم)

3 - صفوة الأعمال الكاملة - الشوقيات - 214/1 - 215.

4 - نفس، 216-217.

ويخلص الشاعر إلى الثناء على صفات النبيّ، فهو أفصح من نطق بالضاد، والرسول أضفى على النثر والشعر معا حلاوة وزخرفة، وهو من أحيا القلوب الميتة، وبشرى ولادته سرت في الشرق والغرب، ومولده تخطف سطوة الطاغين والظالمين، والرسول هادم الأصنام، يقول ردّاً على الطاعنين من الكفار:

لقبتموه أمين القوم في صغر وما الأمين على قول بمتهم
 فاق البودور وفاق الأنبياء فكم بالخلق والخلق من حسن ومن عظم
 يا أفصح الناطقين الضاد قاطبة حديثك الشهد عند الذائق الفهم
 حليت ممن عطل جيد البيان به في كلّ منتشر في حسن منتظم
 بكلّ قول كريم أنت قائله تحيي القلوب وتحيي ميت الهمم
 سرت بشائر بالهادي ومولده في الشرق والغرب مسرى النور في الظلم
 تخطفت مهج الطاعنين ممن عرب وطيرت أنفس الباغين من عجم
 آتيت والناس فوضى لا تمرّ بهم إلا على صنم قد هام في صنم
 والأرض مملوءة جوراً مسخرة لكلّ طاغية في الخلق محتكم (1)

وتناول شوقي الحقيقة المحمدية التي آمن بها أهل الصوفية، كيف لا وحقيقته سمت على جميع الأكوان، وعمّ نور محمد البرايا جمعاء، وشمل نوره الأرض والسما، ولم يستطع شوقي أن يخفي النفحات الصوفية التي كانت متبعة عند أكابر شعراء الصوفية، يقول:

محمد صفوة الباري ورحمته وبغية الله من خلُق ومن نسَم
 وصاحب الحوض يوم الرّسل سائلة متى الورود وجبريتل الأمين ظمي
 سناؤه وسناه الشمس طالعة فالجرم في فلك والضوء في علم (2)

وذكر شوقي أهمّ المعجزات التي أيّدت النبيّ، وخصّ الشهيرة منها، مثل حادثة الإسراء والمعراج، وما رافقها من قدوم الرّسل إلى المسجد الأقصى وصلاة النبيّ بهم، يقول:

1 - المصدر السابق ، 1 / 218-219.

2 - نفسه ، 1 / 216.

أسرى بك الله ليلاً إذ ملائكه والرّسل في المسجد الأقصى على قدم
 لماّ خطرت به التفموا بسيدهم كالشهب بالبدر أو كالجند بالعلم
 صلى وراءك منهم كلّ ذي خطر وممن يفز بحبيب الله يأتمم (1)

ويشيد شوقي بتسامح الشريعة الإسلامية، فهي تقوم على العدالة والتسامح والعلم، ويأخذ
 شوقي في الموازنة بين حضارة المسلمين من جهة وحضارات الأمم الأخرى القديمة من
 فرس ويونان ومصريين وغيرها من الرومان، ويبرز جوانب التفوق في الحضارة الإسلامية،
 يقول:

شريعة لك فجّرت العقول بها عن زاخر بصنوف العلم ملتطم
 يلوح حول سنا التوحيد جوهرها كالحلي للسيف أو كالوشي للعلم
 غراء حامت عليها أنفوس ونهى وممن يجد سلسلا من حكمة يحم
 لما اعتلت دولّة الإسلام واتسعت مشيت ممالكة في نورها التتم
 كم شيّد المصلحون العاملون بها في الشرق والغرب ملكا باذخ العظم
 للعلم والعدل والتمدين ما عزموا من الأممور وما شدوا من الحزم
 دع عنك روما وأثينا وما حولها كلّ اليواقيت في بغداد والتوم
 وخلّ كسرى وإيوانا يدلّ به هوى على أثر النيران والأيم
 واترك وعميس إن الملك مظهره في نهضة العدل لا في نهضة الهرم
 دار الشرائع رومالما ذكرت دار السّلام لها ألت يد السّلم
 ما ضارعتها بيانا عن مد ملتأم ولا حكته قضاء عند مختصم
 ولا احتوت في طراز من قياصرها على رشيد ومأمون ومعتصم (2)

وأرى أنّ شوقي كان موفقا في موازنته، لأنه عمد إلى ذكر الرّكائز الأساسية التي وقف
 عليها الإسلام، وحاول أن يقارنها بالحضارات الأخرى التي وقفت عاجزة أمام عظم قوّة
 المد الإسلامي الذي اعتمد العدل والإيمان أساسا للحياة، وضرب الأمثلة على حكام
 الحضارتين وكان التميّز لصالح المسلمين، والزمان خير شاهد.

1 - المصدر السابق ، 219/1.

2 - نفسه ، 225/1-226.

ويختتم قصيدته ضارعا إلى الذات الإلهية أن تمنّ عليه العطف واللطف، ويكثر الشاعر من الصلاة على الرسول وآله وصحابته، ويطلب المغفرة والعفو للأمة الإسلامية، وأن يبعد عنها الخسف والنقم، يقول:

يا ربّ صلّ وسلم ما أردت على نزيل عرشك خير الرسل كلهم
محبي الليالي صلالة لا يقطعها إلا بدمع من الإشفاق منسجم
يا ربّ أحسنت بـدء المسلمين به فتممّ الفضل وامنح حسن مختتم (1)

ويظهر شوقي في ذلك قدرا من الخشوع والتذلل لله، ويقف موقف الضارع المبتهل، وهذا يدلّ على عمق إيماني، ويحمل شعور المسلم بقضاء الله وقدره.

والقارئ للهمزية يجد أنّ شوقي يسلك المسلك الذي اختطه في منهج البردة، فهو يمدح النبيّ ويشيد بصفاته، وأخلاقه الكريمة، وينهج نهج المذكر للعرب والمسلمين، بمواقف الصحابة الذين جاهدوا ووقفوا مع الرسول في وحدة قلّ نظيرها، يقول:

[الكامل]

الحقّ عرض الله كلّ أبيّة بين النفس وسحمى له ووقاء
هل كان حول محمد من قومه إلا صبيّ واحد ونساء
فدعا فلبّي في القبائل عصابة مستضئ عفون قلائل أنضاء
ردوا ببأس العزم عنه من الأذى مالا تورد الصخرة الصماء
نسّفوا بناء الشرك فهو خرائب واستأصلوا الأصنام فهي هباء (2)

وفي قصيدة أخرى يقف شوقي ليتغنّى بالديار الحجازية، فيذكر عرفات و الكعبة وزمزم، وينتقل إلى طلب العفو في خشوع وخشية تدلّ على عمق ديني، يقول: [الطويل]

إلى عرفات الله يا خير زائر عليك سلام الله في عرفات
ويوم تولي وجهة البيت ناضرا وسيم مجالي البشر والقسمات

1 - أحمد شوقي، صفوة المؤلفات الكاملة - الشوقيات ، 1/227-228.
2 - نفسه ، 1/197.

على كـلّ أفق بالحجاز ملائك
وفـي الكعبة الغراء ركن مرحّب
وزمزم تجـري بين عينيك أعينا
ويرمـون إبليس الرّجيم فيصطلي
وقدّمـت أعداري وذلي وخشيتي
تـزفّ تحايا الله والبركات
بكعبـة قصّاد وركن عفاة
مـن الكوثر المعسول منفجرات
وشانـيك نيرانا من الجمرات
وجئـت بضعفي شافعا وشكاتي⁽¹⁾

ونراه في هذه القصيدة يحثّ المسلمين على النهوض من جديد، وينبههم على غفلتهم، ويدعو الله أن يوفق المسلمين للعظائم، وأن يزيل عنها الكبوة والسبات اللذين أصبحا ملازمين لها، كما ويدعوهم إلى ترك الماضي بعزّه ومجده وعليهم أن يعملوا لما هو آت يقول:

شعوبـك في شرق البلاد وغربها
بأيمـانهم نوران ذكر وسنة
وذلك ماضي مجدهم وفخارهم
فقل ربّ وفق للعظائم أمّتي
كأصـحاب كهف في عميق سبات
فما بالـهم في حالك الظلمات
فما ضـرّهم لو يعملون لآتي
وزيـن لها الأفعال والعزمات⁽²⁾

وعليه فإنّ شوقي ضمّن قصائده النبويّة شواغل أمّته العربيّة والإسلاميّة، فالغرب لا يتركون منفذاً إلا ويحاولون الولوج فيه للانقراض أو يتحينون الفرصة الملائمة لذلك، فهو قد جعل من مديح الرّسول فرصة لتبيان الواجب الملقى على عاتق الأمّة لردّ الغرب، واتخذ أسلوب الإقناع والتمثيل من الماضي العريق، الزمن الذي صانت فيه الأمّة نفسها وحفظت كرامتها وهابتها الأمم، فشوقي يظهر الحرص ويبيدي النصح وهذه خصال الشعراء الأفاضل الذين يتنبّهون لواقع أمّتهم ويرصدون خللها، ويحرصون على إصلاحه.

ولشهرة قصيدة (نهج البردة) فإنها تحمل من المزايا والخصائص التي تؤهلها كي تحتلّ مكانة مميّزة وذلك يعود إلى أنها تناولت المفردات التي جاءت بها مدائح الشعراء للرسول في فترات متفاوتة، لذا أرى أنّ الشاعر قد وفق في عرضه، وأظهر نزعة

¹ - أحمد شوقي، صفوة الأعمال الكاملة - الشوقيّات - ، 1/ 203-204.

² - نفسه، 1/ 209.

إيمانية قوية، وابتعد عن التعصب أثناء موازنته بين الدين الإسلامي والأديان الأخرى وإنما كان حريصاً على إثبات الطرح بالحجج المقنعة لينتصر في النهاية إلى الدين الحنيف.

ويبقى القول أن شوقي لم يقصد الزخرفة اللفظية لذاتها وإنما ظهرت براعته في انتقاء الألفاظ والمعاني التي صورت ما أراد بوضوح ودونما تكلف، وقد اختط لنفسه مسلكاً في مدائحه وهو التبع التاريخي والزمني.

يوسف بن إسماعيل النهاني (1):

عبر النهاني في مدائحه عن شدة حبه للمبعوث رحمة للعالمين، لذا ضمّن مدائحه أوصاف النبي محمد، وتحدث عن دينه، وأخباره، وآثاره، ومولده، ومعجزاته، وسيرته، وغزواته، وشفاعته، وسائر فضائله في الدنيا والآخرة، ومدح آل النبي وأصحابه وأُمَّته، كما ذمّ أعداء الإسلام وتصدّى للكفرة الطاعنين، وتغنى بالديار الحجازية، يقول:

ما الشام مقصدنا كلا ولا حلب لكن لمكة منـــــــــــــــــا ترحل النجب
 أمّ القرى لست أنسى إذ تقرّبي والدّمــــــــع من فرحي في حجرها صلب
 منــــــــت عليّ بوصل كالخيال مضى يهزّني كلمـــــــــا استحضرته الطرب
 ما العمــــــــر إلا أوقيات ذهب بها صفر ســـــــــواها وهنّ الخالص الذهب
 لو لم يكن غير بعث المصطفى سبب لمجدها لكفاهـــــــــا ذلك السبب
 فاقت جميعــــــــع بلاد الله تكرمة بـــــــــه وفاقت به سكانها العرب (2)

1 - من بني نهبان، شاعر وأديب، ولد في فلسطين في (إجزم) التابعة لحيفا شمالي فلسطين، تعلم في الأزهر، تنقل في أرجاء الشام حيث عمل في القضاء، شغل رئاسة محكمة الحقوق في بيروت فترة طويلة، له مؤلفات عديدة من أشهرها، المجموعة النبهانية في المدائح النبوية، توفي في قرينته بعد عودته إليها سنة ألف وثلاثمائة وخمسين هجرية. ينظر الزركلي، الأعلام، 218/8. و محمد أحمد درنيقة، معجم أعلام شعراء المدح النبوي، 444 - 447. وكحالة، معجم المؤلفين، 275/13 - 276.

2 - يوسف النهاني، المجموعة النبهانية في المدائح النبوية، 396/1.

وينتقل بالحديث عن صفات الرسول في موطن آخر، حيث يظهر مدى فضله على الخلق، وهو نعم الشفيح يوم القيامة، يلجأ إليه الناس طلباً للرحمة، ويبن أن نوره دائم لا ينقطع، وهو سيد ولد آدم، وجوده وفضله عميم، يقول: [الطويل]

هو الشمس إلا أن في الكون نوره يدوم ونور الشمس ليس يدوم
هو البحر عم الكائنات بفضله بساحله كلال الكرام تعوم
هو الدهر عم الخلق شامل حكمه ومما عهده في النابتات ذميم
هو العبد عبد الله سيد خلقه له الكون عبد والزمان خدوم
نبوي الهدى يا أعظم الناس نائلاً وممن جوده في العالمين عميم
وممن هو في الدارين خير وسيلة شفيح لى الرب الكريم كريم (1)

ويجد النبهي المتنفس في شعره، فهو يجد فيه متنفساً عن كربته، ويفرّج به عما يجول بخاطره، فالشاعر بمثابة حمامة تشدو ولكنه يصدح ويتعلق بتلك الديار التي عشقها، وشغف بها قلبه، فجاءت أغلب قصائده تنشر بعبق الرائحة الزكية من سلع ونجد، والنقا، وها هو الشاعر يعارض الموشحات السبعة التي نظمها علماء دمشق عندما وقفوا للتغني بدمشق ومنتزهااتها، يقول: [الرمل]

وإذا لىل غرامي أظلمنا ولنفسى لم أجسد من مؤنس
أجد الراحة في شعري فما نفسى الكسربة إلا نفسى
أنا ذا أشدو بسلع والنقا وروابى حاجى والمنحى
لا أرى الورقواء منى أخلقا إننى أعظم منها حزنا
خير أرض الله غربى مشرقا أننا أهوى وهي تهوى الدما
فارحمى طيبة صبا مغرما بك ان يرج اللقا أو يئأس
هو لا ينفك عبدا قيما شدى في هجره أو نفسى (2)

1 - المصدر السابق، 127/4.
2 - نفسه، 347-346/4.

وإذا كان الرسول سيّد الكونين من عرب ومن عجم، فلا بأس أن تكون الديار الحجازية خير البقاع في مشارق الأرض ومغاربها، والشاعر يظهر حزنا شديدا وكأنه عاشق ولهان، أصابته اللوعة والأحزان لبعد من أحبّ، ولكنّه يواسي نفسه المحبطة بشعره.

وحول معجزات الرسول الباهرات يقف النبّهاني ليعدّها، مع مراعاة الترتيب التاريخي لها، ويسهب الشاعر في تعدادها، فذكر حادثة الإسراء والمعراج وقد أمّ بالأنبياء في بيت المقدس، ثمّ يذكر معجزته الكبرى وهي نزول القرآن الكريم، ثمّ يذكر شهادة الجماد له بالحقّ، وإشارة الشجر إليه، وتسبيح الحصى بين يديه، وتظليل الغمام له، ونراه يركّز على معجزات الرسول الباهرات مع الحيوانات مثل الضّبّ، والغزاة، والفحل والسرحان، وشاة أمّ معبد، وغيرها الكثير، يقول في لاميته: [الوافر]

وكم من معجزات باهرات	كثيرات بهــــــــــــــــا الهادي استقلا
توالى آيها فالبعض يتلو	ســــــــــــــــواه كثرة والبعض يتلى
كلام الله أبهرها وأبهى	وأعــــــــــــــــلاها وأغلاها وأحلى
إذا مرّ المكرر من سواه	فبالتكرار قــــــــــــــــد يحلو ويحلى
جديدا لم يزل في الناس مهما	مضى يبلــــــــــــــــى الزمان وليس يبلى
دعا المولى فشقّ البدر وحيا	وردّ الشمســــــــــــــــس للمولى فصلى
وكم شهد الجماد له بحقّ	كــــــــــــــــأن الله قد أعطاه عقلا
سعت شجر إليه شهادات	وعــــــــــــــــادت فاستوت سرحا ونخلا
وسلمت الحجارة مفصحات	وجــــــــــــــــذع النخل حنّ حنين ثكلى
وظلله الغمام ومال فيء	وأعــــــــــــــــجب منه عرجون تدلى
وليس لشخصه في الأرض ظلّ	وهــــــــــــــــل أحد رأى للنور ظلا
دعتّه غزاة فيها وثاق	فحــــــــــــــــلاها بنعمته وحلا
وأفصح بالشهادة فيه ضبّ	وذلّ الفحــــــــــــــــل والسرحان دلا
ونسج العنكبوت بباب غار	غــــــــــــــــدا لعزائم الكفار فصلا
ومن الضرع من شاة عناق	وأخــــــــــــــــرى حائل فحلبن سجلا
ومــــــــــــــــا باسم دعا الرّحمن إلا	أجــــــــــــــــاب دعاءه بالحال فعلا

ومــــا قــــطاً اســــتهلّ لــــحبس غيــــث بــــأيسر دــــعوة إــــلا اســــتهلا(1)

ويمضي الشاعر على هذه الشاكلة في تعداد المعجزات ليدل على فضل الرسول محمد صلى الله عليه وسلم ، وليبين للناس أهمية الإيمان بصدق بعثة محمد صلى الله عليه وسلم ، ووجوب الالتزام بتعاليم الحق الذي جاء به، فالعزّ بهما، وبهما يستطيع المسلمون الانتصار، ويظهر الشاعر قدرا كبيرا من النزعة الإيمانية، والعاطفة الدينية التي تحمل الغيرة على الإسلام وأهله.

والنبهاني من الشعراء الذين عارضوا مدحة كعب بن زهير، وقد سار فيها على النسق الذي تخيره كعب، فابتدأ لاميته بالغزل، ثم انتقل إلى الثناء على الرسول من خلال حديثه عن صفاته الحسية والمعنوية، وتحدث عن معجزاته، وغزواته، وأكرم صحابة الرسول بالثناء عليهم وانتهى إلى طلب الشفاعة، وفيها يجري على نمط شعراء المديح السابقين له في طريقة العرض والتقديم، وسيرا على النمط الصفي في حديثهم عن الحقيقة المحمدية يقول: [البسيط]

فكــــل ذرات الخلق شاهدة أن لا إله ســــوى الرّحمن مقبول
وأنّ أحمد خير الرّسل رحمته لعالميين فيها الكلّ مشمول
من نوره خلّق الله الوري فسرى لأدم وبعبد الله موصول
نعم الظهور البطون الحاملات له يــــا حبّذا حامل منهم ومحمول(2)

وعن صحابته وعترته الذين زينوا الوجود، فقد أشاد الشاعر بهم، فرتبهم حسب المنزلة، فالخلفاء الأربعة في أعلى الرتب والمنازل، ثم بقية الصحابة، فهم جميعا قدموا البطولات والتضحيات واستحقوا الشهادات وبذلك نالوا أروع المكانات، يقول فيهم:

هــــم الهداة فإن ضلت بهم فئــــة ففــــى يــــغصّ بــــعذب الماء مغلول
كــــلّ عدول وكلّ عادلون وما فيهم فــــى عن طريق الحقّ معدول

1 - المصدر السابق، 314/3-315.

2 - يوسف النبهاني، المجموعة النبهانية في المدائح النبوية، 3/ 129.

لكنهم درجات بعضها عليت والبعض أعلى وما فيهنّ تسفيل
أعلاهم الخلفاء الرّاشدون على ترتيبهم وسواهم فيه تفصيل
أكرم بأصحابه أكرم بعترته نورا من فموصول ومفضول
جميعهم زيّ الله الوجود بهم يا حبّذا فاضل منهم ومفضول
منهم شمس ضيا منهم بدور علا منهم نجوم هدى منهم قناديل (1)

ويختتم الشاعر قصائده بما سار عليه السّابقون من الشعراء ، حيث يقوم بطلب الشفاعة
من الرّسول محمد صلّى الله عليه وسلّم ، بعدما أثقلته الذنوب، وجارت عليه
الخطوب، ويفرغ ذلك في قالب لغوي مملوء بالعاطفة التي تحمل في ثناياها التذلل في
طلب الرّضى والشفاعة، يقول: (الخفيف)

سيّدي يا أبا البتول دهنتي أيّ حارب من الخطوب زبون (2)
وذنوبي قد أثقلتني وديني بحقنوق لم أقضهنّ رهين
هذه حالتي ومالي لدى الله له تعالى سواك ركن متين
فارض عني وكن شفيعي إليه كلّ صعب إذا رضيت يهون (3)

ويمكن القول بأنّ النبهاني قد قلّد الآخرين في مدائحهم للرّسول، على صعيد
مضمون المدائح، ولكن أهمّ ما يميّز مدائحه هو إطالة الحديث عن فضائل الرّسول،
وهذا ليس بالغريب على الشاعر فهو من أصدر مؤلفات عديدة في تبيان فضائل الرّسول،
وعلى صعيد المفردات لم يكتنفها الغموض لذا نراه يلتزم السهولة مسارا في مدائحه
النبويّة.

1 - المصدر السابق ، 132/3.

2 - الحرب الزبون: التي تدفع بعضها لبعضها لكثرتها أو التي تدفع الشجعان لشدّتها. الفيروز آبادي، القاموس المحيط، 1580/2 (زين).

3 - يوسف النبهاني، المجموعة النبهانيّة في المدائح النبويّة، 201/4.

عبد الله البردوني⁽¹⁾:

لقد سار البردوني وفق الخطوط العريضة التي اختطها الشعراء القدماء في مديحهم للرسول محمد صلى الله عليه وسلم، ولم يحد عنها، لقد عبّر عن حبه للنبي محمد صلى الله عليه وسلم، وركز على فضائله وشمائله التي كان يزدان بها، وذكر كذلك فضائل الدين المحمدي، فهو منهاج حياة وفيه نجاح وفلاح وفوز في الآخرة، تلك هي السمة الغالبة على مدائح البردوني للنبي، ففي قصيدته التي أطلق عليها يقظة الصحراء، يطلب البردوني من الشعر أن يلتفت إلى الماضي ليستذكر عظمة النبي ويذوب فيه احتراماً، فبعد أن كانت الصحراء تهجع وتغط في جهل وكفر والحاد، أرسل محمد وملائها عدلاً، بعدما كانت ممتلئة ظلماً، يقول: [الرملة]

وأمــــالاً الدّنيا نشيدا مستهما	حيّ مــــيــــلاد الهدى عاماً فعاما
ملتقى الوحي وذب فيه احتراماً	وامــــض يا شعر إلى الماضي إلى
يحمل القلب أمانيه الجساما	واحمل الذكــــرى من الماضي كما
يبعث الحسن إلى القلب الغراما	ذكريــــات تبعث المجد كما
وانشــــد المجد أغانيك الرّخاما	وتنقــــل حول مهد المصطفى
زفت الأنسام أنفاس الخزاما	زفت البشــــرى معانيه كما
هجعــــة الأكوان بعنا وقياما	واستفاضت يقظة الصحــــرا على
يمحــــو عن الأرض الظلاما (2)	جلّ يوم بعث الله بــــه أحمدا

ونلاحظ أنّ الشاعر يركز كثيراً على شخصية النبي محمد صلى الله عليه وسلم، وابتدئ بالحديث عن الصعوبات التي كابدها والمشاق التي واجهها، وهذا الحديث استغرق من الشاعر عدّة أبيات ولم يأت الشاعر بها جزافاً، وإنما أراد أن يبثّ فيها ما تتعرّض له البلاد

¹ - هو شاعر عربيّ من اليمن، ولد في قرية البردوني من أعمال زراحة بمنطقة الحدا، أصيب بمرض الجدري الذي أطفأ بصره، ولكنه استعاد عن ذلك ببصيرته، درس في مساجد دمار أصول الدين وعلوم العربيّة، ثمّ التحق بدار العلوم في صنعاء، هاجم الاستعمار البريطاني وتمردّ عليه، لذا سجن، عاش متوحداً مع وطنه اليمن، دعا إلى الثورة والتغيير والدفاع عن فلسطين، له ديوان شعر يقع في مجلدين، توفي سنة 1999م. ينظر ميشال جحا، الشعر العربي الحديث، 397-392. وعبد العزيز المقالح، مقدّمة الديوان، 1/ 5-46.

² - عبد الله البردوني، الديوان، 1/ 62-64.

العربية من جور على يد المعتدين، وهي غاية شريفة إذ يبث هموما عامة، يعيشها شعبه خاصة والأمة العربية عامة، يقول:

وتحدى بالهـدى جهد العدا	وانتضى للصارم الباغي حساما
نزل الأرض فأضححت جنة	وسمىء تحمل البدر التماما
وأنتى الدنيا فقيرا فأنت	نحوه الدنيا وأعطته الزماما
ويتى ما فتبته السما	وتبنى عطفه كل اليتامى
ورعى الأغنام بالعدل إلى	أن رعى في مرتع الحق الأناما
بدوي مدن الصحرا كما	علم الناس إلى الحشر النظاما
وقضى عدلا وأعلى ملة	ترشد الأعمى وتعمي من تعامى
نشرت عدل التساوي في الورى	فعلا الإنسانان فيها وتسامى
يا رسول الحق خلدت الهدى	وتركست الظلم والبغي حطاما
قم تجد في الكون ظلما محدثا	قتل العدل وباسم العدل قاما
أمطر الغرب على الشرق الشقا	وبدعوى السلم أسقاه الحماما
فمعاننى السلم في ألفاظه	حيى لتبكر الموت الزواما
يا رسول الوحدة الكبرى ويا	ثورة وسدت الظلم الرغاما
خذ من الأعمى ذكرى شاعر	وتقبلها صلاة وسلاما (1)

و القصيدة جاءت لوحة فنية شعرية نابضة تعبر عن السخط الذي حمله الشاعر على الغرب الذي حاول طمس معالم المسلمين، واستخدم شعارات الزيف والتضليل بداعي إقامة العدل، ولكنه يجلب الموت، والمشقة للشرق، ويعمم الظلم والبغي اللذين لطالما حاربهما الرسول، وناضل من أجل إحقاق الحق وإبطال الباطل، وجاءت الأبيات على شكل مقابلات ليقدم مفارقة بين القيم التي دعا إليها الرسول، وتلك القيم التي حاول الغرب زرعها، وتوطيد دعائمها، ونلاحظ أن الشاعر قد ساير العصر الذي يعيشه من خلال إدخال المفردات العصرية من مثل (التمدن).

¹ - المصدر السابق، 1/ 65-67.

ويركز الشاعر على الكون ومظاهره، حيث أفاق الكون حينما استشرف خطوات النبي محمد صلى الله عليه وسلم، وهلل، وكأني بالشاعر يحول المفردات إلى حركات، فالبشرى انطلقت من مركز الوثنية، وأفاقت مع بعثة النبي الذي جاء وهدم عناصر الغدر والبغي، يقول:

يا فـجـر مـيـلـاد النـبـوة هـذه	ذـكـر مـيـلـاد فـجـرا دـائـم المـيـلاد
وتـهـلـل الكـون البـهـيـج كـأنـه	حـفـل مـن الأـعـراس والأعياد
وأفـاقـت الـوثـنيـة الحـيـرى عـلى	فـجـر الـهـدى وعـلى الرّسـول الـهـادي
فـمـوا كـسـب البـشـرى هـنـاك وها هـنا	تـبـنـي الـوـجـود بأـكـرم الأـولاد
والـمـجـسـد يـنـتـظر الـولـيد كـأنـه	والـمـجـسـد والعـليـا عـلى مـيـعاد
وتـرـعـرـع الطـفل الرّسـول فـهـبّ فـي	دـنـيا الفـسـاد يـبـيد كلّ فـساد ⁽¹⁾

ويخلص البردوني لتصوير قيادة الرسول لجيش المسلمين، حيث تسابق المسلمون لتسجيل أسمائهم في سجل الخالدين، ويبين حالتهم وهم في أتم الاستعداد، وبفضلهم فتحت البلاد وتوحد العباد، ولكنهم ملائكة يفون بعهودهم إذا عقدت، يقول:

خـاض الرّسـول إلـى العـلا هـول الدّجـا	ولـظى الـهـجـير الـلافـح الـوقـاد
واقـتـسـاد قـافـلة الفـتـوح إلـى الفـدى	والـمـكـرمـات دـلـيـلـها والـحـادي
وهـفا إلـى شـرف الجـهـاد وحوـله	قـوم تـفـور صـبـابة اسـتـشـهاد
قـوم إذـا صـرخ العـرـاك تـوثـبوا	نـحـو الـوـغى فـي أهـبة اسـتـعـداد
وتـمـاسـكوا جـنـبـا لـجـنـب وارتموا	كـالـمـوج فـي الإـرغـاء والإزبـاد
وتـدافـعوا مـثل السـيـول تـصـبّـها	قـمـم الجـبـال إلـى بـطون الـوادي
وإذـا تـسـاجـلت السـيـوف رأيتـهم	خـرسـا وألـسـنة السـيـوف تـنادي
هـم فـي السـلام مـلائـك ولـدى الـوغى	جـنّ تـطـير عـلى ظـهـور جـياد ⁽²⁾

¹ - المصدر السابق ، 1 / 209-210.

² - نفسه ، 1 / 212-213.

في الأبيات السابقة يظهر الشاعر ملامح البطولة والجهاد عند سيّدنا محمد، وقد أشار بعض الباحثين إلى أنّ الشعراء ألحوا على فكرة الجهاد من خلال شخصيّة سيّدنا محمد، ليتخلص أبناء الأُمَّة من الاستعمار الذي يجثم على صدورهم ويقضّ مضاجعهم، لذلك دأب الشعراء في المناسبات الدينيّة المختلفة على استدعاء شخصيّة الرسول باعتباره المخلص من جهة، والتعبير عن قضاياهم باعتبار محمد البطل القومي من جهة أخرى.⁽¹⁾

ويرى الباحث أنّ المدائح النبويّة عند البردّوني جاءت تمشياً مع متطلبات العصر الذي هجم فيه الغرب على أوطان المسلمين مستغلاً ضعفهم، وتراجعهم في ميادين شتى، فقد بثّ فيها الشاعر وجهة نظره، وحثّ فيها قومه على ضرورة الاقتداء بمحمد الذي جاء بالهدى والنور، وصدع بالحقّ، ودعا إلى وحدة الأُمَّة، والوقوف صفاً واحداً في وجه الأعداء، وقد ركز على الجوانب الشخصيّة من حياة الرسول، فكانّ قصائده جاءت نفيراً عامّاً للذود عن الأوطان، ورسم واقعه وهمومه الذاتيّة التي يجسّد فيها واقع أمّته بشكل عام، حتى كاد أن ينطقه .

وصاغ البردّوني تلك القصائد بقلب لغوي جميل ابتعد فيه عن الغموض، وبذلك استعمل الشّاعر قاموس المفردات السهلة والواضحة، وجاء بصور جميلة مستوحاة من الواقع المعاش، واستخدم ألفاظه استخداماً رائعاً.

ومهما يكن من شيء فإنّ الحقب التي ولت عصر الزنكيين والأيوبيين على صعيد المدائح النبويّة قد حملت معها الكثير، نذكر منها :

- فهي اعتمدت اعتماداً كبيراً على تينك العصرين، حيث جعلاً أساساً لها، فظهور البديعيّات من ناحية، وإطلالة المعارضات من ناحية ثانية، وحملت الاثنتان معهما ما تضمنته قصيدة المديح النبوي في العصرين من جهة المضمون، إذ برزت المقدّمة

¹ - حلمي القاعود ، محمد صلى الله عليه وسلم في الشعر الحديث، 205.

الحجازية التي بذارها الأوّل في عصري الزنكيين والأيوبيين، وجاءت عوضاً عن المقدمات الطليّة والغزليّة، وظلت نمطاً يتّبع عند الشعراء إلى عصرنا الحاضر، وتظهر بوضوح وجلاء عند شعراء البديعيّات الذين سلكوا مسلك ابن الفارض، وهكذا في المعارضات التي سار فيها أصحابها على نمط كعب بن زهير مستفيدين من الزمخشري والسخاوي والصّرصريّ.

- ويظهر استدعاء الرسول جلياً في قصائد العصور اللاحقة، ومظاهر هذا الاستدعاء تكمن في ذكر البقاع مثل: الغار، وزمزم، والعقيق، ورامّة والحجرة وغيرها، ويأتي هذا بعدما كانت موجودة في العصور السّالفة، ولكن وجه التميّز هو الإطالة في العرض.

- وعلى صعيد الأوزان فإنّ أغلب الشعراء انتقوا البحر البسيط كبحر مشهور عن غيره، فقد نظم أغلب الشعراء على هذا البحر، ويأتي الطويل والكامل في المرتبة الثانية، وهذا الاختيار سبق إليه شعراء الزنكيين والأيوبيين.

- دأب كثير من الشعراء في مدائحهم على تذييل تلك المدائح باسمائهم الصريحة، مثلما فعل البوصيريّ وصفيّ الدين الحلبي، وهذا ليس بالأمر أو بالنمط الجديد، وإنما جاء تأثراً بمن سبق في العصرين عند السخاوي وابن الجوزي.

- أمّا ما يخصّ ظهور المدائح وانتشارها، فلا شكّ بأنّ الأوضاع السياسيّة كانت السبب الأوّل وراء انتشارها وبروزها بشكل لافت، فمنذ بداية الدّعوة المحمديّة كان للرسول مكانته المميّزة؛ لهذا كلما تعرض المسلمون لخطر أو ألمّ بهم ملامّة فإنهم يسارعون إلى الرسول يطلبون نجاته، ودعاؤه، هذا في الدنيا، وكانوا يطلبون من الرسول رفقة يوم القيامة في الجنّة، ولا شكّ بأنّ ملاقات الأعداء وصدّ هجماتهم كانت وراء فرار المسلمين وعلى وجه الخصوص الشعراء فإنهم لجؤوا إلى الرسول كي يكون العون والسند، وهذه الحال تكرر ففي الحروب الصليبيّة التي جاءت مؤجّجة للمدائح النبويّة، لجأ الشعراء إلى التوسّل من جهة وإلى حتّ المسلمين على التمسك بالخطّ النبوي في الدّفاع عن

الحرمان وتبركا به جلبا للانتصارات من جهة ثانية ، وتكرّر المشهد نفسه إثر الهجمات الترتية على بغداد وأطراف الدولة الإسلامية.

ولم يكن العصر الحديث بأحسن حالا من العصور الصليبية والتترية ، فالاستعمار الحديث ومحاولة الدول الغربية بسط سيطرتها على العرب . بعد سلسلة تراجعاتهم في الميادين كلها . كانت السبب وراء استدعاء الرسول وفضائله والحديث عن حروبه وانتصاراته ، ووقفه صحابته معه جنبا إلى جنب لتوطيد دعائم الدولة ، فلا شك بأن تلك العوامل هي نفسها منذ القدم حتى يومنا الحالي وراء ظهور المدائح النبوية عند الشعراء.

. على صعيد الأحوال النفسية للشعراء ، فكلما حلت بالشاعر مصيبة ، أو حاقت به ملامة فإنه يلجأ إلى الرسول متوسلا ، فالمرض من جهة على الصعيد الشخصي ، أو ما يتعلق بأحوال المجتمع والواجب الملقى على عاتق الشاعر في حمل هموم قومه من جهة ثانية ، فهذه العوامل تكاد تكون متكررة على مر العصور ، ولكن يبقى السبق عند الشعراء الزنكيين والأيوبيين الذين كان لهم مجال السبق كالعقبان في المتقدمين ، وحذا حذوهم المتأخرون.

وتبقى المدائح النبوية عنوانا لا يمكن تجاوزه في العصور المختلفة، ولكن يظلّ السبق في تطويرها عائدا إلى الشعراء الذين رسّخوا دعائمها ، ورفعوا أعمدتها، والشواهد التي أوردناها في الفصل السابق خير دليل على ما ذهبنا إليه، وما أشار إليه محمود سالم محمد بقوله: " أمّا في العصر الفاطمي والأيوبي، فقد تكاملت المدحة النبوية، ووصلت إلى العصر المملوكي على جانب كبير من النضج الفني"⁽¹⁾.

هذا كله يأتي بصرف النظر عن الطعونات جميعها التي ألحّت بوسم العصور التي أشرنا إليها بالانحطاط ، فإنّ الشواهد المعطاة لا توحى بصدق تلك الطعونات مهما حاول أصحابها جاهدين ، ونحن في هذا القول لسنا بمنحازين.

¹ - المدائح النبوية حتى نهاية العصر المملوكي، 124.

الفصل الرابع:

التشكيل الفني في قصيدة المديح النبوي في العصرين الزنكي والأيوبي
من حيث:

- 1- الأسلوب واللغة .
- 2- الموسيقى .
- 3- الصّور والخيال .
- 4- التواصل بالتراث - التناص أو التضمين النصّي.

1. الأسلوب واللغة :

لقد عقد النقاد العرب صلة بين الأسلوب وأغراض الشعر العربيّ ، وذكروا بإمكانية حدوث تغيير في التعبير عن طريق اختلاف الأسلوب، فهم يجعلون شرطاً في الترتيب، ومن الواجب على الشاعر أن يحسن تقسيم الألفاظ على رتب المعاني، وبالتالي لا يكون الغزل كالافتخار، أو المديح كالوعيد، وإن المدح بالشجاعة والبأس يجب أن يتميز عن المدح باللباقة والظرف، وإذا ما وصف الحرب والسلاح لا يكون وصفه كوصف المدام أو المجلس، وكذلك الغزل والفخر ، فلكل واحد منها نهج خاصّ على الشاعر أن يتنبه له حتى لا يحدث الخلط ، وأن توضع الأمور في موازينها.(1)

وقد ذهب ابن رشيق المذهب نفسه، ولكنه وضع شرطاً جديداً عند المدح، إذ يجب على المادح أن يسلك جانب الإيضاح والإشادة بالممدوح، وأن تكون معانيه جزلة، وألفاظه نقيّة، أي بعيدة كل البعد عن السوقيّة والابتدال(2).

وفي تعريفه للأسلوب الأدبي يقول ابن خلدون: " هو المنوال الذي ينسج فيه التراكيب أو القالب الذي يفرغ فيه"(3) بينما يجمل حازم القرطاجني تعريفه قائلاً : " هيئة تحصل عن التأليفات المعنويّة والنظم، وهيئة تحصل عن التأليفات اللفظيّة، ولما كان الأسلوب في المعاني والتلطف بإزاء النظم في الألفاظ وجب أن يلاحظ فيه من حسن الاطراد والتناسب والتلطف في الانتقال من جهة إلى جهة والضرورة من مقصد إلى مقصد"(4).

وعندما ننظر إلى النقاد المحدثين نجد أنهم يتفقون مع القدماء في التعريف، ولكنهم يركزون على عناصر الأسلوب الشعري الذي يظهر بجلاء في اللغة الشعريّة،

1 - ينظر عبد العزيز الجرجاني، الوساطة بين المتنبي وخصومه، 23.

2 - العمدة في نقد الشعر، 2 / 148.

3 - مقدّمة ابن خلدون، 570.

4 - منهاج البلغاء، 364.

والمعجم الشعري ، مع الأخذ بعين الاعتبار طريقة الاستخدام وموضوع ورودها، أي لا يجب أن تصل الألفاظ إلى حدّ الابتذال⁽¹⁾، أي يصاحب اللغة الوضوح والدقة، وتسير على السجّية غير المتكلفة، ودون إسفاف في الأسلوب ودون سموّ لا مبرر له⁽²⁾.

ويقول عزّ الدين إسماعيل عن الأسلوب " هو طريقة الكاتب الخاصّة في التفكير والشعور، وفي نقل هذا التفكير وهذا الشعور في صورة لغويّة خاصّة، وأن يكون الأسلوب جيّدا بحسب درجة نجاحه في نقل ذلك للآخرين"⁽³⁾.

ويرى الباحث أن النقاد القدماء والمحدثين يتفقون على وجوب ملاءمة الشاعر بين المعاني المقصودة ، والألفاظ المختارة، شريطة المواءمة بينهما مع وجوب تجنّب الإسفاف أو الابتذال، مع مراعاة الوضوح والبعد عن الغموض.

ولذلك نجد أنّ مقاييس الأسلوب إذا توافرت بشكل جيّد في القصيدة يحكم عليها بالجودة، وقد ذكر أحمد الشّيب تلك المقاييس وهي: الوضوح ، والقوّة، والجمال⁽⁴⁾

وقد بنى شعراء المديح النبوي في العصر الزنكي والأبوي قصائدهم على طريقة الشعراء السّابقين في المديح من حيث الشكل فقد وقفوا على الأطلال ، ثمّ استبدلوا الحجازيات بتلك الأطلال وقد قام الباحث بالتمثيل عليها في الفصل الثاني من هذا البحث، وقد اتخذ هؤلاء الشعراء الجزالة والمتانة طريقا لتحقيق مآربهم، والوصول إلى غاياتهم، وتتجلى المعاني الجزلة والألفاظ النقيّة في قصائد شعراء المديح النبوي عند مديحهم للرسول، والحديث عن فضائله وشمائله، يقول عبد الرّحيم بن الأخوّة :

أوحى إليه وبحر الجاهليّة من ريح الضّلال بمـوج منه ملتطم
أدى الأمانة واستـوفى الرّسالة إذ تراجمت عنـن هداها سائر الأمم

1- ينظر محمد مندور، الأدب وفنونه، 37.

2- ينظر محمد غنيمي هلال، الأدب المقارن، 95-96.

3- الأدب وفنونه، 22.

4- ينظر أصول النقد الأدبي، 259.

وجد في الله حتى عاد عن كذب وجه الهدى مبدياً عن ثغر مبتسم
 وذل في عزة والله ناصره لمأ دعاهم ملوك العرب والعجم
 جبريل يقدمه والسعد يخدمه والله يعصمه عن زلّة القدم
 فالحمد لله رب العالمين على توفيقنا إذ همدانا منه للنعم⁽¹⁾

فالملاحظ على الأبيات السابقة أنها تتسم بالوضوح والسهولة والجزالة، وألفاظها
 المنتقاة جاءت لتناسب الممدوح، فقد أشاد الشاعر بفضائل الرسول محمد صلى الله
 عليه وسلم، وتلك الفضائل تتفق مع ما ذكره النقاد عند الإشادة بالممدوح.

وعندما يقف شرف الدين الأنصاري ليشيد بقوة النبي، وبشجاعته في ميدان المعركة،
 وبصولاته في ميادين الوغى، حيث لا يتجرأ أحد من الأعداء أن يقف أمام ضربات كفه
 في المعركة، لذا يفرّ الأعداء وجلين من أمامه، يقول: [البيط]
 سلت حقود الأعداء إذ تخرمها مهند من سيف الله مسلول
 شامته كف الهدى في كل معركة كانت ضرائبه فيها الأضاليل
 صالت على الحمس في بدر مصاعبه وفي لفيهم العوذ المطافيل⁽²⁾

وهذا الوصف لبطولة النبي يتفق مع ما قاله قدامة بن جعفر عندما رأى أن أفضل ما
 مدح به القائد الجود والشجاعة، وما تفرّع منهما نحو التخرق في الهيئات والإفراط في
 النجدة وسرعة البطش وما شاكل ذلك من صفات للقائد⁽³⁾.

وفي معرض مديح عبد المحسن التنوخي لصحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم
 فإنه يذكر تضحياتهم، وبطولاتهم في ميادين القتال، حيث كانوا اليد الضاربة لدولة
 الإسلام وللرسول، يقول:
 هم أيّدوه على تأييد ملته لما استطالست على الحقّ الأباطيل

¹ - العماد الأصبهاني، خريدة القصر وجريدة العصر (قسم شعراء العراق)، 1/3/211-212.

² - شرف الدين الأنصاري، الديوان، 391-392.

³ - ينظر نقد الشعر، 93.

ومهدوا الدين للإسلام وانحسمت بحدّ بيضهم عنـــــــــــــــــه الأضاليل
ودوخوا كل ملك لا يدين لهم فملكه زائل والعـــــــــــــــــرش مثلول
أمضى سلاح معاديبهم إذا اعتقلوا الرّما ح للطفــــــــــــــــعن تسليــــــــــــــــم وتخويل⁽¹⁾

ونلاحظ من خلال الأبيات مدى ما أبداه الصّحابة من شدّة بأس، وسرعة ردّ، وكذلك
بطشهم بأعدائهم، فعندما وقف الباطل في وجه الحقّ أسرعوا مناصرين، وقد استخدم
الشاعر ألفاظا تحمل الشدّة مثل استطلت التي تعني غلبه وقهره، وانحسمت وفيها السّرعة
والحسم، واستخدم البيض والرّماح وهي أسلحة المعركة، أمّا أبياته في الغزل، فإنّ الشاعر
يبدى تلفه، وتنساب الكلمات الغزليّة عذوبة ورقة، يقول في مقدّمته الغزليّة التي افتتح
بها مدحته النبويّة:

تشــــــــــــــــي القوام ولا تنفك مائلة	كما تمــــــــــــــــايل غصن وهو مطلول
فرعاء ما مسّها غسل ولا ادّهنت	كحــــــــــــــــلاء ما جال في أجفانها ميل
وشاحها جائل في خصــــــــــــــــرها قلق	لكن تغصّ بســــــــــــــــاقبها الخلاخيل
فإنما طرفها وســــــــــــــــنان أو ثمل	أو مدنــــــــــــــــف أو بميل السّحر مكحول
ما جرّدت سيف جفن من لــــــــــــــــوا حظها	إلا انثيت وسيــــــــــــــــف الصبر مفلول
تجيل مسواكها من فوق ذي شنب	يزينــــــــــــــــه وضح فيــــــــــــــــه وترتيل
كأنــــــــــــــــه أقحوان الحزن عاوده	في الليل طلّ فأضحى وهو مصقول
كأنما ريقها غــــــــــــــــب الكرى ضرب	لمجتبيه بمــــــــــــــــاء السورد محلول
إذا سأــــــــــــــــت تدانيتها تعلني	يفنــــــــــــــــتتي السؤال وما تفنى التعاليل ⁽²⁾

لله درّ الشاعر على تلك الأبيات الغزليّة !! وكأنني به قد أفرغ طاقة من نوع خاصّ، فهو
متيّم من الطراز الأوّل، وأوفى حديثه الغزلي حقه كأمر الحدّاق في هذا المجال،
فاحتوت الأبيات من معاني الغزل وألفاظه الكثير مثل: القوام والتثني، والعيون والأجفان
والوسن، والثغر، والأسنان، والريق، والصدّ والهجران، وحشد هذه الألفاظ بهذه الصورة
دليل على معاناة الشوق، وشدّة الوجد، وقد اتسم الأسلوب بالسهولة، والمعاني جاءت

¹ - يوسف النبهاني، المجموعة النبهانيّة في المدائح النبويّة، 38/3.
² - نفســــــــــــــــه، 32/3.

واضحة ورقيقة تلائم الغرض الذي طرقة الشاعر ، كل ذلك ساقه الشاعر في قالب جميل ، وهكذا يظهر بجلاء الفارق بين أسلوب الشاعر في مدحه للمصطفى ، وغزله بالمحبوبة.

وابن جبير عندما يقف ليصف ساعة الندم حذرا من قرع سنه، فإنه يلجأ إلى الرسول بكلمات تدل على أنه كان تواقا لها، واستعمل الألفاظ الموحية والمعاني المخصصة، وأتى مفرغا ذلك في قالب يحمل في ثناياه الزهد، وجريا على عادة بعض الشعراء في استخدام التجريد وسيلة لطرح الفكر وعرضه، يقول:

وتب قبــــــــــــل عضّ نبات الأسي ومن قبــــــــــــل قرعك سنّ الندم
وقل ربّ هــــــــــــــــب رحمة في غد لعبــــــــــــد بسيماء العصاة اتسم
جرى في مياديــــــــــــــــن عصيانه مســــــــــــيئاً ودان بكفر النعم
فيا ربّ صفحــــــــــــك عمّا جنى ويــــــــار ربّ عفوك عمّا اجترم (1)

ومنه في تبيان فضل النبيّ محمد :

نبــــــــــــــــي شفاعته عصمة فيــــــــــــــــوم التنادي به يعتصم
عــــــــــــــــسى أن تجاب لنا دعوة لدينا فتكفي بهــــــــــــــــما أهمّ
ويرعــــــــــــــــى لزوّاره في غد ذمــــــــــــــــاماً فما زال يرعى الذم
عليــــــــــــــــه السّلام وطوبى لمن أــــــــــــــــلم بتربته فاستلم (2)

فالشاعر عندما لجأ إلى الشفاعة والضراعة لازم الألفاظ والمعاني السهلة الواضحة ، وجانب الوعورة، وبذلك يمكن القول بأن معاني الشفاعة التي أتى بها وافقت المذهب الذي انتقاه في العرض والبسط.

وعندما نظم الشّاعر علي بن عمر المعروف بابن قزل مدحته الشريفة التي يتشفع فيها بالنبيّ، فإنه يقوم بوصف النار - التي ظهرت في الحجاز - وهول المشهد وما صاحبه من ظواهر جوّيّة، يقف قائلاً:

1 - فوزي الخطبا، شعر ابن جبير، 85.
2 - نفسه، 85.

لهـا شرر كالبرق لكن شهيقها كالرّعـد عند السّامع المتأمّل
وأصبح وجهه الشمس كالليل كاسفا وبدر الدّجـى في ظلمة ليس تنجلي
وغابت نجـوم الليل قبل غروبها وكدرها دور الدّخـان المسلسل
وهبّت سمـوم كالحميم فأذبلت مـن الباسقات الشّمّ كلّ مدلل
وأبـدت من الآيات كلّ عجيبة وزلـت الأرضون أيّ تزلزل (1)

ومنها في معرض حديثه عند دخول المدينة محرما وملبّيا، يقول:

دخـلت محرما وملبّيا وأضربت عن سقـط الدّخول فحومل
مواقـف أمّا تربتها فهي عنبر وأمّا كلاها فهو نبت القرنفل
يضع شذاها ثمّ يعقب نشرها لما نسجتها من جنـوب وشمال (2)

فالحديث عن النار - من خلال الأبيات السّابقة - يختلف عن الحديث عن ديار الرّسول، وهذا تنوع في الأسلوب، فالنار أبرزها ووصفها من خلال ألفاظ خاصّة يظهر فيها الشاعر الحركة المصحوبة بعظمة الموقف، مثل: الشرر، والسّموم، ومظاهر الطبيعة المتغيّرة كزلزلة الأرض، وقصف الرّعد، أمّا المدينة فيظهر فيها التربة العنبريّة، ونبت القرنفل، والرائحة ذات النشر الطيّب، فنلاحظ أنّ الشاعر قد راوح في استخدام الألفاظ والمعاني حسب ما يقتضيه الموقف، من هنا يمكن القول بموافقة الشّاعر مع ما ذهب إليه النقاد.

وقد راوح شعراء المديح النبوي في العصرين الزنكي والأيوبي في استخدامهم لأساليب التعبير، فقد أكثر هؤلاء الشّعراء من استخدام الطابع الإنشائي مثل: النداء، والأمر والنهي والاستفهام وغيرها من الأساليب.

وجاء النداء عند أكثر الشعراء، وقد ورد بشكل لافت في مدائحهم النبويّة، حتى لا تكاد تخلو مدحة نبويّة من أدوات النداء، وإن دلّ هذا على شيء فإنه يدلّ على حبّ

1 - ابن قزل ، الديوان ، 337-338.

2 - نفسهُ، 339.

جامح يـكنه الشعراء لشخص الممدوح، ففي معرض التوقير وبيان المنزلة، واللجوء إليه طلبا للشفاعة، لذلك أكثر الشعراء من استخدام النداء، فهذا عبد الرحيم بن الأخوة يتوجه إلى الرسول قائلا:

ألا يا رسول الله يا خير من مشى على الأرض ما مقدار مدحي ولا حمدي (1)

ويقول في قصيدة أخرى:

يا خاتم الرسل يا أعلى الورى خلقا وأكرم الخلق من ماض ومن آت (2)

ومن الشعراء الذين أكثروا في ذكر أدوات النداء في مدائحهم النبوية الصرصية، فهو يقف موقف التعظيم للرسول، ويلج في طلب الشفاعة ولا يتوانى عن ذكر خصاله، يقول:

يا سيدي يا رسول الله يا وزري لرفسع وزري وما ألقى من الكلف
يا منتهى أمني في منتهى أجلي يا عدتي في مقصام الروع والأسف
يا من علا نوره في وقت مولده نثار المجوس فولى وقدها وطفي
يا من لمبعثه الهادي تنكست الأ صنم تنكيس مقهور ومختطف
يا فاتح الخير والأبواب مغلقة والناس من سفه على شفا جرف
يا من أتى بالهدى والعهد مل مبعثه والناس من تبع الأهواء في سرف (3)

وقد علق عبد القادر أبو شريفة على ظاهرة التكرار بقوله: " وقد يكون التكرار بإعادة الكلمة أو العبارة، وعلى الناقد دراسة ظاهرة التكرار في القصيدة ليتحقق من أنه أدى غرضا أو أنه ضعف أو استرسال وراء صنعة بديعية " (4).

ونرى كثرة تكرار الشاعر لأداة النداء الياء، ولم يأت الشاعر بها إلا من أجل الالتفات والانتباه للمدوح من جهة، والمعنى المكرر الذي جاء به الشاعر من جهة

1 - العماد الأصبهاني، خريدة القصر وجريدة العصر، (قسم شعراء العراق) 208/3/1.

2 - نفسه، 212/3/1.

3 - الصرصية، الديوان، 335.

4 - مدخل إلى تحليل النص الأدبي، 50.

أخرى، فالرّسول هو السيّد، وهو منتهى الأمل في الملمّات، وهو فاتح الخيرات، وهو الهادي ومخرج الناس من الضّلالات، فهي دعوات صريحة من الشاعر للانتباه إلى هذا النبيّ الذي جمع كلّ الصّفات، وتكرار الأداة هنا لا يدلّ على ضعف أو استرسال أو جاء من أجل صنعة بديعيّة، يقول عبد الرحمن بن الجوزي:

يا نفس نلت المنى فاستبشري وسلي هـ هذا الحبيب وهذا خاتم الرّسل
يا درّة الأنبياء روضة العلما يا ملجأ الغربا يا سيّد الرّسل (1)

وإستخدم الزمخشريّ النداء مع الاستفهام والنفي، في ندائه للرّسول، يقول في لامبيته:

يا خاتم الرّسل إنّ الطول منك على راجي الشفاء يوم الحشر مأمول
فهل يخيب فتى لا حبل ذمته واه ولا عقده في الصّدق محلول
ولا اشتكت دخلا منه مناصحه ولا مناصح إلا وهو مدخول
ما مسّت الكأس يماناه ولا صدمت ففاه وكلهم بالراح معلول (2)

ومن باب استخدام الشعراء للأمر، فهذا الصرصريّ يحثّ الإنسان و يخاطب العبد ويدعوه للعودة إلى الله، لأنّ الدنيا مدبرة، يقول:

قم فبادر قبيل رفع النعوش حلبة السبق بق ذا إزار كمش
وتدبرّ خلق السّماء ففيها عبرة جمّة لذي التفتيش
وتفكر في خلقه الأرض تنظر عجبها في مهدها المفروش (3)

ومن الأساليب التي اتبعها شعراء المديح النبوي في العصرين، الحرص على ذكر الضمائر بأنواعها، الغائبة، و المخاطبة والمتكلمة، وملك النحاة من الشعراء المجيدين في هذا المجال، نظرا لعلاقته المباشرة بالنحو، وطول باعه فيه، فقد نوع في أساليبه عند

1 - صلاح الدين الهوراري، المولد النبوي الشريف، 100-101.

2 - علي عمرو، تحقيق ديوان الزمخشري ودراسة شعره، 265/2.

3 - الصرصريّ، الديوان، 251-252.

مدحه للرسول، وظف الضمائر توظيفا حسنا، واستخدم أدوات النداء، وأفعال الأمر وغيرها، يقول:

يــــا خــــاتم الأنبياء قاطبة أــــتــــاك لفظ الثناء يستبق
كنت نبياً وطيباً من آدم مجبول وتلك الأنــــوار تأتلق
وعدت فينا تدعــــــــــــو إلى سبل الحق فقد أوضحــــــــــــت بك الطرق
واشفع لمن عاد في ولائك مشــــــــ فوع القوافــــــــــــي تتلافتسق
تضـــــــــــــوع من مجدك الأئيل إذا استقبض ذكــــــــــــر أطيــــب فينشق (1)

وعلى النمط نفسه سار فتيان الشاغوري في مدحته، فقد استخدم الالتفات في الضمائر، ففي باب طلب الشفاعة في مدحته، يقول:

أوملــــــــــــــــــــ من خــــير الأنــــــــام شفاعة بها النعيم بالجنــــــــــــــــــــان أخلد
فأنــــــــــــت رســــول الله وهي شهادة أقــــــــــــرر بها حتى المعاد وأشهد
وددت بأنــــــــــــي زرت قبرك راجلا وقبــــــــــــلت تربا أنت فيها موسد
ومرغت خدي عــــــــــــد قبرك ضارعا بــــــــــــأرض حصاها لؤلؤ وزبرجد (2)

ومن الأساليب التي شاعت في ذينك العصرين ظاهرة الغموض خاصة عند الصوفيين الكبار أمثال: ابن الفارض وابن عربي، اللذين خلفا أروع الأمثلة في الحب الإلهي على مرّ العصور، فهما أبرزا الوجد المضطرم، والتلهف الضامئ إلى رؤية الذات العلية، مع اتخاذهما لغة الحب العذري وسيلة للإحاطة بدقائق الأمور، وقد أجج هذا لهيبا وجدوة لا تنطفئ نيرانها في نفس كل واحد منهما (3)، يقول ابن الفارض في مديح الرسول صلى الله عليه وسلم، وقد أوقف محبته عليه:

وإن اكتفــــــــــــى غيري بطيف خياله فأــــــــــــــــــــنــــــــــــ الذي بوصاله لا أكتفي
وقفا عليه محبــــــــــــتي ولمحتني بأقلــــــــــــ من تلفي به لا أشتفي

1- كمال الدين بن العديم، بغية الطلب في تاريخ حلب، 2393/5.

2- فتیان الشاغوري، الديوان، 109.

3- شوقي ضيف، الشعر وطوابعه الشعبية على مرّ العصور، 176.

وهو واو وهو أليتي وكفى به قسما أكـــــاد أجله كالمصحف
لو قال تيتها قـــــف على جمر الغضا لوقفت ممتثلا ولـــــم أتوقف
أو كان من يرـــــى بخدي موطنا لوضعتـــــه أرضـــــا ولم استنكف (1)

ولا شك بأنّ هذا الأسلوب قد شاع في العصرين والعصور اللاحقة، إذ تأثر الشعراء
بذنيك الشعارين الكبيرين، فالشعر الصّوفي يسمو بالوجدان، وتتكشف أحاسيس النفس،
كما ويحمل نظرة ذاتية تظهر بادية بوضوح فيه أكثر من غيره (2).

ومن الأساليب التي شاعت عند بعض شعراء المديح ميل البعض منهم في هذين
العصرين إلى ظاهرة السرد التاريخي في المدائح النبوية، حيث يقوم الشاعر بسرد سيرة
الرّسول محمد منذ حملت به آمنة حتى وفاته، يقول الصّرصريّ في قصيدته النونية:

لما اصطفى الله الخليـــــل وزاده شرفا ونجّاه مـــــن النيران
اختار إسماعيلـــــي من أولاده وبني كنانة من بني عدنان
ثمّ اصطفى مني منهم قريشا واصطفى أبناء هاشم الفتى المطعان
ثمّ اصطفى خيـــــر الأنام محمدا من هاشمـــــم فسمت على قحطان
وبـــــدت لآمنة الحصان لحملها بأخفّ حمـــــل راجح الميزان
حتى بـــــدت أنواره في وضعها فرأت قصـــــور الشام رؤية داني
ولدته عـــــام الفيل يوم اثنين فاح ستاز الفخـــــار بفضلـــــه الاثنان
بريـــــع الأدنى بثاني عشرة وبـــــوافق العشرين من نيسان
وتحدّثت بـــــولاده الأبحار والرّه بـــــبان والواعـــــي من الكهان
خمدت له نار المـــــجوس وزلزلت مـــــمع الانشاق جوانب الإيوان
فمضى الرّسول إلـــــى سطيح سائلا فأتـــــى الجواب إلى أنوشروان (3)

1 - الحسن البوريني وعبد الغني النابلسي، شرح ديوان ابن الفارض، 202-203.

2 - ينظر محمد زغلول سلام، تاريخ النقد العربي من القرن الخامس إلى العاشر الهجري، 32/2.

3 - الصرصريّ، الديوان، 551.

وقد زادت القصيدة على ثمانمائة بيت من الشعر، يسرد الشاعر فيها سيرة المصطفى محمد صلى الله عليه وسلم ، بأسلوب سهل بعيد عن الغموض والتعقيد، وحرص فيه الشاعر على انتقاء المعاني المناسبة، والألفاظ الموحية، بعيدا عن كل ما يأتي بالطنن من كلف وغيره .

ومن الصفات الأسلوبية التي برزت في المدائح النبوية عند شعراء العصرين الواقعية، فالشعراء عندما نظموا تلك المدائح جاءت من صلب واقعهم المعاش، فتجربة الشعراء المريرة مع الحياة، والنظرة التشاؤمية من الأحزان والآلام، وواقع الأمة المرير وتلك الهجمات التي أرادت النيل من الأمة دفعت هؤلاء الشعراء إلى الشكوى ورفع المظالم إلى جناب الرسول ليخلصهم من واقعهم المظلم، وكأنها محاولة من الشعراء للربط بين واقعين؛ الزمن المعاش بكل ما فيه، وزمن الرسول بما تعرض له ، ولكن بفضل الله قيام الفئة المؤمنة تم قمع الظالمين والانتصار عليهم في كل الميادين.

واستخدم شعراء المديح النبوي في العصرين أسلوب الحوار في قصائدهم التي مدحوا بها النبي محمدا، وقد ورد هذا الأسلوب عند البلاغيين بمسميات عديدة منها: السؤال والجواب، والمراجعة، ولكن ابن حجة الحموي لم يوله كبير أهمية، ولو فوض أمر البديع إليه ما عدّه من البديع ولما أدرجه ضمن صنوفه (1)، وقد كثر هذا الأسلوب عند الصرصري الذي يقول:

قــــــــــــــــال أشياخنا هي البلد الجامع فيه تــــــــــــــــكون دار الإمام
ثم قالــــــــــــــــوا عبيد برك يهدي كلّ وقــــــــــــــــت إليك أركى سلام
قــــــــــــــــل إلهي ثبت قلوب رجال عن حريم الإسلام أضحت تحامي (2)

ويظهر شغف شعراء المدائح النبوية من خلال استخدامهم لفنون البديع، وليس في شغفهم وجه غرابة، فهم أبناء عصر قد طغت عليه الصنعة اللفظية والمعنوية بشكل بارز

1- ينظر ابن حجة الحموي، خزنة الأدب، 218/1.
2- الصرصري، الديوان ، 504-507.

ولافت ، حيث تجد الجنس والطباق، وردّ الصدر على العجز، والتورية، وغيرها من تلك الفنون الرائعة التي أضفت جمالا على جمال المدحة النبوية، فجاءت لوحة معبرة بكلّ المقاييس، مزينة بصنوف الفنون.

وفي معرض شغف شعراء الأيوبيين بفنون البديع تقول نجية فايز حافظ: " يعد العصر الأيوبي عصر الصنعة والإسراف البديعي؛ فقد وجد فيه كثير من الشعراء مثل القاضي الفاضل، وابن سناء الملك، وابن النبيه، وابن الفارض، وغيرهم ممن يمكن أن يطلق عليهم أتباع مدرسة البديع، لما أولوا هذا الفن من اهتمام زائد وصل بهم حدّ العناية لذاته، هذه المدرسة التي يعدّ الأديب الشاعر القاضي الفاضل رئيسها دون منازع" (1)، لذلك لم يعيش شعراء المديح النبويّ بمعزل عن هؤلاء الشعراء أو ذلك العصر، وإنما عاينوا العصر وظروفه وتأثروا بتلك الصنعة الطاغية عند غيرهم .

ومع أنّ البديع مما أخذ على هذا العصر، وما سبقه من العصر العباسي إلا أنّ البلاغيين قد جعلوه وسيلة لتحسين الكلام ، وإجلاء المعنى وتزيينه، ولكنّ تعلق الشعراء به . من وجهة بعض النقاد والباحثين . وبحثهم عنه جرّد الشعر من روعته وأصابه الإسفاف، وهذا ظهر جلياً منذ منتصف القرن السابع الهجري (2)، فمن صنوف البديع الذي انتشر في قصائد المديح النبويّ الجنس (3) التام ، يقول الزمخشري:

أتلكم برقعة من عارض ومضت أم عارض بالبشام اللدن مصقول (4)

فقد جانس الشاعر بين (عارض) الأولى وهي بمعنى السحاب الذي يعترض أفق السماء، و(عارض) الثانية وهو ما يظهر من الفم عند الضحك، ومن الجنس التام الذي يرد في الأبيات المتوالية، قول ابن جبير:

1 - البهاء زهير حياته وشعره، 135. رسالة ماجستير ، جامعة اليرموك، 1988.
 2 - بسيوني عبد الفتاح فيود، علم البديع دراسة تاريخية وفنية لأصول البلاغة ومسائل البديع، 113-114.
 3 - الجنس : أن تكون في الشعر معان متغايرة قد اشتركت في لفظة واحدة وألفاظ متجانسة مشتقة. أحمد مطلوب، معجم المصطلحات البلاغية وتطورها، 265. وينظر الرعيبي الغرناطي، طراز الحلة وشفاء الغلة، وهو شرح للحلة السيرا في مدح خير الوري لمحمد بن جابر الأندلسي، حيث أورد المؤلف ستين نوعا للجناس .
 4 - علي عمرو، تحقيق ديوان الزمخشري ودراسة شعره، 263/2.

فعالج أمراض القلب — وب بنورها — وأنقذها — من سقمها وشفاها
 وكانت — من الكفر المبين على شفا — فزخرها — من موبقات شفاها
 عليه سلام الله — للاح بارق — وروى الرّياض الناعمات نداها
 وما بقيت — من تابعيه عصابة — يمت ويحيي — بأسها ونداها (1)

فقد جانس الشاعر بين (قناها) وهي الرّماح، و (قناها) من القنيّ - الادخار، وجانس
 بين (تلاها) وتعني جاء بعدها، و (تلاها) رتلها، كما جانس بين (شفاها) من الشفاء أي
 العلاج، و (شفاها) حافة البئر، وفي البيتين الأخيرين جانس بين (نداها) الماء الخفيف، و
 (نداها) أي العطاء، ومن أمثلة الجناس المركب المفروق قول الزمخشري في قصيدته
 الكافية:

من القاصرات الطرف غير فوارك ولكن لجنات القلب — وب فوارك (2)

حيث جانس الشاعر بين (فوارك) من الفارك أي المرأة التي تبغض زوجها، و (الفرك)
 أي ذلك الشيء حتى ينقلع قشره عن لبّه، ويرد الطباق كثيرا في المدائح النبوية، يقول
 فتیان الشاغوري في مدحته:

إليك رسول الله مّي ألوكة حنانيك — د يحنو على العبد سيّد
 شواحب ألوان براها لغوبها بغيفاء فيها — الأبيض اللون أسود (3)

ومنه قول الصّصريّ:

لقد حصرنا حتى كأننا — أسارى فيك ليس لنا فداء (4)

ومن أمثلة الإيداع (5) الوارد في المدحة النبوية، قول ابن قزل:

فيا خير مبعوث وأكرم شافع — وأنجح مأمول وأفضل موئل

1 - الصّصريّ، الديوان، 619-620.

2 - علي عمرو، تحقيق ديوان الزمخشري ودراسة لشعره، 16/2.

3 - فتیان الشاغوري، الديوان، 109.

4 - الصّصريّ، الديوان، 29.

5 - التضمين: أن يتوقف البيت في معناه على البيت الذي يليه. انظر ابن حجة الحموي، خزنة الأدب، 311/2.

عليك سلام الله بـ _____ د صلاته كما شفـع المسك الفتيق بمندل (1)

ويظهر فنّ التوجيه بكثرة عند شعراء المدائح النبوية، وخاصة بذكر أسماء السور القرآنية، وتعداد أسماء الأنبياء والملائكة والشخصيات، أو بذكر البقاع والأماكن، ومن أشهر الشعراء الذين أكثروا منه في مدائحهم ابن الساعاتي في مدحته، فهو يقول:

ولم يجـ _____ ب آدم في دعوته نعم ولم يـ _____ ك قابيل وهايل
 كم برّدت غلة مـ _____ ن ماء كوثره إذن وكـ _____ م فكّ مصفود ومغلول
 الخمسة الغـ _____ ر لم يقض اجتماعهم إلا وسادسهم فـ _____ ي الجمع جبريل
 فعنهم أـ _____ ذ التنزيل أجمعه في الكافـ _____ رين وفي الباغين تأويل
 قوم لهم زـ _____ م لا دفع عنه ووضع الركن لما تعـ _____ طاطته البهليل
 والبيت نـ _____ كب عنه الفيل مكرمة لهم فلولاهم مـ _____ ا نـ _____ كب الفيل (2)

ومن فنون البديع التي جاءت في أشعار المديح النبويّ، فنّ الطرد أو العكس وهو "تقديم لفظ من الكلام ثم تأخيره، ويقع في وجوه كثيرة" (3) ومن أمثله عند الصّصريّ:

بدا لنا وجـ _____ ه محبوب لنا صلف تحت الدجى جـ _____ اب عنا حندس الظلم
 وجـ _____ ه محبوب لنا صلف جـ _____ اب عنـ _____ ا حندس الظلم
 بدا لنا وجـ _____ ه محبوب لنا صلف جـ _____ بينه خلـ _____ ست صباحا في أسرته (4)

وعليه يمكن القول بأنّ الأسلوب قد تنوّع في تلك المدائح بين الرّقة والجمال، والقوّة والفخامة والرّصانة. وإن شغف الشعراء بإيراد صنوف البديع الذي لم يقصد لذاته من وجهة نظري، وإنما جاء تزيينا وإضافة لجماليّات المدحة النبوية. وجاء موافقا لذوق النقاد على هذا الصّعيد، وقد طابق الشعراء بين الألفاظ والمعاني المستخدمة، وطبيعة

1 - ابن قزل، الديوان، 339.

2 - ابن الساعاتي، الديوان، 48-49.

3 - ابن حجّة الحموي، خزنة الأدب، 1/354. وانظر أسامة بن منقذ، البديع في البديع في نقد الشعر، 78.

4 - الصّصريّ، الديوان، 519-521.

المفردة التي جاؤوا بها ضمن المدحة النبوية، وهذا الأمر يحسب لهم وللعصر الذي مثلوه .

ومن غير شك فإن اللغة تأتي على رأس الهرم فيها، وهي التي تشير بالبنان إلى كل عصر وإلى أهله، وتدلل على النواحي العقلية والاجتماعية لذلك العصر، وبصرف النظر عن تطور اللغة أو تأخرها أو تعرضها للهنات والانتكاسات في بعض الأحيان، إلا أنها ظلت باقية ومحافظة على ثوابتها الأصيلة التي لن تحيد عنها في يوم من الأيام، كيف لا؟ وقد تكفل لها الله بذلك .

والنقاد القدماء لم يغفلوا ما للغة من أهمية في بناء العمل الأدبي، وإنما أولوه الأهمية الكبرى، فهم دعوا إلى البعد عن استعمال الوحشي، أو اللغات النادرة عند العرب، ولو كان الشعر جيّدا (1).

ومنهم من دعا إلى خروج اللغة المستعملة في الشعر مخرج النثر، حيث السهولة وحسن النظم، لذلك نرى ابن طباطبا يقول: " فمن الأشعار المحكمة المتقنة المستوفاة المعاني الحسنة الرّصف، السلسة الألفاظ، التي قد خرجت خروج النثر سهولة وانتظاما، فلا استكراه في قوافيها ولا تكلف في معانيها" (2)

ولم يختلف النقاد المحدثون في نظرهم إلى اللغة، لهذا نراهم يدعون إلى السهولة، وملاءمة اللغة للعصر المعاش، من حيث القرب والحسن، والبعد عن التكلف وغير المفهوم لأنّ الشاعر لا ينظم لذاته.

ولا شك في أنّ الأديب الناجح هو الذي يستخدم لغة الحياة المعاصرة، إذ لا يجوز له أن يبلغ من فنه ما يريد دون مشاركة الجماعة، فهو لا يستطيع العيش بمعزل عن الناس في برج عاجي، ويختار لنفسه لغة خاصة لا يفهما معاصروه، وإذا ما صنع فإنه ينافي بذلك طبيعة العمل الأدبي، فمن أخصّ خصائص العمل الأدبي أن يكون الأديب قادرا على

1 - ينظر ابن قتيبة، الشعر والشعراء، 88/1.

2 - عيار الشعر، 49.

توصيل ما لديه من تجارب للآخرين، ويخضع اللغة لمدلولات الألفاظ التي تحددها الجماعة التي اصطلحت على مدلولات ومصطلحات يعرفها المجتمع حق المعرفة، وإلا اتهم بالشذوذ. (1)

ومن بين الجوانب الهامة التي اتفق عليها الأقدمون والمحدثون من النقاد، سلامة اللغة من الأخطاء النحوية والصرفية واللغوية التي هي شرط أساسي لجمالية القصيدة العربية. (2)

وقصيدة المديح النبوي في العصرين الزنكي والأيوبي جاءت موافقة لما طلبه النقاد من حيث السهولة، ومجاراتها للعصر الذي انبثقت فيه، وخلت القصيدة من الألفاظ الغريبة إلا عند بعض الشعراء، فاللغة راوحت بين ما هو تقليدي خاصة في المقدمات التي افتتح بها الشعراء قصائدهم، وأحاديثهم عن الرحلة والديار، وبين ما هو موافق لنمط العصر وفيها نحا الشعراء جانب السهولة والوضوح وابتعدوا عن الوعر أو الخشن من الألفاظ.

ونظرا لغلبة الطابع الديني على قصيدة المديح النبوي، نجد الأثر الديني يظهر بجلاء ووضوح على صعيد الألفاظ التي تميّزت بالسهولة، وهذا ليس بالأمر الغريب، فالمديح خصّ النبي محمداً، لذا استمدّ الشعراء ألفاظهم ومعانيهم التي أوردوها ضمن قصائدهم من الموروث الديني الهائل، فالقرآن الكريم والسنة النبوية كانا بمثابة القاموس الذي رقد الشعراء، وبذلك انحرف الشعراء عن الغموض إلا عند الشاعر الصرصري في بعض مقدماته التي حضرت فيها الرمزية بشكل لافت إلى الحد الذي يحتاج فيه القارئ إلى مصاحبة القاموس ليستدل على المعاني الواردة في القصيدة، فهذا الصرصري في مدحته النبوية الصادية يقول:

وللجيش حقاً مــــــن أصابع كفه تدفق مــــــاء في الإناء غريض⁽³⁾
وخذت إليه الأرض وهــــــو بمكة من الدوح قنــــــواء الفروع ربوض⁽¹⁾

1- ينظر محمد زكي العشماوي، قضايا النقد الأدبي بين القديم والحديث، 25.

2- ينظر يوسف بكار، بناء القصيدة في النقد العربي القديم في ضوء النقد الحديث، 146.

3- الغريض: الطير من اللحم والماء والتمر واللبن. الفيروز أبادي، القاموس المحيط، 878/1. (غرض)

وروى الصّداء من درّ عجفاء حايِلٍ تمكّن من هـ الهزلُ فهي رفيض⁽²⁾
 وأبقي لــــذات الشاء ملء إنائها وذلك للرّهــــط الظماء يريض⁽³⁾
 وذلت له الآســــادُ حتى لقد جثا أويــــسُ علــــى باب البقيع ربوض⁽⁴⁾
 فبا خير هــــاد طهّر الأرض بالهدى من الرّجــــس والأوثان فهو رحيض⁽⁵⁾

ويظهر الشاعر براعة في الإتيان بالألفاظ الوعرة، التي هي ألفاظ ثقيلة على الألسنة، وهي بعيدة كلّ البعد عن التنعيم الموسيقي الذي من المنتظر أن تحدثه الألفاظ باتحادها مع بعضها بعضاً، وقد علق مخيمر صالح على إيراد مثل هذه المقدمات بقوله: " وقع فيهما أسيراً للتكلف والتحدلق، ولا يمكن تفسير ذلك إلا إذا قرنا هذه الظاهرة بما عرف عنه بأنه كان يحفظ صحاح الجوهرى بتمامه، فأراد أن يكشف عن درايته وقدرته على حفظ الألفاظ والتراكيب وخاصة الوعر والمستعصي منها وكان ذلك على حساب فنه الشعري"⁽⁶⁾.

على أنه في المقابل لا يمكن إغفال الشعراء الذين نحوا جانب السهولة، فالرصريّ في أغلب قصائده يلتزم جانب السهولة والوضوح في إيراد الألفاظ الخفيفة على السّمع والتي تحدث تنغيماً موسيقياً تطرب لسماعها الأذن، وقد أوردنا أمثلة كثيرة من شعره تدل على ما ذهبنا إليه، ونورد منه قوله:

تبارك ربّنا هــــادي الحيارى إلى قصــــد السبيل وعزّ جاراً
 وسبحان الــــذي ذراً البرايا بصنع لا يحــــدّ ولا يبارى
 وقدّر للــــورى أجلا وورزقا وقدّر فيه عــــســــرا أو يسارا
 وسكان الــــمساء له عبيد ومن سكــــن البراري والبحارا⁽⁷⁾

1 - قنواء: أي شجرة طويلة. الفيروز آبادي، القاموس المحيط، 2/1738. (قنو) ربوض: عظيمة. الفيروز آبادي، القاموس المحيط، 1/870. (ربوض).

2 - الرفيض: المتروك. الفيروز آبادي، القاموس المحيط، 1/871. (رفض)

3 - يريض: يكفي. الفيروز آبادي، القاموس المحيط، 1/863. (يرض)

4 - الأويس: الذئب. الفيروز آبادي، القاموس المحيط، 1/731. (أوس)

5 - الصّرصريّ، الديوان، 263.

6 - المدائح النبوية بين الصّرصريّ والبوصيري، 300.

7 - الصّرصريّ، الديوان، 160.

ومن بين الشعراء الذين مالوا إلى استخدام الغريب في ألفاظهم الزمخشري، الذي يعد من الضالعين في اللغة، ومن أنتمها البارزين، والمتشبهين بأصالة لغته، حيث تظهر لغة البادية بفصاحتها وأصالتها وجزالتها مع قوة أسرها، فهو يقول في كافيته:

أدار الأولي حلوك أين أولئك أراك محــــــــــــــــلا للظباء الأوارك⁽¹⁾
 وبس معوضات ظبــــــــــــــــاء أوارك مكان ظبــــــــــــــــاء الأنس فوق الأرائك⁽²⁾
 لسرعان ما صــــــــــــــــاح الغراب بينهم وفوجئت منهم بالــــــــــــــــرحيل المواشك⁽³⁾
 كأنني لم أنظر إليــــــــــــــــ الحي صادعا عصي النوى بيــــــــــــــــن اللوى فالدكادك⁽⁴⁾

من خلال الأبيات السابقة وغيرها، يظهر الشاعر ويدل على تعلقه بالبادية، وذلك من خلال الألفاظ التي يبدو فيها قريبا من الشعراء الجاهليين عندما كانوا يفتتحون قصائدهم أو معلقاتهم، لذلك ينطبق عليه وصف عبد الستار ضيف عندما قال: " وهو من هؤلاء الشعراء الذين آثروا أن يكونوا بدوا في لغتهم، وإن كانوا متحصّرين في حياتهم " (5).

ولا يخفي الشاعر تأثره الكبير بالقرآن من خلال الاستفادة من الألفاظ التي أوردها القرآن في سوره، (الأرائك، صادع) ولا شك بأن الاستفادة من ألفاظ القرآن ومزجها بيداوة الصحراء تدل على مقدرة ومملكة لغوية بارعة من الشاعر.

وينحرفيان الشاغوري منحى السهولة وعدم الحذقة في إيراد الألفاظ، فقد ابتعد فيها عن الخشونة، أو تلك التي تمجّها الآذان، ويظهر ذلك في طلبه للشفاعة، وتحميله الرسالة للزوّار المغادرين للديار الحجازية، يقول:

ألا أيها الـــ زوّار بالله بلغوا سلامـــي إليه وارفقوا وتأيدوا
 وقولوا لـــه فتیان يشكو صباة إليـــك ووجدا حرّه ليس يبرد

¹ - ورك في المكان: أقام به. الأوارك: جمع أركة، وهي التي ترفع الأراك. الفيروز آبادي، القاموس المحيط، 2/ 1266. (ورك)

² - الأرائك: جمع أريكة، وهي السرير أو الفراش. الفيروز آبادي القاموس المحيط، 2/ 1234. (أرك)

³ - المواشك: السرير. الفيروز آبادي، القاموس المحيط، 2/ 1267. (وشك).

⁴ - علي عمرو، تحقيق ديوان الزمخشري ودراسة شعره، 14/2.

⁵ - جار الله محمود عمر الزمخشري حياته وشعره، 251.

يرجى غــــدا تبريد غلته إذا شغفت له في الحشر والحوض مورد(1)

ونظرا لاختلاط العرب بغيرهم في العصرين الزنكي والأيوبي، يبدو التأثر واضحا بثقافات الأمم الأخرى، ويظهر ذلك بجلاء من خلال الألفاظ والمفردات التي استعملها الشعراء، لذلك يطالعنا شعراء المديح النبويّ - في هذين العصرين - باستخدامهم للكلمات الفارسيّة في قصائدهم، مثل (الزبرجد، والياقوت، والعقيق، والمرجان، والنيروز)⁽²⁾ كما استخدموا الألفاظ ذات الأصل اليوناني، مثل: (الإبريز)، ومن ذلك يقول عبد الرّحيم بن الأخوّة:

وأذرى النــــوى دمعي خلال دموعها كما نظم الياقوت والدرّ في العقد (3)

ويقول عليّ العمراني حيث يذكر الجمال (وهي لفظة فارسيّة):

مهما تذكــــرتهما فاض الجمال على خديّ بالإثم الهنديّ مكحول (4)

وتكثر في أشعارهم المصطلحات والألفاظ التي تدل على ما استوعبه هؤلاء الشعراء من ثقافة فقهية، ونحوية، وعروضية، وصرفية، وكلامية، يقول ملك النحاة:

هل سامــــع يا رسول الله أنت لمن ولاؤه لــــك مرويّ ومنقول
ولترضك الصلــــوات الغرّ دائمة يزين أمراطها مــــاشئت ترفيل (5)

وفي تبيان فضل القرآن الكريم وما حوى، حيث يستخدم المصطلحات الدينيّة (من القرآن والحديث النبويّ) ممزوجة بالمصطلحات اللغوية، ويقول عبد المحسن التنوخي:

يزيد فيها إذا مــــا زدتها نظرا على الفحــــول لها خلق وتعديل

1 - فتیان الشاغوري، الديوان ، 110.

2 - ينظر آدي شير، معجم الألفاظ الفارسيّة العربيّة، في صفحات متفرقة.

3 - العماد الأصبهاني، خريدة القصر وجريدة العصر، 213/3/1.

4 - ياقوت الحمويّ، معجم الأدباء، 375/5.

5 - كمال الدين بن العديم، بغية الطلب في تاريخ حلب، 2393/5. والترفيّل: من المصطلحات العروضيّة، وهو ما زيد عليه سبب خفيف فتصير "متفاعلن" "متفاعلتن". عبد العزيز عتيق، علم العروض والقافية، 61.

كأنما ثغرها درّ إذا ابتسمت وريقها سحرًا بالراح معلول (1)

فالشاعر تخيّر مفردة (القلب) ولم يتخيّر (الفؤاد) وهنا يدخل عنصر الذوق والشعور في اختيار المفردة، وتخيّر (ثغر) ولم يتخيّر الأسنان التي في الفم مع أنه أرادها، وهذا ذوق بلاغي جميل في انتقاء المفردة، وهو في غاية الحسن لفظا وسبكا عندما وقف ليشبه الثغر بالدرّ .

وتشيع في لغتهم مجموعة الممكنات أو الضرائر التي أجازت العرب شيوعها في الشعر دون الكلام، سواء كانوا مضطرين أو غير مضطرين، مع أن الأصل هو مراعاة سلامة الوزن، وأي زيادة أو نقص تخرجه من عن طريق الشعر (2) .

ومن الضرائر التي كثرت في قصائد المديح النبويّ قصر الممدود، والنحويون مجمعون على جوازه (3) ، يقول عبد الرحمن بن الجوزي:

يا درّة الأنبيا يا روضة العلما يا ملجأ الغربا يا سيّد الرّسل (4)

ف " الأنبيا " و " العلما " و " الغربا " ممدودات ، وقد قصرها الشاعر للضرورة بحذف الألف التي قبل الهمزة، ومنه قول عبد الرّحيم بن الأخواة:

آثاره مشهورة وخلاله مشكورة وصفاته تعيي الثنا (5)

ومن الضرورات التي برزت صرف الممنوع من الصرف، مثل قول ابن قزل:

1 - ياقوت الحموي، معجم الأديباء، 374/5-375.

2 - ابن عصفور الإشبيلي، ضرائر الشعر، 7.

3 - نفسه، 90-93.

4 - صلاح الدين الهواري، المولد النبوي الشريف، 101.

5 - العماد الأصبهاني، خريدة القصر وجريدة العصر، (قسم شعراء العراق) 210/3/1.

تحمّلن منا كــــلّ أشعثَ أغبرٍ فيــــا عجباً من رحلها المتحمّل (1)

فقد صرف الشاعر "أغبر" مع أنّ حقها المنع لأنها على وزن أفعال، والضرورات كثيرة ولكن يضيق المجال لتبعتها والتمثيل عليها في هذا الموطن.

وبذلك نرى أنّ الشعراء أبقوا على قدر كبير من الفصاحة ، فهم وإن كانوا مقلدين فهذا لا يضيرهم في شيء، أضف إلى ذلك طغيان روح العصر عليهم في انتقاء الألفاظ السهلة التي لا تصل إلى حدّ الابتذال، وبذلك يستطيعون الوصول إلى قلوب الشعب الذي شغف بتلك المدائح ولاقت رواجاً قلّ نظيره عند العامة وغيرهم، أضف إلى ذلك فإنّ إيرادهم لتلك الألفاظ يدل على مقدار ثقافة هؤلاء الشعراء الذين عنوا بتراث الشعر وبلغته الواضحة والصّحيحة .

1 - ابن قزل ، الديوان ، 336.

2. الموسيقى:

للموسيقى دور أساس للعمل الشعريّ، إذ لا يمكن للشاعر أن يستغني عنها، فالمتلقي بحاجة إلى وسائل تسهّل عليه إشباع الحواس، والحاسة التي لها كبير الأثر عند الإنسان هي حاسة السّمع التي تتواءم معها الموسيقى بشكل كبير، من هنا يرى حازم القرطاجني أن هناك سلسلة من الروابط التي تجمع بين الموسيقى والمعاني المؤدّاة، فالألفاظ ذات العذوبة والحلاوة تتأتى بحسن المواد والصيغ والائتلاف، وكذلك تقارب أنماط الكلم في الاستعمال (1).

وقد حدّد إبراهيم أنيس شرط ذيوع الشعر بقوله: " وشرط ذيوع الشعر وشهرته أن تستمتع آذان الناس بموسيقاه قبل استمتاعهم بمعانيه ومراميه، فنغمته الموسيقية تلذّ السّامع أيا كانت بيئته الاجتماعية، وهي هي يسمعها في شعر هذا وشعر هذا " (2).

ويشير شوقي ضيف إلى أنّ الأوزان وجدت مع الشعر، لذلك يرى بأنّ الشاعر لا ينطق شعره بلغة عادية، وإنما يأتي به موزوناً، وبذلك يأتي ليلبي فينا غريزة أو فطرة نشأت قبل أن تنشأ اللغات (3).

ويرى الباحث أنّ تلاحم الموسيقى في القصيدة الشعرية في نسق متحد بين المعاني والألفاظ والصّور والعواطف والأخيلة يرتبط ارتباطاً وثيقاً بالانفعالات النفسية عند الشاعر حال نظم القصيدة الشعرية، وبذلك يمكن مشاهدة اللحمة أو الوحدة بين أجزاء القصيدة الواحدة، وعلى أساسها يتمّ القبول أو النفور من السّامعين، أو المتلقين .

وعند الحديث عن قصيدة المديح النبوي في العصرين الزنكيّ والأيوبي من ناحية الموسيقى، فإننا سنتناولها وفق التقسيم التالي:

1 - ينظر منهاج البلغاء، 225.

2 - موسيقى الشعر، 186.

3 - في النقد الأدبي، 99.

. الوزن . . القافية . . المحسنات اللفظية .

الوزن :

وبما أنّ الأوزان من المقومّات الأصليّة للشعر العربيّ ، وهي التي تحدث الفارق بين الشعر والنثر، وفي هذا المقام لا يمكن لنا أن نغفل اللحمة بينها وبين القافية، فاتحاد الوزن مع القافية يضيفي جماليات على الشعر ويجلب الجاذبيّة، ويبعث الانفعال النفسي للموسيقى الحادثة، كما تأسر القلوب ، وتجلب الرّاحة للأذن.

وبذلك نرى اهتمام شعراء المديح النبوي بالأوزان ، ولم يخرجوا عن الإطار الجاهلي أو القرون التي تلت، وإنما ظلّ الشعراء محافظين على الأوزان، مع العناية بوزن على حساب الآخر، لهذا سأورد جدولاً يبيّن فيه البحور التي نظم عليها شعراء المديح النبويّ قصائدهم، مرتبة حسب عدد الأبيات من حيث الكثرة، ومشفوعة بذكر عدد الأبيات التي قيلت في كلّ بحر من البحور التي نظموا قصائدهم على أساسها، لمشاهدة البحور التي أغفلها الشعراء، مع ضرورة التنبّه إلى أنّ القصائد ، أو الأبيات المذكورة لا تمثل حصيلة ما نظمه هؤلاء الشعراء:

الرقم	البحر	عدد مرات الاستعمال	عدد الأبيات
1.	البسيط	12	344
2.	الكامل	12	340
3.	الطويل	7	135
4.	المتقارب	6	76
5.	الوافر	5	50
6.	الخفيف	2	28
7.	المنسرح	1	7
8.	السريع	1	6
9.	الرمل	1	6

يتضح لنا من خلال الجدول السابق أن الشعراء مالوا إلى النظم على البحور الأكثر شيوعاً، فالكامل والطويل والبسيط من أكثر الأوزان شيوعاً في الشعر العربي القديم⁽¹⁾، وبذلك هم مسايرون لما عرف عن هذا البحر، وهو من البحور التي تحمل الأوزان ذات الإيقاعات القصيرة.

كما نشاهد أن الشعراء مالوا إلى استخدام البحور ذات التفعيلتين نظراً لأنها محبوبة إلى النفوس ومقبولة في الأذان، ومع ذلك لا نراهم يغفلون استخدام البحور ذات التفعيلة الواحدة مثل الكامل، والمتقارب، فقد جاء في المرتبة الثانية والرابعة، والمعروف أن البحور ذات التفعيلة الواحدة تضيء مزيداً من الموسيقى الخارجية التي تظهر بوضوح في القراءة.

ويلاحظ من خلال الجدول أن الشعراء لم ينظموا على أوزان الهزج والمقتضب والمتدارك والمديد، والسبب يعود ربما إلى ندرة النظم عليها، ولا تتوافق مع التنغيم عند النظم عليها في المدائح النبوية.

وبذلك نرى أن الشعراء في استعمالهم للبحور الشعرية كانوا متمشين مع الذوق العربي العام في نسبة الشيوخ على صعيد أشعارهم، كما يمكن القول إن طبيعة شعر المديح الخاص بالرسول فرضت على الشعراء الجديدة في انتقاء المعاني والألفاظ والأوزان من هنا تسنى لها الرواج والقبول عند الناس، كما يمكن القول بأن الأخطاء التي تخص الأوزان كانت قليلة، وهي تلك التي عمد الشعراء إليها لإقامة الوزن، فصرف الممنوع من الصرف، أو قصر الممدود والعكس وكل ذلك جائز للشعراء ولا خلاف عليه، فهو يقع ضمن الضرورات النحوية أو اللغوية .

¹ - ينظر إبراهيم أنيس، موسيقى الشعر، 64.

والملاحظ أيضا أنّ معظم النظم جاء على الأبحر الطويلة، وإن كانت هناك بعض البحور المجزوءة من مثل مجزوء الرّجز ومجزوء الكامل ، فقد وردت في ثلاث مناسبات ، وعدد أبياتها ثلاثة وخمسون بيتا .

ونمثل على الأوزان أيضا من خلال ديوان الصرصريّ الذي برع على صعيد المديح النبوي ، إذ أنّ أغلب هذا الديوان غلب عليه المديح للرّسول، وفيما يلي جدول يبيّن تلك البحور التي صاغ عليها الشاعر قصائده :

الرقم	البحر	عدد الأبيات
.1	الطويل	3139
.2	الكامل	2094
.3	البسيط	1848
.4	الخفيف	694
.5	الرّجز	366
.6	الوافر	307
.7	المتقارب	205
.8	المنسرح	146
.9	الرّمّل	104
.10	السّريع	70
.11	المتدارك	46
.12	المديد	38
.13	المحدث	34
.14	المضارع	24
.15	المجث	21
	المجموع	9526

ومن النظر في الجدول السابق يتبين أنّ الشاعر قد وافق ذوق الشعراء العرب من خلال اختياره البحر الطويل ونظم عليه أغلب أبياته، وبذلك استأثر نصيب الأسد من بين البحور الأخرى، مع العلم بأنه أكثر البحور الشعرية شيوعاً، فقد جاء ثلث الشعر نظماً على هذا البحر.

ويأتي البحر الكامل في المرتبة الثانية، ثمّ البسيط وهكذا، وكأني بالصرّصي يوافق مقدار شيوع البحور الشعرية من حيث النسبة عند العرب، وبهذا نرى أنّ الشاعر قد استعمل البحور جميعاً باستثناء بحر الهزج الذي لا يتواءم مع طبيعة الموضوع وهو من الأبحر التي عرفت بندرة النظم عليها.

ولم يغفل الصرّصيّ البحور المجزوءة فقد ركز على مجزوء الرجز الذي أورد منه مائتين وثمانية وثمانين بيتاً، ومجزوء الكامل الذي أورد منه خمسة وخمسين بيتاً شعرياً مع إغفاله لبقية البحور المجزوءة، وبذلك نرى أنّ الشاعر قد فتن بالبحور الطويلة.

وقد سلم الوزن الشعريّ عند الشاعر في أغلب شعره، ولكن تبقى الضرورات الشعرية طافية على السطح، فقد لجأ الشاعر إلى تلك الضرورات طلباً لسلامة الوزن مع أنها تبقى قليلة مع الحجم والكم الهائل لأبيات المديح النبوي التي نظمها.

القافية:

ولا تقلّ القافية في أهميتها عن الوزن، ومن النقاد القدماء الذين أشاروا إليها قدامة ابن جعفر فقال عند تعريفه للشعر: "إنه قول موزون مقفى يدل على معنى" (1)، ووضع لها شرطاً، وهو وجوب أن تكون عذبة سلسة المخرج، ويعتمد ذلك اعتماداً كبيراً على قدرة الشاعر وحسن إجادته، سعة بحرهِ (2).

¹ - نقد الشعر، 17.

² - ينظر نفسه، 51.

وقد عرفها إبراهيم أنيس بقوله: " عدّة أصوات تتكرّر في أواخر الأسطر أو الأبيات من القصيدة، وتكرّرها هذا يكون جزءاً هاماً من الموسيقى الشعريّة، فهي بمثابة الفواصل الموسيقيّة، يتوقع السّامع تردّدها، ويستمتع بهذا التردّد الذي يطرق الآذان في فترات زمنيّة منتظمة، وبعد عدد معيّن من مقاطع ذات نظام خاصّ يسمّى الوزن " (1).

أمّا بالنسبة لقصيدة المديح النبويّ، فكما تعدّدت البحور التي نظم عليها قصائدهم فإنّ القوافي (حروف الرّويّ) قد تعدّدت كذلك، والجدول التالي يوضّح الحروف التي جاءت في قصائدهم، ويحصي عدد الأبيات التي جاءت على كلّ رويّ:

الرقم	حرف الرّويّ	عدد مرات الاستعمال	عدد الأبيات
1.	اللام	17	393
2.	الميم	9	91
3.	الدّال	7	108
4.	الألف - الهمزة	4	119
5.	الرّاء	4	115
6.	الكاف	2	65
7.	النون	2	32
8.	الهاء	2	11
9.	الصّاد	1	60
10.	الطاء	1	27
11.	الحاء	1	12
12.	العين	1	11
13.	الياء	1	11
15.	الباء	1	10

¹ - موسيقى الشعر ، 246.

9	1	الغين	. 16
9	1	الفاء	. 17
7	1	القاف	. 18

ومن الجدول السابق يتضح أنّ شعراء المديح النبوي في العصرين الزنكي والأيوبيّ كانوا يبنون قصائدهم على حروف الرّويّ الشائعة في الشعر القديم، إذ جاء حرف اللام في المرتبة الأولى من حيث الاستعمال، ثمّ جاءت بعده حروف الميم والبدال والألف وهكذا، وهذه الأحرف شائعة الاستعمال في شعر الجاهليين، والأمويين، والعباسيين، وقد أقلّ الشعراء من استعمالهم لبعض الحروف التي كانت قليلة الاستعمال في العصور السّالفة، ولذلك نجد أنّ حرف الصاد، والقاف، والغين والفاء قد وردت مرّة واحدة.

ومن الملاحظ على حروف الرّويّ ورود حرفي الباء والعين مرّة واحدة مع أنّ هذين الحرفين من الحروف التي نظم عليها الشعراء السّابقون بكثرة، ونسبة شيوعها على مستوى المديح هو الغالب، ولكن يعزى كثرة الشيوع أو قلتها إلى ثقل الأصوات أو خفتها (1).

وهناك ملاحظة أخرى وهي ندرة استعمال حروف الثاء والشين والضاد، وهي أصلا قليلة الشيوع في استعمالها كحروف للرّويّ.

وباستقراء القوافي في شعر المديح النبوي في العصرين نجد سلامتها من العيوب، بل تجاوز الشعراء ذلك من خلال إيراد لزوم ما لا يلزم كما في قول علي بن محمد العمراني:

أضء بـرق وسجف الليل مسدول كما يهزّ اليماني وهو مصقول
 مهما تذكرتها فـاض الجمان على خديّ حتى نجاد السيّف مبلول
 كأنما هـي إذ ترخي ذوائبها بدر عليها رواق الليل مسدول (2)

1- ينظر إبراهيم أنيس، موسيقى الشعر، 248.
 2- ياقوت الحمويّ، معجم الأدباء، 374/5.

فالشاعر التزم في قافيته الواو واللام بالسكنة والحركة، كما تظهر بجلاء عدوبة الجرس والغنائية المطربة والموسيقى الراقصة ، وهذا من جماليات الموسيقى .

. المحسنات اللفظية :

تعدّ المحسنات اللفظية من الوسائل التي تكسب الشعر جماليات في موسيقاه، وكنا قد تحدثنا عنها في اللغة، ولا أرى ضيراً من ذكر بعض منها خاصة تلك التي ترتبط بالموسيقى ، ومن أهمها التصريح، وهو تقنية العروض بقافية الضرب، وقد أكثر شعراء المديح النبويّ منه، يقول الزمخشري :

قَامَتْ لَتَمْنَعِي الْمَسِيرَ تَمَاضِرٌ أُنْـلِي لَهَا وَغَرَارَ عَزْمِي بَاتِرٌ⁽¹⁾

ومن المحسنات التي برزت التصريح وهو أن يكون حشو البيت مسجوعاً⁽²⁾ ، يقول عبد المحسن التنوخي:

وَالدَّمْعُ مِنْهُمْ وَالشُّوقُ مَنْتَصِرٌ وَالصَّبْرُ مَنكسرٌ وَالقَلْبُ مَتَبولٌ⁽³⁾

والمحسنات اللفظية كثيرة عند شعراء المديح النبويّ، ولكن حشدها بالأنواع المختلفة لم يأت من فراغ وإنما جاء تحقيقاً لنغم موسيقيّ عذب .

¹ - يوسف النبهاني، المجموعة النبّهانيّة في المدائح النبويّة ، 2 / 110 .

² - ينظر أبو هلال العسكري ، الصناعاتين ، 416 .

³ - يوسف النبهاني ، المجموعة النبّهانيّة في المدائح النبويّة ، 3 / 33 .

3. الصّور الفنيّة والخيال :

مما لا شكّ فيه أنّ للتصوير أهميّة كبرى في أداء الأفكار، وفي أداء الأحاسيس التي يشعر بها الشاعر الفنان، وبذلك يزيّن أسلوبه، وقد تصل الصّور إلى حدّ الروعة، وبذلك تستحقّ الإعجاب، وهنا يبرز دور الشاعر في مقدرته الفنيّة، وقدرته على امتلاك ناصية البيان، ويزخرف قصيدته لتأتي لوحة فنيّة رائعة غناء، لذلك نجد الجاحظ يقول: " والشعر الذي يسرع إلى القلب قبوله ذلك الذي يصوّر لنا ما يدهشنا ويحسن تركيب الكلمات، وإنما الكلمات صور وعلامات وخلق مؤثّل ودلالات" (1) .

والصّورة الفنيّة ليست خاصّة بالشعر دون سواه، فقد وردت في القرآن الكريم، وفي السّنة النبويّة، وكذلك في الحكم والأمثال، وقد تميّزت تلك الصّور بجودة السّبك، ودقة التصوير، لذا بهر بها الأقدمون وحاولوا مجاراتها، ولكن أتى لهم ذلك؟ خاصّة تلك الصّور الفنيّة التي أوردها القرآن الكريم، فأحكام النسخ، وروعة الصّياعة والسّبك، جعلتها محطّ أنظار البلغاء والفصحاء الذين وقفوا عاجزين عن مجاراتها، فهي جزء من كلام الله الذي عجزت الجنّ والإنس على أن يأتوا بمثله.

وتأخذ الصّورة وجه المفاضلة بين الشعراء، من هنا حكم النقاد لشاعر على حساب آخر، وكانت الصّورة هي موضع النقد الذي يسبق الحكم، على أنّ الصّورة تعتمد اعتماداً كبيراً على ثقافة الشاعر، ومقدار ما وعاه من الموروث الحضاري والديني والتاريخي، وعندها يبرز قدرة فائقة في التعبير ونسج الصّورة، هذا بالإضافة إلى حسن وضعها في مكانها المخصّص (2).

وقد عرفها عليّ البطل قائلاً: " كلّ تشكيل لغوي يستقيه خيال الفنان من معطيات الحواس والنفس والعقل" (3)، وهي وحدة التماسك في العمل الأدبيّ، وسرّه والجامع

1 - الحيوان، 132/3.

2 - ينظر محمد حسن عبد الله، الصّورة والبناء الشعري، 22.

3 - الصّورة في الشعر العربيّ حتى أواخر القرن الثاني الهجري، 30.

بين أجزائه¹، بينما يمكن أن نشهد ربط الصورة الأدبية بالدلالة النفسية، وهذا يعود إلى مقدار الوعي بالخصائص النوعية للأدب (2).

والحديث عن الصورة ونظرة النقاد إليها ذو شجون، ولكن ما يهمنا هنا قصيدة المديح النبوي في العصرين الزنكي والأيوبي، فإذا ما تعرّضنا لها فإننا نجد بأنها ذات ارتباط بالموضوع الذي جاءت من أجله المدحة النبوية، ولا شك في أن الموضوع يغلب عليه الطابع الديني، لذا نجد أن الشعراء قد اعتمدوا اعتماداً كبيراً على الموروث الديني كأساس لهم في استقاء الصورة، فالقرآن الكريم والسنة النبوية رفدا هؤلاء الشعراء وكان الأساس في اختيار الصورة واستقائها، والأمثلة على ذلك كثيرة، منها يقول الصرصري:

والشمّ قد سيّرت والأرض مائـدة الـ	أرجـاء والعالم العلويّ قد هبطا
والناس مثل فراش قـد رأى لها	فانـبثّ أو كجراد ثار فانبسطا
والعرش يحمله الأمـلاك والحكم الـ	عدل الخبير علـى الكفار قد سخطا
وبرز النّار للترهيب خـازنها	وصـال بطشا على سكانها وسطا
وأكثر النّاس فيـها أمة شرفت	فـأصبحت في البرايا أمة وسطا
حازت بأحمد في الدنيا الفخار وفي الـ	أخـرى على حوضه يضحي لهم فرطا
هـاد بشير نذير مقسط نقضت	أحكامه كلّ حكم في الوري قسطا(3)

فهو يتأثر بالقرآن الكريم حيث يستوحي الصّور بنصّها، أو بمعناها، إلى الأمر الذي حدا به إلى أن يأتي بآيات كريمة مثل: [ألم نجعل الأرض مهادا] (4) وهذا سنتحدّث عنه في باب التناصّ مع القرآن الكريم .

وتأتي التشبيهات في المدائح النبوية في المنزلة الأولى، فخصيصة النبي محمد كانت المحور الأساس الذي دارت حوله تلك التشبيهات، لذلك عزف عليها أكثر الشعراء،

1- ينظر إحسان عباس، فنّ الشّعر، 207.

2- ينظر بشرى موسى صالح، الصّورة الشعرية في النقد العربي الحديث، 25.

3- الصرصري، الديوان، 270-269.

4- سورة النّبا، آية 6.

وحظيت باهتمام لافت، و نجد أن الشعراء وجدوا فيها صورة كاملة وناصعة للقيم الرفيعة التي يتمنى المادحون أن يجدوها في الممدوح، فجاء العزف على هذا الوتر من جهة، وحمل في طياته دعوة إلى أبناء الإسلام للتقيد بتلك القيم من جهة ثانية، علما بأن تلك النظرة إلى الرسول لم تتغير بتغير البيئات أو الأزمان أو حتى بتغير الشعراء .

وتظهر صورة النبي محمد من خلال التركيز على ذكر الصفات المعنوية، وأكثرها شيوعا بين الشعراء تشبيهمهم للرسول صلى الله عليه وسلم بالنور الذي يبدد الظلمة ، ووصفوه بالجدود، والشجاعة، والعفاف، وهو كهف العطايا، يقول شرف الدين الأنصاري:
 أمر عليـــــــــــــــــاك في الوري غير خاف فإليـــــــــــــــــك انتهى مدى الأوصاف
 تـــــــــــــــــم جــــــــــــــــودا للمستمحين معف واغتفــــــــــــــــارا عن المسيئين عاف (1)

ويتغنى الصرصري بأخلاق الرسول ، فالرسول رحيم، وحكيم ، وحليم، وعطوف ، يأتي بها الشاعر على شكل صور جميلة، يقول:

حليــــــــــــــــم حكيــــــــــــــــم سيــــــــــــــــد ماجــــــــــــــــد به أنارت مصــــــــــــــــابيح الدجــــــــــــــــى وأضا الشــــــــــــــــرق
 رؤوف رحــــــــــــــــيم مشفق متعطف سجيــــــــــــــــل له في الخلق قد عظم الخلق
 عفيف شريف مصلــــــــــــــــح متواضع تفجر للوراد مــــــــــــــــن كفه الودق (2)

وعلى تلك الشاكلة سار ملك النحاة في تصويره، فالعلياء والكرم، والأخلاق والشيم، ومنطقه واضح للعيان، والنفس تفخر به يقول في ميميته :

لله أخــــــــــــــــلاق مطبوع على كرم ومــــــــــــــــن به شرف العلياء والكرم
 أغرر أبــــــــــــــــلج يسمو عن مساجلة إذا تذوكرت الأخلاق والشيم
 سمت علاك رســــــــــــــــول الله فارتفعت عن أن يشير إليــــــــــــــــى إثباتها قلم (3)

1 - شرف الدين الأنصاري ، الديوان ، 327.

2 - الصرصري ، الديوان ، 339.

3 - ابن العديم ، بغية الطلب في تاريخ حلب ، 2392 / 5.

ولوعة الهالة التي كان عليها النبيّ فقد رسم عبد الرّحيم بن الأخواة صورة للشمس وهي تخفي ضوءها حياء عندما قابلت الرّسول:

إذا قابلتك الشمس أخفت ضياءها حياء وأغضت وهي تختال في السّعد⁽¹⁾

وفي جمال صفاته، وحسن هيئته التي تغنى بها الشعراء كثيرا، فجمال الوجه، والجبين، والكف، والفم لا يخرج إلا الجواهر، يقول الصرصريّ:

سبحان من صورته صورة أكمّل معناها الذي يخلق
كان ففاه باسمًا ناطقا بجواهر الغواص مستحديق
فالشفة الياقوت واللؤلؤ الرطب الثمين الثغر والمنطق
جبينه الصبح ومن فوقه الفرع الدجى والفلك المفرق
كأنما قصف صيغ من فضة بنانه والكف والمرفق⁽²⁾

فالشفة ياقوت، والثغر لؤلؤ، وجبينه صبح في إشراقته، وشعره ليل في سواده، وإصبغه فضة، وكذلك الكف والمرفق، وقد قام الشعراء بوصف شعره وكأنه ليل في سواده، وجمال عينيه فهما عينا غزال سارح في أرض نجد، يقول عبد الرحمن بن الجوزي:

شعر أدهج وله سواد كليل مظلّم أرخى لثامه
بطرف نير وله جبين لسه نور ينور في القيامة
أزج الحجاجين بأنف أقي كحيل المقلتين حوى القسامه
ضحوك السنّ تنظره بشوشا ومما في حبه عندي ملامه⁽³⁾

ويقول عليّ السّخاوي واصفا وجهه بالقمر المنير:

يا صاحب الوجه البهيّ كأنما الـ قمر المنير إليه في النور انتمى⁽⁴⁾

1 - العماد الأصبهاني، خريدة القصر وجريدة العصر (قسم شعراء العراق)، 208/3/1.

2 - الصرصريّ، الديوان، 341-342.

3 - صلاح الدّين الهوارى، المولد النبوي الشريف، 94.

4 - هنزيت سابا، اتجاهات الشعر العربي في القرن السّابع الهجري في بلاد الشام، 290.

وقد وصف الشرف الأنصاري شامته حيث صورها بأنها كف الهدى في كل معركة، وكان الأعداء يدفعون ضريبتها، وهي من الصور الجميلة والطريفة، يقول:

شامته كف الهدى في كل معركة كانت ضرائبها فيها الأضاليل (1)

وتظهر جمال الصورة في الحجازيات، فقد أبدى الشعراء الإعجاب بتلك البقاع التي توصل إلى قبر النبي محمد، لذلك نرى الوحي الإيماني الذي يصدر الشعراء منه صورهم، مثلما أطلقوا صورة النور على النبي محمد وهديه، نجدهم يطلقون هذه الصور على الكعبة الشماء، فهي تتراءى بسوادها في عين الجاهل، ولكن الصورة معكوسة تماما عند من يملك اللب، وهي منارة إيمانية شامخة تبت النور والهدى، وتجعل من يطوف بها يتسربل بلباس الأبرار، فيجد عندها المرء الخشوع والتذلل لله رب العالمين، فهذا يعقوب الشيباني يصور الكعبة وأفواج العابدين يطأطئون رؤوسهم خشية ودموعهم مدرارة من فرط الذنوب:

إلى كعبة سوداء في عين جاهل وفي عين ذي اللب المنور أنوار
يطوف به حارس الليل دائما رجال هدى شعث الملابس أبرار
رؤوسهم من خشية الله نكس ودموعهم من فارط الذنوب مدرار (2)

وفي خضم الشوق يشبه فتیان الشاغوري دموعه باللالئ الخارجة من أصداف الجفون، كما ويصور سرعة الخيول عند انطلاقها، وهي تضرب الحصى ببحر تتلاطم أمواجه، ومع ذلك فهي تعبره كالسراب، وسرعتها بذكر النعام، المنطلق كالسهام، وصورة فنية أخرى في ثناياها حيث أولئك الفرسان الذين يمسكون زمام الخيل متشبثين على الرغم من شدة سرعتها، بصورة السهام التي تتمسك بالقسي، ويشيع فيها أيضا جلبة الخيل، حيث الحركة المعهودة لها في ميدان السبق، وهي صورة جميلة تدل على قدرة صاحبها، يقول:

كأن دموعي لاشتيافي لآئى فمن بي من أصداف الجفون تبدد

1- شرف الدين الأنصاري، الديوان، 392.

2- ابن الشعار الموصلي، فلاند الجمال في فرائد شعراء هذا الزمان، 90/10.

قطعن إليـك البـيد كالبـحر آهـا وظـرّانـها مـن تحـته يتوقـد (1)
وركـبـ عـلـى أوراكـهن كآئـهن سهـام بأكباد القسيّ تشدّد (2)

أمّا تربة الحجاز فهي عنبر ، ونبتها فهو القرنفل ، يقول ابن قزل :
مواقـف أمّا تربـتها فهـي عنبر وأمّا كـلاها فهـو نبت القرنفل (3)

ونجد أنّ الشعراء أضفوا الصّور الجميلة على صحابة رسول الله، فهم أصحاب الفضل والفضيلة، وهم غيوث وأموالهم أمطار ، وهم البحار في عطائهم ، وهم أسود عند مقابلة الأعداء في ميادين الوغى، ومع آل بيت الرسول سلكوا المنوال نفسه في التشبيه والتصوير، يقول عبد المحسن التنوخي:

مـن معـشـر قد وقى أعراضهم كرم كمـا تقيهم لدى الهيجا السرايل
إذا احتبـوا فهـم الأطواد راسية وإن حبـوا فهـم الدّماء والنيل
وهـم غيـوث لهم أموالهم مطر وهـم ليـوث لهم سمر القنا غيل (4)

ويظهر الشاعر الحركة في صورته في معرض حديثه عن الحرب، وكأننا نحيا نفس الشاعر في تصويره ، وما يحاول أن يوصله من خلال رسم صورة الصّحابة المقاتلين الذين يذودون بما أوتوا من قوّة ، وتراه ينشر الحركة من خلال جلبه الأبطال وهم يحملون الرّماح في ميدان المعركة وينقضّون بها على فلول الأعداء، والصورة نفسها يرسمها التنوخي لآل البيت، فالجنود ، أبطال ميامين، يقول:

هم الغيـثاـث إذا ما استنجدوا وهم الـ غيـوث سائـلة بالـجود إن سيلوا
صيد صنـاديد أنـجاد جـاحـجة غرّ مياميـن أمـجاد مـفاضيل
إذا ينالـون لا يزهاهم فرح ولا ينـالهم حـزن إذا نيلوا (5)

1 - الظّرّ: الحجر، الحجر له حدّ كحدّ السيف. الفيروز آبادي، القاموس المحيط، 606/1 (ظُرر).

2 - فتيان الشاغوري ، الديوان ، 108.

3 - ابن قزل، الديوان ، 339.

4 - يوسف النبهاني، المجموعة النبهانية في المدائح النبوية، 38/3.

5 - نفسه، 39/3.

السابقين في تصوير ممدوحهم مع طغيان تجسيد الصفات المعنوية والحسية التي برزت وهذا الأمر ليس بالغريب، واستفاد الشعراء من الطبيعة المحيطة بهم كمظاهر الكون وما فيه من صور رائعة تعبّر بالدرجة الأولى عن قدرة البارع - عز وجل - فهم قلدوا الشعراء الجاهليين والعباسيين مع حفظ الفارق في طغيان العواطف الدنيوية، واستلهم الصور القرآنية وسبكها في قصائدهم .

و الخيال ليس بمنأى عن الصور فهو ملكة فكرية وذهنية يمتاز بها الإنسان عن غيره من المخلوقات، وهي تنمو مع الفرد وتتغذى من تجاربه، وبهذه القدرة يستطيع تشكيل صور من الطبيعة يعبر بها عن أفكاره، وبذلك ما نراه من صور متكاملة تفوق ما في الطبيعة لا تتأتى إلا من إنسان قوي الخيال (1).

وقد احتلّ الخيال مساحة واسعة عند النقاد خاصة المحدثين منهم، إذ جعلوه محطّ آرائهم، وأفردوا له فصولاً، فهذا كولردج يعدّه موهبة أو ملكة تحقق الجو المثالي في القصيدة، والقوة القادرة على الخلق والتوحد، فالفنان لا يهدف بفنّه نقل الأجزاء المتفرقة في الطبيعة كما هي، وإنما يحاول أن يجعل لوحته المستمدّة من الطبيعة موضوعية بتصويرها (2).

إذا الخيال يقوم على دعوة المحسّات والمدركات، ومن ثمّ يتمّ بناؤها من جديد، فهو يضيف علاقات جديدة تنزع من الواقع نزعا، ويعتمد على التبديل في الحقائق حسب تصوّر الأديب، يعمد إلى بعث روحه فيها لتخرج خلقا جديدا نابضا بالحياة (3)، ويرى داود غطاشة و حسين راضي أن للخيال صورا " فتنوع إذ منها البصريّ كتمثيل الفضيلة في صورة فتاة ذات ملابس أنيقة، ومنها السّمعي كالصّور التي يؤلفها الموسيقيون " (4)

1- ينظر عبد القادر أبو شريفة وزميله، مدخل إلى تحليل النصّ الأدبيّ، 39.

2- ينظر محمد زكي العشماوي، قضايا النقد الأدبيّ بين القديم والحديث، 79.

3- ينظر شوقي ضيف، في النقد الأدبيّ، 167.

4- قضايا النقد العربيّ قديمها وحديثها، 141.

أما ما يخصّ مقاييس الخيال فهي كثيرة ومتنوعة، منها ما يتعلق بالشخصيات المبتكرة، إذ يجب أن تكون قويّة وملائمة للغرض الذي تمثله، ثمّ قوّة التشابه بين المشاهد الخارجيّة وما توحى به من انفعالات وما تثيره من عواطف، ولا يغفل جمال تصوير الطبيعة وما حوت، ومن المقاييس الجدّة في الصّور البيانيّة، والقدرة على إبراز المعاني بحيث تكون مجسّمة أو محسّسة (1).

وندع الحديث عن الخيال الذي تطول الآراء فيه، بين نقاد عرب وغربيين، قدماء ومحدثين، وبعد نقف على الخيال في شعر المديح النبوي عند شعراء الزنكيين والأيوبيين، لنجد أنهم قد تأثروا بمن سبقهم من حيث اصطناع الخيال، يقول فتیان الشاغوري عندما رقدت الجمال قريبة من حجرة الرّسول :

إلى أن أناخوها إلى جنب حجرة لهيبته منها ————— الفرائص ترتعد

فالمعلوم أنّ الاحترام والوقار للرسول موجود، والقرب منه يضفي هيبة عند أصحابه، وعند المسلمين جميعاً، فالشاعر أثار انفعالا عند القارئ أو السّامع، فقد جعل المهابة والجلالة تملك الزائرين لقبر الرّسول، والفرائص ترتعد، وهذا يدل على قدرة الشاعر في تبيان هيبة الموقف مع أنّ الرسول ميت، وأنّ الاحترام والتقدير ظلا يلازمانه، فالقبر تمتلكه هيبة نظرا لما حوى، جعلت كلّ من يقترب منه يطأطئ رأسه، ويأتي له بقلب طاهر خاشع، يظهر قدرا من الاحترام والوقار، وبذلك نجد أنّ الشاعر قد نقل الصورة عمّا كانت عليه أيام الرسول وصحبه، إلى ما بعد موته، ومع ذلك أضفى جماليّة عليها فقد أصبح المسلمون يهابون القبر.

ويظهر الخيال عند شعراء المديح النبوي في مقدّماتهم الغزليّة، وهي قليلة نسبياً، لأنهم استبدلوا الحجازيّة بالغزليّة، ويأتي الخيال جريا على عادة شعراء الغزل الذين تسعفهم قرائحهم فتجدهم يأتون بالعجب العجاب، وبالتالي ينقلون القارئ من الواقع

1 - ينظر أحمد الشايب، أصول النقد الأدبي، 223.

ليخلق في خيال تأنق الشاعر في رسمه، ولونه بألوان خاصة به، تشيع فيه العاطفة، ويثور فيه الانفعال، يقول عبد المحسن التنوخي:

ولاح في الشرق فوق الأفق لطح دم حتى تـــــــوهمت أن الصبح مقتول
تثني القـــــــوام ولا تنفك مائلة كـــــــما تمايل غصن وهو مطلول
فرعـــــــاء ما مسّها غسل ولا ادّهنت كحلاء ما جـــــــال في أجفانها ميل
وشاحها جـــــــائل في خصرها قلق لكن تغـــــــصص بساقها الخلاخيل
فإنما طرفها وســـــــنان أو ثمل أو مدنـــــــف أو بميل السّحر مكحول
ما جرّدت ســـــــيف جفن من لواظها إلا اثنتـــــــي وسيـــــــف الصبر مفلول
تجيل مسواكها مـــــــن فوق ذي شنب يزـــــــين هـــــــو وضح فيه وترتيل
كأنما ريقها غـــــــبب الكرى ضرب لمجتنيه بمـــــــاء الورد محلول (1)

وقد علق الصّفيدي على تلك الألفاظ التي استعملها الشعراء مجازاً في أوصافهم وأصبحت عرفاً عند أغلب الشعراء، يقول: " اعلم أن للشعراء ألفاظاً صارت بينهم حقائق عرفية، وإن كانت في الأصل مجازاً لكثرة ورودها في كلامهم، وتعاطيهم استعمالها، لأنهم ألفوا ذلك من تداولها وتكرارها على مسامعهم، من ذلك: الغصن إذا أطلقوه فهم منه القوام، والكثيب إذا أطلقوه فهم منه الرّدف، والورد إذا أطلقوه فهم منه الوجنة، والأفح إذا أطلقوه فهم منه الثغر، والراح إذا أطلقوه فهم منه الرّيق، والنجس إذا أطلقوه فهم منه العيون، وكذلك السّيف، والسّهم، والسّحر، وإذا أطلقوا الآس أو البنفسج أو الرّيحان فهم منه العذار، فكلّ هذه الأشياء انتقلت عن وضعها الأصلي وصارت حقائق عرفية " (2)

والأخيلة التي جاء بها الشعراء مستمدة من معين الأمة الذي لا ينضب. أي من تراثها. لذلك نجد أن كلام الصّفيدي ينطبق عليهم فيما جاؤوا به، فهذا الزمخشري يقول:

والقـــــــد غصن أراكة لـــــــدن المهزّة شـــــــطبها
والطـــــــرف سيف مرهف خـــــــذم المضارب غضبها

1 - يوسف النبهاني، المجموعة النبهانية في المدائح النبوية، 3/ 32-33.
2 - الغيث المسجم في شرح لامية العجم، 1/ 442.

والخ_____د مجرحة لمس _____ترقّ اللح_____اظ محبّها (1)

فالقّد عنده غصن طويل تتلاعب به الرّياح ، والنظرة سيف صقيل سريع القطع، والخذّ الجميل يجلب النظر لمن أحبّ وعشق، فألفاظه جاءت مجازيّة عند وصفه للمحبوبة، ونلاحظ طغيان الرّبّط بين أعضاء الجسد ومظاهر الطبيعة الجميلة بما حوت من حركة واضطراب، فالشاعر قد بعث فيها الحياة والنشاط، كلّ تلك الصّفات أتت وفق ما يشتهيهِ الشاعر في محبوبته، مبرزاً دور العاطفة والإحساس في رسم الصّورة التي يتمنى .

كما نلاحظ أنّ الشعراء عمدوا إلى استخدام المبالغة طريقاً لرسم الصورة، فهذا ابن جبیر جعل من جبل أحد وقد لاح له منارا مشرقاً من الشهداء الذين استشهدوا عليه من أبناء المسلمين .:

ولاح لن_____أ أحد مشرقاً _____بن_____ور من الشهداء استعاراً
فم_____ن أجل ذلك ظلّ الدّجى _____حلّ عق_____ود النجوم انتشاراً (2)

فقد صوّر الشاعر الشهداء بالنور الذي كسا أحداً حتى أنّه غطى على النجوم التي تبدّد ظلام الليل وتمحوه، وهذه مبالغة لطيفة، حيث أخذ الشاعر الواقع كما هو وأضاف إليه جماليّات وفق ما تشتهيهِ عاطفته الدينيّة في تقديس واحترام شهداء المسلمين، حيث جعل منهم أنواراً تغطي على أنوار النجوم .

والأخيلة التي جادت بها قرائح الشعراء متنوّعة وكثيرة، ضمّن الشعراء فيها ما يشتهون، ولكنها ممزوجة بعواطف خاصّة، يغلب عليها المبالغة، وهنا يتدخل الأثر الديني بوضوح في تلك الصّور والألفاظ، ولا ننسى أنّها موافقة لروح العصر من جهة، وللذوق العربيّ من جهة ثانية، فالمديح النبويّ ليس وليد لحظته، وإنما هو امتداد فترات الشعر العربيّ منذ عصر النبيّ إلى العصر الحديث، وأخيلة الشعراء لا تنقطع ولا تفتت وإنما ستبقى ترسم لوحات خلال المدح، يتفنن فيها الشاعر ويلونها بالطريقة التي يشتهي .

1 - علي عمرو ، تحقيق ديوان الزمخشري ودراسة شعره، 379/2.
2 - فوزي الخطبا ، شعر ابن جبیر ، 58.

4. التواصل بالتراث - التناص أو التضمين النصي:

للأدب العربي شعره ونثره مزايا تفوق بها على جميع الآداب العالميّة، فأصله ثابت وفرعه في السّماء، وغراسه ينمو، وأوراقه خضراء يانعة، وظله وارف، ذلك بما حوى من حديقة غناء، يُسقى بماء السّماء، وهو نسيج يغزله الشعراء والأدباء، ويلونونه كيفما طاب لهم بشتى الألوان، وكلما تقادم الزّمان يأتي جيل آخر يصنع الصنيع نفسه، وقد يزيد أو ينقص، وبذلك نرى التواصل بين الأجيال في الثقافة والعلوم والآداب، وما من شكّ في أنّ الشعر ديوان العرب، به حفظوا أصالتهم بعد القرآن والحديث، ومن خلاله تمّ لهم التواصل حيث بقي محافظا على الأصالة في اللغة، والتاريخ بما حفظه من أيّام وأحداث حتى عدّ الشعر وثيقة مهمّة من وثائق التاريخ.

والشعر ارتبط ارتباطا وثيقا بالعرب، ففيه نظموا خلاصة تجاربهم، وصوّروا جماليّات أيّامهم، وتعرّض - هو نفسه - مع الأمتة إلى سلسلة من المؤثرات الدّاخليّة والخارجيّة إلا أنه بقي محافظا على تواصله مع الأمتة، يقولبه الشعراء وفق ما يشتهون بالطريقة التي يرونها مناسبة، ومن خلاله يستفيدون ممن سبقهم من أمم أو حضارات وأزمنة، لذلك نرى التشابه بين السّابقين واللاحقين في نظمهم، ويظهر بجلاء عندما يقوم الشاعر بتوظيف ألفاظ القرآن الكريم، أو الحديث النبوي الشريف، أو أن يقوم الشاعر بتضمين النصوص الشعريّة لشعراء سابقين، وهذا الأمر على تعدد أساليبه يسمّى التناص أو التضمين النصي.

ويرى مسعد العطوي أنّ مجموعة المنظرين في العصر الحديث وهم الذين عاينوا الواقعيّة واستشعروها كما هي، وأدركوا أهميّتها وضرورتها ووصلوا إلى حقيقة واقعة بأنه لا فكاك منها عندها أطلقوا عليها التناص (تداخل النصوص)، يأتي هذا في الوقت الذي كان يطلق عليه القدماء السّرقاات الشعريّة (1).

¹ - الاتجاهات الفنيّة في الشعر إبّان الحروب الصليبيّة، 547.

وقد ورد التناص في شعر المدائح النبوية بشكل لافت، ولكن بتنوع في الأساليب، وقد آثر الباحث أن يقسمه وفق ما يلي:

1 - المعارضة :

والمعارضة في أيسر معانيها أن يقوم الشاعر بنظم قصيدة على غرار قصيدة أخرى لشاعر قد سبقه شريطة التشابه في الغرض والموضوع ، مع ضرورة الالتزام بالوزن والقافية وحركة حرف الروي، عندها يمكن الحكم على تمام المعارضة (1).

ونظرا لأن مدحة كعب بن زهير كانت الأولى في بابها على صعيد تكامل بعض العناصر، فإن الإعجاب بها قد زاد، فقد حظيت بتهافت الشعراء نحوها عن طريق معارضتها، وترسم الشعراء طريق ابن زهير في تقسيمه للقصيدة وترتيبها، لذا نرى أن منهم من أبدع وأجاد، ومنهم من قصّر وتأخر، حتى وصل الأمر عند بعض الشعراء إلى حدّ التكلف في ترسم خطى ابن زهير، وبذلك نجد أن شعراء الزنكيين والأيوبيين قد استلهموا واختزنوا إبداع كعب بن زهير وعصره وما شهد . حيث بداية أوج الحضارة والمدنية في مختلف العلوم وصنوف المعرفة مع إقبال على الدين والرّسول . وبهذا نرى التواصل، والشعراء الذين عارضوا كعبا كثر في هذين العصرين منهم الزمخشري ، جار الله عمر، يقول في معارضته:

أضاء لــــــي باللوى والقلب متبول نجــــدي برق بنار الحبّ موصول (2)

ومن الشعراء الذين تيموا بتلك القصيدة لذا قام بمعارضتها، علي العمراني:

أضــــاء برق وسجف الليل مسدول كما يهــــز اليماني وهو مصقول
فهاج وجــــدي بسعدى وهي نائبة عــــني وقلبي بالأشواق متبول (3)

¹ - ينظر محمود رزق سليم ، عصر سلاطين المماليك، 8 / 447 . ومحمد قاسم نوفل، تاريخ المعارضات في الشعر العربي، 13.

² - علي عمرو، تحقيق ديوان الزمخشري ودراسة لشعره، 263/2.

³ - ياقوت الحموي، معجم الأدباء، 374/5.

ابن الساعاتي، حيث يفتح معارضته بقوله:

جـدّ الغرام وزاد القال والقيـل وذو الصّبـابة معذور ومعذول (1)

وكذلك عارضها عبد المحسن التنوخي حيث يقول:

صـبّ عليل وما بالرّبع تعليل فليس إلا عـلى الإعوـال تعويل (2)

وقد عارضها الصّرصريّ في قصيدتين، يقول في الأولى :

ركب الحجاز ومنـك الخـير مأمول هل عندك المحاق ولا يخفيه تأفيل (3)

وفي المعارضة الثانية للصّرصريّ يقول :

إلـى متى أنا مشغوف ومشغول وكم لقلبي تسـويـف وتسـويل (4)

فتبركا بالنبيّ محمد لجأ أغلب الشعراء إلى نظم القصائد النبويّة على غرار " بانـت سعاد " ، عسى أن يخلصهم النبيّ مما آلت إليه أوضاع المسلمين نتيجة الاجتياح المتكرّر والمدمّر لبلاد المسلمين على يد الصليبيين، فقد حلّ التشريد والتقتيل وذاق المسلمون مرارات كثيرة، لذا توجه الشعراء خاصّة الزهّاد والأقبياء يطلبون المدد من الرسول عسى أن ينالوا الخلاص، ويظهر الشعراء قدرا كبيرا من العاطفة الدنيّة الجياشة، وهذا الصّرصريّ يعارض أبا نواس في قصيدته المشهورة الهمزيّة، ومطلعها :

دع عنـك لومي فإنّ اللوم إغراء وداوني بالتي كانت هي الدّاء (5)

1 - ابن الساعاتي ، الديوان ، 47.

2 - يوسف النبهاني ، المجموعة النبّهانيّة في المدائح النبويّة ، 31/3.

3 - الصّرصريّ ، الديوان ، 396.

4 - نفسه ، 394.

5 - أبو نواس ، الديوان ، 11.

استفاد الصرصريّ من المعنى الذي جاء به أبو نواس، وبنى عليه، ولكن على خلاف القصيدة الأصيلة التي يتغنى فيها أبو نواس بالخمرة وشربها، فالموقف يختلف فهنا يمدح المصطفى محمداً، يقول:

إفراط لومك في البلوى هو الداء فاكف ملامك عني فهو إغراء

2. ومن ألوان التناص التشطير:

حيث يقوم الشاعر بأخذ شطرة كاملة من البيت لقصيدة مشهورة، وبضمنها في قصيدته، أو أن يقوم الشاعر بالإتيان بكلمة أو اثنتين من القصيدة المشهورة، وهذا ما فعله شرف الدين الأنصاري عندما شطر قصيدة كعب بن زهير، يقول:

أوهمت نصحا " لو أن النصح مقبول " " لا ألهينك إني عنك مشغول "
 بان التجلّد عني و التصبر مذ " بانّت سعاد فقلبي اليوم متبول "
 تياهاة آثرت صـداً لمغرمها " متيّم إثرها لم يفد مكبول "
 سلست حقوق الأعادي إذ تخرمها " مهنّد من سيوف الله مسلول "

و من خلال القصيدة يظهر التكلف بجلاء لا يقبل الشكّ، نظراً لمحاولة الشاعر المواءمة بين ما نظمه، والشطرة الأصيلية، من هنا تلوح الركاكة والضعف.

وممن شطر في قصيدة المديح النبويّ الشاعر ابن قزل، حيث شطر من معلقة امرئ القيس، يقول:

تحملن منّي كلّ أشعث أغبر فيــــا عجا من رحلها المتحمّل
 قفــــا نبك ذكراها فإن الذي بها أجــــلّ حبيب وهي أشرف منزل
 دخــــلت إليها محرماً وملبياً وأضربــــت عن سقط الدخول فحومل

3. التناص مع القرآن الكريم:

وهذا التناص يظهر بجلاء ووضوح في قصيدة المديح النبوي ، التي ارتكزت على الموضوع الديني بالدرجة الأساس، لهذا نجد أسلوب القرآن والحديث الشريف طاغيا على أغلب القصائد، فقد قام الشعراء بتوظيف المفردات والألفاظ القرآنية توظيفا يحمل الإشارة والإيحاء إلى مضمون السور والأحاديث، فهذا الزمخشري يستفيد من اللفظ القرآني والحديث الشريف في بيت واحد، يقول:

إلى الثقلين المصطفى كان مرسلًا مــــمن المتعالي جدّه المتبارك

فقد وظف الشاعر في البيت السابق لفظة (الثقلين) التي وردت في القرآن الكريم في قوله تعالى [سنفرغ لكم أيّه الثقلان] (1)، ووظف لفظتي (المتعالي جدّه) حيث استفاد من قوله تعالى: [وأنّه تعالى جدّ ربّنا] (2)، كما استفاد من الدعاء المأثور (... تبارك اسمك وتعالى جدّك ...).

وهذا عبد الرّحيم بن الأخوة يمتدح النبيّ حيث حارب الضلال، وأحلّ الهدى ومال الناس عن عبادة الأوثان والأصنام، وقد استفاد الشاعر من ذكر القرآن الكريم لأسماء الأصنام لبعض قبائل العرب في الجاهليّة، يقول الشاعر:

أشعت الهــــدى فاستنكر الناس بعده يغوث ومالــــوا عن يعقوق وعن(3)

فقد استفاد الشاعر من تعداد القرآن لأسماء الأصنام التي كان العرب الجاهليّون يعبدونها ، فالحقّ تعالى يقول: [وقالوا لا تذرنا آلهتكم ولا تذرنا وداً ولا سواها ولا يغوث

1- سورة الرحمن ، آية 31.

2- سورة الجنّ ، آية 3.

3- العماد الأصبهاني، خريدة القصر وجريدة العصر، (قسم شعراء الثّمام) 209/3/1.

ويعقوق ونسرا] (1) فيغوث لمذحج، ويعقوق لكنانة، وودّ لقريش، وقد ورد التناس عند ابن قزل :

وأخبرت عنها في زمانك منذرا بيوم عبوس قمطيرا مطول
وأبببت من الآيات كلّ عجيبة وزلزلت الأرضون أيّ تزلزل (2)

فالبيت الأوّل فيه تناس مع قول الحقّ [إنّنا نخاف من ربّنا يوما عبوسا قمطيرا] (3) ،
وفي البيت الثاني تناس مع قوله تعالى [إذا زلزلت الأرض زلزالها] (4).

ومن الشعراء الذين أوردوا التناس مع القرآن الكريم بكثرة مفرطة الصرصريّ ، حتى لا تكاد تخلو قصيدة منه، يقول في تمجيد الذات الإلهية :

هو الأوّل الموجود لا شيء قبله هو الآخر الباقي بغير تزيّل (5)

فقول الشاعر فيه تناس مع قوله تعالى: [هو الأوّل والآخر والظاهر والباطن وهو بكلّ شيء عليم] (6) ، ويرد التناس مع القرآن الكريم بشكل لافت عند ابن جبير، ومن أمثلته :

أقول وأنست بالليل نارا لعلّ سراج الهدى قد أنارا
ونحن من الليل في حندس فما باله قد تجلى نهارا (7)

ففي قوله (وأنست بالليل نارا) فهذا تناس مع قول سيّدنا موسى لامرأته في قوله تعالى: [إذ رأى نارا فقال لأهله امكثوا إني آنست نارا لعلّي آتيكم منها بقبس أو أجد

1 - سورة نوح ، آية 23.

2 - ابن قزل ، الديوان ، 337-338.

3 - الإنسان ، آية 9.

4 - الزلزلة ، آية 1.

5 - الصرصريّ ، الديوان ، 431.

6 - سورة الحديد ، آية 3.

7 - فوزي الخطبا ، شعر ابن جبير ، 57.

على النار هدى] (1)، وهناك تناصّ في البيت الثاني مع قول الله تعالى [والنهار إذا جلاها] (2).

وكثرة التناصّ مع القرآن يدلّ على عمق الشعور الدينيّ والوعي الإيماني عند شعراء المديح النبوي، فالقرآن فيه نبأ من قبل، وخبر من بعد ولا يأتيه الباطل، أضف إلى ذلك رفعة الأسلوب، ودقة اللفظ، وجميل المعنى، لهذا نهل الشعراء من معينه الذي لن يجفّ إلى قيام الساعة.

1- سورة مريم، آية 10.

2- سورة الشمس، آية 3.

الخاتمة :

وبعد .. فهذه رحلة مع النبي محمد صلى الله عليه وسلم ، ولكنها جاءت على شكل دراسة حامت حول مجموعة من الشعراء الذين نظموا في فنّ المديح النبويّ في العصرين الزنكيّ والأيوبيّ، فقد جادت قرائح هؤلاء الشعراء بقصائد حملت في طياتها هموم الشاعر الذاتية، وهموم الأمة الإسلاميّة التي ينتسب إليها ذلك الشاعر، وقد حملت في طياتها جانب الغيرة على مصالح الأمة من خلال توجّه الشعراء إلى الرسول صلى الله عليه وسلم بالضراعة والتوسل، لأنّ الأمة كانت مستهدفة، وحمل شعر هؤلاء الشعراء مزايا خاصّة عندما سلط فيها أصحابها الضوء على جوانب مضيئة كانت الغاية من ورائها بعث الحميّة في نفوس المؤمنين عند استحضر شخص الرسول.

ومن أبرز النتائج التي يكمن لنا أن نرصدها في خلاصة هذا البحث ما يلي: .

1- حفلت شخصية النبيّ في الشعر العربيّ على مرّ العصور بما لم تحفل به أيّ شخصيّة أخرى، ويعود ذلك إلى المكانة السامقة التي يتبوّؤها النبيّ محمد صلى الله عليه وسلم عند المسلمين وغيرهم، فهو القائد والقدوة، ويكفيه ثناء الله عليه، فلا عجب أن يشني عليه الشعراء، وتتصدّر صفاته ومعجزاته وفوائله القصيدة العربيّة وأن يقصر شعراء دواوين بعينها لمدحه.

2- تعدّ المدحة النبويّة في العصرين الزنكيّ والأيوبيّ نقطة التكامل بما حوت من مفردات متعدّدة، حيث كانت تقتصر في السّابق على المقدّمة الغزليّة، ثمّ مدح الرسول والثناء على أصحابه، أمّا في هذين العصرين فقد دخلت عناصر متعدّدة صارت أساسا لما بعدها في قصائد المديح النبويّ في العصور اللاحقة، فالمقدّمات الحجازيّة خير مثال على تطوّر مفردات المدحة النبويّة في هذين العصرين، أضف إلى ذلك محاجة الكفار والمتعنّتين من النصارى واليهود.

3 - غياب كثير من الأشعار التي ظلت طي الكتمان والتغيب، لأنها ترقد على رفوف المكتبات، وقد نال منها العفن والغبار، وهي بحاجة إلى أبناء الأمة الغيارى، والمخلصين من الباحثين من أجل بعثها من جديد لعل فيها كشفا لبعض نواميس الأدب والشعر التي طالما نحن بحاجة إليها، وتحمل مضامين لم تسعنا الأيام بالإطلاع عليها.

4 - يمكن القول باطمئنان أن أغلب الشعراء الذين نظموا في فن المديح النبوي في العصرين الزنكي والأيوبي هم من العلماء الفقهاء والزهاد العباد، والمتصوفة الساك الذين حملوا في نفوسهم هموم الأمة، ودافعوا بألسنتهم بكل ما أوتوا من قوة بلاغية ولسانية وافقت روح العصر الذي عايشوه، ولم تكن أشعارهم بمعزل عن أبناء الأمة الذين حرصوا على ترديده والتغني به.

5 - التأثير الكبير على صعيد قصيدة المديح النبوي بالموروث الأدبي السابق، فقد تأثر ناظموها بمشاهير شعراء العربية السابقين، من أمثال امرئ القيس وحسان وكعب بن زهير خاصة لاميته التي عارضها الشعراء بكثرة، وأخذت هديا لهم في نظمهم، وتأثروا كذلك بأبي نواس وغيره، وجاءت القصائد على غرار ما نظم السابقون إلا أنها اختصت بمدح النبي ووافقت روح العصر الذي عايشوه من حيث الذوق، والألفاظ المستخدمة والمعاني المقصودة، وبذلك أضاف الشعراء جمالية على جمالية فنية لتخرج القصيدة لوحة فنية حيّة و نابضة، تمسكت بالبناء الفني للقصيدة العربية .

6 - على الرغم من احتواء بعض القصائد على مقدمات غزلية إلا أن الشعراء التزموا جانب الأدب والحشمة مع الرسول، وبذلك وافقوا ما نادى به النقاد عند مدح الرسول محمد صلى الله عليه وسلم، ويمكن القول بأن العاطفة الدينية لعبت دورا كبيرا في الحشمة .

7 - ويمكن القول بأن قصائد المديح النبوي بقيت وستبقى وثيقة تاريخية وسياسية واجتماعية بالنظر لما حوت، صورت أحداث العصر وعكست الصراع الداخلي والخارجي، وأكدت صدق العاطفة عند من نظم في هذا الفن من جهة، ولوحة فنية

زاخرة - بما تحمل هذه المفردة من معنى - تدلّ على العصر الذي وجدت فيه من جهة ثانية.

8. وتبقى المدائح النبوية وسيلة طريفة وجميلة، تتوحد مع العقيدة، على شكل منظومة وقصيدة يسهل تناولها وتداولها بين المثقفين والسوقة، يمكن من خلالها خدمة الدين بسلاسة وسهولة، ولا يشكّ لما للشعر من أهمية في نفوس المتذوّقة.

9. تحوّل القصائد النبوية إلى ملاحم شعرية، حيث سطر الشعراء فيها أروع التضحيات لبطولات النبيّ من أول يوم وجد فيه على البسيطة، حتى قيام الساعة مثلما فعل الصرصريّ في قصائده الطوال التي جاوزت الثمانمائة بيت من الشعر.

10. اتقاد نار وأوار المعارضات، بعد فترة من الخمول والهدوء، حيث جاءت بشكل قويّ من حيث الكمّ والكيف، خاصّة تلك التي عارض فيها أصحابها بردة كعب بن زهير، فقد كانت بمثابة الوحي للشعراء ما ألمّت بهم ملمات فسرعان ما هرعوا يعارضون تلك القصيدة.

11. أمّا على صعيد التشكيل الفنيّ فإنّ القصيدة قد تنوّعت في أساليبها، ولغتها جاءت فصيحة موافقة لروح العصرين، بعيدة في جملها عن الغموض في الغالب، وحافظ الشعراء في العصرين على أوزان الخليل بن أحمد الفراهيدي، وكانت القصيدة العربية القديمة هي سنتهم في نظمهم، وما يخصّ صورهم فهي من وحي الطبيعة.

ومن خلال النصوص الشعرية المستعرضة يمكن الردّ بموضوعية على من نعت العصرين بأنهما كانا يمتازان بالركود والجمود، ليستدلّ الباحث على أنّ بعض الباحثين قد سايروا الغربيين خاصة المستشرقين منهم عندما أطلقوا على هذين العصرين بالتخلف والجمود، وهي نظرة تفتقر إلى معايير الحيادية والموضوعية، فالشعراء الذين نظموا المدائح النبوية في العصرين مثلاً التزموا سنن الشعراء السابقين في الأساليب، والمعاني، والقوافي.

هذه هي النتائج الرئيسيّة التي توصل إليها هذا البحث، وهناك سلسلة أخرى من النتائج الجزئية المتناثرة في ثنايا البحث، ويبقى القصور من صفات أعمال الإنسان مهما حاول إحكامها، والله أسأل عن يقيل عثرتي ويمحو زلتي إنه بالإجابة جدير، وعلى ذلك قدير، وصلى الله على سيّد البشرية جمعاء، ما سارت وجناء على غبراء.

ملحق بـ

أشهر شعراء المديح النبويّ في العصرين الزنكي والأيوبيّ

- 1- الزمخشريّ.
- 2- ابن الأخوة الشيباني.
- 3- عليّ بن محمد العمرانيّ .
- 4- ملك النحاة.
- 5- عبد الرحمن بن الجوزيّ.
- 6- صفوان بن إدريس .
- 7- يعقوب الشيباني.
- 8- ابن السّاعاتي.
- 9- ابن جبير .
- 10- فتیان الشّاغوريّ.
- 11- يعقوب الدّمشقيّ.
- 12- عبد المحسن التنوخيّ .
- 13- عليّ السّخاويّ .
- 14- يحيى الصّرصريّ.
- 15- ابن فزل - علي بن المشد .
- 16- الصّاحب شرف الدّين الأنصاريّ.

عندما يجود الشاعر بقريحته؛ فإنه يعطي ذوب فؤاده، وعصارة كبده، ويرسم واقعه المعاش، وبذلك يخرج من الخاص إلى العام، والشعر كما العلم لا يقصر على زمن دون آخر، أو على فئة دون أخرى، بل هو إبداع مشترك يظهر فيه الشاعر مقدرة فائقة لرسم قصيدته يتأنق فيها كيف يشاء، ويصنعا بألوان خاصة به وبها على السواء، ويحذو حذوها الشعراء، ويتلقفها النقاد والأدباء، وتظل صورة لعصرها على مر الأيام، ويصبح صاحبها علما وعينا من عيون الزمان.

وقديما قيل إن الشعر ديوان العرب، فهم اتخذوه لتصوير شتى مناحي حياتهم القبلية والاجتماعية والخاصة، وأجمل بقول الجاحظ عندما ذكر: "أن العرب في جاهليتها تحتال في تخليدها بالاعتماد على الشعر، لأنه يفيد فضيلة البيان على الشاعر الراغب والمادح، وفضيلة المأثرة على السيد المرغوب إليه والممدوح به" (1).

وعندما نقصد إلى العصرين الزنكي والأيوبي نجد أن الشعر فيهما قد ازدهر ازدهارا منقطع النظير بصرف النظر عن سلسلة الطعونات التي وجهت إليه من قبل بعض الدارسين، ولكن كيف يوسم بالانحطاط عصر وجد فيه عماد الدين ونور الدين وصلاح الدين؟ أو وجد فيه أدباء من أمثال القاضي الفاضل، أو ابن القيسراني أو الصرصري، وغيرهم الكثير؟ فمن الإجحاف والتعسف أن نجور على أضراب هؤلاء، مع الأخذ بعين الاعتبار الحفاوة والتقدير الذي أحاطه الزنكيون والأيوبيون للشعر والشعراء وتذوقهم له، بل إنهم عمدوا على استقطاب العلماء والأدباء من المشرق والمغرب (2) منهم من نظم الشعر وخير مثال على ذلك بوري بن أيوب (3)، والملك الأمجد بهرام شاه الأيوبي (4).

1 - الحيوان، 72/1.

2 - ينظر محمود فايز السرطاوي، نور الدين زنكي في الأدب العربي في عصر الصليبية، 22.

3 - هو مجد الدين تاج الملوك بوري بن أيوب بن شادي، الأخ الأصغر للسلطان الناصر صلاح الدين الأيوبي، كان فارسا للسيف والقلم، لقب بالمهذب، توفي سنة خمسمائة وتسع وسبعين هجرية. ابن خلكان، وفيات الأعيان، 290/1. وينظر شيخي حسن عبد الهادي، دراسة شعر تاج الملوك بوري بن أيوب مع تحقيق ديوانه، 9-52.

4 - تولى ولاية بعلبك بعد وفاة أبيه، فقد عينه صلاح الدين، كان جوادا كريما، وفي شعره كان رقيق النفس مرهف الحس، مات مقتولا في دمشق سنة ستمائة وسبعة وعشرين. ينظر مقدمة ديوان الملك الأمجد بهرام شاه، تحقيق غريب محمد علي، 5-8.

وقد أشار ابن الأثير بأنّ الأيوبيين كانوا يشجّعون الشعراء ويجزلون لهم العطايا، وكانوا يتمثلون الأبيات المحفوظة في المواقف المتعدّدة، ووصل بهم المطاف إلى حفظ ديوان بكامله⁽¹⁾.

وفي غمرة الأحداث العاصفة في ذينك العصرين رأينا كثيرا من الشعراء الذين عشقوا النهج المحمدي، وبالتالي تجد أنّ العاطفة الدينيّة دفعت إلى كثرة الشعراء الذين خصّوا الرسول بالمدح بحيث لا يقع نظر الباحث على ديوان من دواوين العصرين إلا ووجده يفتتح بمدحة نبوية، أو قصائد مديح أخرى في مشهوري الفقهاء والصلحاء، والمحدثين والمتصوّفة⁽²⁾، بل وصل الأمر عند بعض الشعراء إلى إيقاف شعرهم لمديح الرسول في العصرين الأيوبي والمملوكي، فخرجت دواوينهم حافلة بالمدح النبوية، إذ لم تخالطها قصائد أخرى تناول أغراض الشعر العربي التي كانت منتشرة، وخير مثال على هؤلاء الشعراء:

1. الصرصريّ (ت 656هـ)، وديوانه .
2. البوصيري (ت 696هـ)، وديوانه .
3. شهاب الدين محمود الحلبي (ت 725هـ) وديوانه أهنا المنايح في أسنى المدائح .
4. ابن سيّد الناس اليعمري (ت 734هـ) وديوانه بشرى اللبيب بذكرى الحبيب.
5. عبد الرحيم البرعي (803هـ) وديوانه المدائح الربانية والنبوية.

فقد لاذ إليه الشعراء كي يخلصهم من فترة عدّت من أصعب الفترات التي عصفت بأمة الإسلام، ولأنّه منح الوسيلة من ربّه، وهو الشفيح المشفّع يوم القيامة، فبه ومن خلاله يكون الخلاص، لذلك رأيت أن أتحدّث عن أعلام الشعراء الذين مدحوا الرسول وأجادوا في وصفه، وإن لم تكن تلك الأوصاف تبلغ في مرتبتها ما بلغته الأوصاف التي مدح بها. عليه السلام. من قبل الشعراء الذين عاصروه، فما مدح به يعلو مرتبة تلك الأوصاف، ومن الأهميّة بمكان أن نشير إلى عجز الشعراء من الإلمام بتلك الأوصاف أو

¹ - ينظر الكامل في التاريخ، 147/9.
² - ينظر عبد اللطيف حمزة، الحركة الفكرية في مصر، في العصرين الأيوبي والمملوكي الأول، 274.

حتى وقوفهم عندها، ولكنها تبقى محاولة لتعداد الخصال التي دانت له دون غيره من البشر، فمن اشتهر في هذين العصرين:

الزمخشري⁽¹⁾ (467. 538 هـ)

نسبه ومولده وعلمه:

أبو القاسم ، محمود بن عمر بن محمد بن أحمد الخوارزمي الزمخشري، ولد بزمخشري⁽²⁾ ، سافر إلى مكة فجاور بها زمنا فلقب بجار الله ، حصل بينه وبين أمير مكة أبي الحسن علي بن حمزة بن وهاس⁽³⁾ من المحبة ومدحه بقصائد عديدة، تنقل في البلدان، ثم عاد إلى الجرجانية (من قرى خوارزم) حيث توفي فيها، أخذ العلم على يد أكابر علماء عصره، قطعت رجله بسبب دعاء أمه عليه، واتخذ رجلا من خشب، ما فتئ يغطيها بأثوابه الطوال، ليظن الناس بأنه أعرج .

صفاته وثقافته:

وصف العلامة بأنه فريد عصره، ووحيد دهره، وإمام وقته، وكان غاية في الذكاء وجودة القريحة، وكان معتزليا قويا في مذهبه، مجاهرا به حنفا متكلما ، واسع العلم، كبير الفضل، متفنا في علوم شتى، برع في التفسير والنحو واللغة والأدب .

¹ - ينظر ابن خلكان، وفيات الأعيان، 168/5-174. و الصفدي ، الوافي بالوفيات، 247/25-256. وياقوت الحموي، معجم الأدباء، 91/7-97. و الفقطي، إنباه الرواة، 265/3-272. و السيوطي ، بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة، 279/2-280. و الذهبي، سير أعلام النبلاء، 151/20-1156. و ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة في أخبار مصر والقاهرة، 274/5. و الأنباري ، نزهة الألباء في طبقات الأدباء ، 338-339. و المقري، أزهار الرياض، 282/3-325. و ابن قاضي شهبة ، طبقات الشافعية، 241/2-244. و ابن العماد ، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، 118/4-121. و حاجي خليفة، كشف الظنون ، 74 ، 121، 117، 1478، 185. و الفيروز آبادي، البلغة في تراجم أئمة النحو واللغة، 220-221. و عمر رضا كحالة ، معجم المؤلفين، 186/12. و الزركلي، الأعلام، 178/7. و محمد أحمد درنيقة، معجم أعلام شعراء المدح النبوي، 416-417. و جرجي زيدان، تاريخ آداب اللغة العربية، 46/3-48. و عبد الستار ضيف، جار الله محمود بن عمر الزمخشري حياته وشعره، عالم الكتب، القاهرة ، 1994. و علي عمرو، تحقيق ديوان الزمخشري ودراسة لشعره ، رسالة دكتوراة مقدّمة إلى جامعة الأزهر سنة 1979.

² - زمخشري : قرية جامعة من نواحي خوارزم. ياقوت الحموي، معجم البلدان، 147/3.

³ - ابن وهاس هو أمير مكة وشريف من أشرفها، كان إمام الزيدية بمكة، من كبار العارفين ببلدان الجزيرة العربية، له شعر طيب، توفي سنة 556 هـ . الزركلي، الأعلام، 318/4.

آثاره :

له تصانيف عديدة نذكر منوعة منها : الكشاف في التفسير، وهو من أشهر كتبه، أكثر فيه من التشيع على المتصوفة، وكان يفخر به دائما على من سواه، حتى أنه نظم فيه شعرا يقول :

إنّ التفاسير في الدنيا بلا عدد وليس فيــــــــــــــــها مثل كشافني
إن كنت تبغي الهدى فالزم قراءته فالجهــــــــــــــــل كالداء والكشاف كالشافي

وله الفائق في غريب الحديث، والمفصل في النحو، ومقامات الزمخشري حيث شرحها بنفسه، والمستقصى في الأمثال، وأساس البلاغة، والقسطاس في العروض، وأعجب العجب في شرح لامية العرب، ومقدمة في الأدب .

شعره:

نظم الزمخشري على أغراض الشعر العربي، جريا على عادة الشعراء، ولكن طعمه بنكهة خاصة، وهي نكهة الشعراء الفقهاء، لذا بصم شعره ببصمتين، بصمة الفقيه العارف، وأضاف إليها بصمة الشاعر المتفنن، مما فتح له ميدان الإبداع من أوسع الأبواب له ديوان شعر احتوى على عدة قصائد يمدح فيها النبي المختار، وفي إحداهن يعارض كعب بن زهير في لاميته يستهلها قائلا :

أضــــــــــــــــاء لي باللوى والقلب متبول نجــــــــــــــــدي برق بنار الحبّ موصول

ومن جميل قوله في مدح النبي من القصيدة التي سنستعرضها في الجزء اللاحق من هذا الفصل ولكنني آثرت أن أذكرها في هذا المكان: [البيسط]

محمــــــــــــــــد إن تصف أدنى خصائصه فيا لها قصّة في شرحها طول
هو الــــــــــــــــذي وعد الرحمن ناصره نصرا عزيزا ووعد الله مفعول
وناصر الحق منصور وخاذله مدفع عن جوار الله مخذول

يا خاتم الرّسل إنّ الطول منك على راجي الشفاعة يوم الحشر مأمول⁽¹⁾

ويظهر من خلال ديوانه تأنقه في المديح والوصف والغزل، والأمثلة على تأنقه تظهر جلية في قصائده التي يعبق بها الديوان، وتتراعى فيها بصمة الفنان .

1 بن الإخوة الشيباني⁽²⁾: (... - 548هـ)

نسبه ومولده وعلمه:

هو عبد الرحيم بن أحمد بن محمد البغدادي، كنيته أبو الفضل ابن الإخوة، ولقبه جمال الدين أفضل الإسلام، ولد ونشأ في بغداد، ناسخ و فقيه من فقهاء الشافعية، سافر في طلب العلم طلباً للحديث، فقد طوّف بلاد خراسان ونيسابور وطبرستان، وأقام بأصبهان أربعين سنة.

صفاته وثقافته:

تعلم في بغداد، كان سريع القراءة والكتابة، حيث جعلنا منه ناسخاً بارعاً فيهما، حتى قيل: إنه نسخ ما لا يدخل تحت الحصر. وكان يقول: كتبت بخطي ألف مجلدة، قرأ الحديث وشغف بفنه حتى غدا طالباً له مما استدعى ترحاله وتنقله طلباً له، خصّ بالفضل، وسعة الخاطر، وكمال العلم والأدب.

آثاره:

لم يترك آثاراً غير تلك الأشعار المتفرقة والمتناثرة في ثنايا الكتب، وتحتاج إلى جمع لتدوينها في ديوان خاص، وأغلب شعره في المديح النبوي، إذ كان ممن أقبلوا على النظم فيه .

¹ - الزمخشري، الديوان، 2/263-265.

² - ينظر ابن شاکر الكتبي، فوات الوفيات، 2/309. وابن العماد الأصفهاني، خريدة القصر، قسم العراق، 138/1. والزرکلي، الأعلام، 3/343. وناظم رشيد، المدائح النبوية في أدب القرنين السادس والسابع، 26-27.

شعره :

لقد أوردت المصادر له مجموعة من القصائد، والمقطوعات النبوية، ويظهر من خلالها أن شعره سائغ يحمل في ثناياه ، حبا مكتنزا للرسول ، ويجلل أبياته بتبيان كريم نسل الرسول ، وذكر ما خصّه الله به دون سواه .

علي بن محمد العمراني⁽¹⁾: (....-560هـ)

نسبه ومولده وعلمه :

هو علي بن محمد بن علي بن أحمد بن مروان العمراني الخوارزمي، ولد في سرخس⁽²⁾، لقب بحجة الأفاضل وسيّد الأدباء، قرأ الأدب حتى أحاط أسرارها، وقد قرأه علي محمود بن عمر الزمخشري، تفقه في لغة العرب حتى عرف غوامضها، قرأ الحديث على يد مشايخ عصره .

صفاته وثقافته:

تميّز بتدينه وبدمائة أخلاقه، وبحسن اعتقاده ، فضلا عن سعة علمه وزهده، ورجاحة عقله ، كما أنه تميّز بسرعة الحفظ وكثرة السماع ، إضافة إلى حسن الخط، عمل على نشر العلم، وأفاد طالبه والراغبين فيه ، لذا أمّ بيته الطلاب والعلماء، يقرؤون عليه ويفزعون إليه في حلّ المشكلات والمعضلات.

آثاره :

ترك مجموعة من الآثار تدل على تبحّره في العلوم ، كما وصفه المترجمون، منها الجغرافية : كتاب المواضع والبلدان، ومنها ما يخصّ القرآن وتفسيره ككتاب تفسير القرآن، وشماریخ الدرر في تفسير الآي والسور، ومنها في علوم اللغة ككتاب اشتقاق الأسماء .

¹ - ينظر ياقوت الحموي، معجم الأدباء، 373/5-376. والسيوطي بغية الوعاة، 195/2. والصفدي ، الوافي بالوفيات، 94/22. وعمر رضا كحالة، معجم المؤلفين، 215/7. و الزركلي، الأعلام ، 329/4-330. ومحمد درنيقة ، معجم أعلام شعراء المدح النبوي، 266.

² - هي مدينة قديمة من نواحي خراسان، كبيرة واسعة، تقع بين مرو ونيسابور. ياقوت الحموي، معجم البلدان، 209-208/3.

شعره :

يعد العمراني من الشعراء الذين عارضوا بردة كعب بن زهير في مدح الرسول صلى الله عليه وسلم ومدح فيها صحابته، ومن شعره في غير المديح النبوي: [الوافر] رأيتك تدعي علم العروض كأنك لست منها في عروض فكم تـزري بشعر مستقيم صحيح في موازين العروض كأنك لم تحط مذ كنت علما بمخبـون الضروب ولا العروض

ويظهر قدرة على التلاعب بمفردة العروض، فهي تحمل في كل بيت معنى مختلفا .

ملك النحاة⁽¹⁾: (489 - 568هـ)

نسبه ومولده وعلمه:

الحسن بن صافي بن عبد الله أبو نزار بن الحسن الملقب بملك النحاة، ولد ببغداد، أخذ العلوم عن شيوخ عصره، تنقل بين بقاع مختلفة من العالم الإسلامي، حيث حطّ به المقام في دمشق وظلّ بها حتى وفاته .

صفاته وثقافته :

عشق الحسن النحو حتى الثمالة ، وبرع فيه إلى الحد الذي أوصله العجب، وكان أنحى أهل طبقته، فخورا بنفسه ، مستخفا بالعلماء ، يقرّع من لا يدعوه بلقبه الذي خلعه على نفسه . ملك النحاة . نال خلع نور الدين زنكي فقد كان معجبا به أيما إعجاب، ومع ذلك كان صحيح الاعتقاد ، كريم النفس، مطبوعا، متناسبا الأحوال، شافعي المذهب .

¹ - ينظر ابن خلكان ، وفيات الأعيان، 92/2-93. والقنطري، انباه الرواة، 340/1-345. والسيوطي، بغية الوعاة، 504/1-505. وياقوت الحموي، معجم الأدباء، 226/3-236. والصفدي، الوافي بالوفيات، 56/12-59. وابن شهبة، طبقات الفقهاء الشافعية، 321/1-322. والفيروزآبادي، البلغة في تراجم أئمّة النحو واللغة، 68-84. ابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، 227/2. البغدادي، هدية العارفين، 279/1. و محمد زغلول سلام، الأدب في العصر الأيوبي، 118-119. و أحمد أحمد بدوي، الحياة العقلية في عصر الحروب الصليبية، 199-200.

آثاره:

له مصنفات في النحو والصرف والقراءات والفقه والأصول، وله ديوان شعر، ومن كتبه :
الحاوي و التذكرة الشعرية والمقامات وكتاب في العروض وكتاب العمدة في النحو
والمنتخب في النحو والمقتصد في الصرف وأسلوب الحقّ والحاكم في الفقه .

ويبدو لنا من خلال كثرة مؤلفاته أنه كان ضليعا في النحو متفننا فيه من خلال التصنيف
والتأليف .

شعره :

له ديوان شعر حسبما أوردت المصادر ، ويحتوي على عدّة مدائح نبويّة، إلا أننا نجد أن
أشعاره متناثرة وبحاجة إلى الجمع والتصنيف.

عبد الرحمن بن الجوزي⁽¹⁾: (597.508هـ)

نسبه ومولده وعلمه:

هو أبو الفرج ، عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي، القرشي، التيمي البغدادي
الحنبلي، ولد في مشرعة الجوز إحدى محال بغداد ، كان والده إمام العراق في وقته،
وابنه هذا خلفه، سمع الحديث والتفسير من علماء عصره، عمل في التدريس وكان مفتيا،
حضر مجالس العلماء والأمراء والوزراء، بلغ في فنّ الوعظ شأوا بعيدا .

صفاته وثقافته :

نشأ شغوفاً بقراءة القرآن الكريم ، وسماعاً للحديث الشريف، وتفقه في الاثنين، وبلغ
عدد مشايخه ثمانين شيخا، عني بالعلم عناية فائقة، وتصدى لفنونه من لغوية وتاريخية

¹ - ينظر ابن الشعار الموصلي، قلائد الجمان في فراند شعراء هذا الزمان، (نسخة مخطوطة مصورة في
الجامعة الأردنية) 158/10-159. ابن خلكان، وفيات الأعيان، 279/1. وطاش كبرى زادة، مفتاح السعادة ،
207. أبو شامة المقدسي، الذيل على الروضتين، 33/5-35. حاجي خليفة، كشف الظنون، 520/5-523. وابن
الوردي، تاريخ ابن الوردي، 169/2-170. الزركلي، الأعلام، 316/3-317. عبد الحميد الطلوجي، مؤلفات ابن
الجوزي، 11-12. وصلاح الدين الهوارى، المولد النبوي الشريف، 81-83. ومحمد زغلول سلام، الأدب في
العصر الأيوبي، 119.

وأدبية وفقهية وغيرها حتى عدّ علامة عصره ، كان زاهدا في الدنيا، متقللا عنها، ذكر بأنه تاب على يديه مئة ألف، وأسلم على يديه عشرة آلاف يهودي ونصراني، فضلا عن أنه كان يختم القرآن في كلّ سبعة أيام، يقال إنه جمعت براية أقلامه التي كتب بها حديث الرسول فحصل منها شيء كثير، وأوصى أن يسخّن بها الماء الذي يغسل به بعد موته، ففعل ذلك، فكفت وفضل منها، بلغ عدد مصنفاته ثلاثمائة مصنف، وهذا يدلّ دلالة قطعية أننا نقف أمام شخصيّة كان لها كبير فضل على المكتبة العربية بما رفدتها من علوم وفنون لا يمكن لأحد أن يتجاهلها .

آثاره:

ذكرنا أن آثاره قد تجاوزت الثلاثمائة مصنف ، ولا مجال هنا لتعدادها لأنها تحتاج إلى سفر مستقل، وهذا ما صنعه عبد الحميد العلوجي في سفره الي خصّه بمؤلفات ابن الجوزي، ولكن يجدر بنا أن نذكر الأشهر منها : تلقيح فهوم أهل الآثار في مختصر السير والأخبار، والأذكياء، و مناقب عمر بن عبد العزيز ، وروح الأرواح ، وتلبس إبليس، والمنتظم في تاريخ الملوك والأمم، وصيد الخاطر، وزاد المسير في علم التفسير ، والناسخ والمنسوخ ، و مناقب عمر بن الخطاب، وكتاب الحمقى والمغفلين.

شعره :

أوردت المصادر من خلال تعدادها لمصنفات ابن الجوزي على أنّ له ديوان شعر ولكن إلى يومنا هذا ما زال ذلك الديوان مجهول المقام؛ إذ لم يعثر عليه، ولكن له أشعار- في غير المديح النبوي - كثيرة ولطيفة منها يخاطب أهل بغداد : [المتقارب]

عذيري من فتية بالعراق قلوبهم بالجفا قلب
يروون العجيب كلام الغريب وقول القريب فلا يعجب
ميازيهم إن تندت بخير إلى غير جيرانهم تقلب

وعند ذرهم عند توبيخهم مغنية الحيّ ما تطرب⁽¹⁾

وله أشعار كثيرة في المديح النبوي ، يمتدح فيها الرسول بصنوف من الصفات الحسية والمعنوية ، ويبين مكانته في هذا العالم .

صفوان بن إدريس⁽²⁾: (560. 598هـ)

نسبه ومولده وعلمه:

ولد صفوان بن إدريس بن إبراهيم التجيبي في مدينة مرسية شرق الأندلس، وإليها انتسب، وفيها توفي، كنيته أبو بحر، كان أديبا كاتباً وشاعراً سريع الخاطر، أخذ عن أبيه، وعن أفضل العلماء في عصره، كان كثير الترحال.

صفاته وثقافته:

نشأ صفوان في بيت علم فقد كان أبوه من قضاة الأندلس ، مما تسنى له ملازمته والتثقف على يديه، قرأ الشعر والأدب على كبار الأدباء من شيوخ عصره، مما أهله أن يكون أديبا جليلا وحافظا، وكان يمتاز بسرعة الخاطر، مليح العشرة، وكان شجاعا سمحا، تتق ثقافة من نوع آخر وهي حبّ الترحال، وما فيها من علوم ومشاهدات، ويظهر هذا في كتبه، أضف إلى ذلك بحثه عن المتعة ، والأخيرة وفرتها له البيئة الأندلسية وما حملت من جماليات الطبيعة الخلافة التي تميزت بها الأندلس.

آثاره:

له تصانيف منها: كتاب زاد المسافر وراحلته، وكتاب العجالة مجلدان يتضمنان طرفا من نثره وشعره، وله ديوان شعر .

¹ - صلاح الهواري ، المولد النبوي الشريف، 81.

² - ينظر ابن الشعار الموصلي، فلاند الجمان في فراند شعراء هذا الزمان، 111/3-112. والصفدي ، الوافي بالوفيات، 321/16. وياقوت الحموي، معجم الأدباء، 4/338-341. وابن شاعر الكتبي، فوات الوفيات، 2/117. و المقري، نفح الطيب، 5/62. و محمد أحمد درنيقة، معجم أعلام شعراء المدح النبوي، 176-177. ابن الخطيب، الإحاطة في أخبار غرناطة، 3/359. ونعمات جمال البداينة، صفوان بن إدريس حياته وأدبه، رسالة ماجستير مقدّمة إلى الجامعة الأردنية، بإشراف صلاح جرار ، 1997.

شعره :

هام صفوان بطبيعة الأندلس كغيره من شعراء الأندلس، فنراه يصف جمالها وطبيعتها
من أنهار، ورياض وأزهار، يقول: [الطويل]
وما روضــــــــة الخضراء قد مثلت بها مجرّتها نهرا وأنجمها زهرا
ويقرضــــــــه ذوب اللجين وإنما توفيه عيني من مدامعها تبرا
بأبهــــــــج منها والخليج مجرّة وقد فضحت أزهار ساحتها الزهرا
وقد أسكرت أعطاف اغصانها الصبا وما كنت اعددت الصبا قبلها خمرا (1)

ويظهر أنه اتجه إلى مديح الرسول بعدما لقي جفوة من الحكام والأمراء، إذ كان
يهدف من وراء مديحهم إلى التكسب، ولما لقي تبهما منهم قصر مديحه على النبي وآل
البيت، حيث وجده نعم الملاذ، وأقسم ألا يعود لمدح أحد منهم .

الشباني (2): (568 هـ ...)

نسبه ومولده وعلمه:

هو يعقوب بن محمد بن علي، وكنيته أبو يوسف، من مواليد مدينة دمشق، وهو ممن
رثى الملك عثمان المتوفى سنة 595 هـ (3)، والأخبار حول هذا الشاعر قليلة جداً،
حتى يمكن القول لولا النزر اليسير الذي طالعنا به ابن الشاعر لبقى مجهولاً.

آثاره وشعره:

جاء شعره لطيفاً سائغاً، حيث امتدح النبيّ محمداً في قصائد عديدة، حيث يظهر
تعلقه بالحجازيات، وأغلب القصائد النبوية التي أوردتها ابن الشاعر الموصلية في فرائده

1 - ابن الخطيب، الإحاطة في أخبار غرناطة، 354/3.

2 - ابن الشعر الموصلية، فلاند الجمال في فرائد شعراء هذا الزمان، 85/10. و شفيق الرقب، الشعر العربي
في القرن السادس الهجري، 271.

3 - هو الملك العزيز عثمان بن صلاح الدين، صاحب الديار المصرية، توفي وعمره سبع وعشرون سنة. أبو
شامة المقدسي، الذيل على الروضتين، 25/5. وانظر المرتضى الزبيدي، ترويح القلوب بكر ملوك بني أيوب،
وفيات 595 هـ .

تدلّ على تعلقه بها، وقد جعلها في مقدّمات قصائده، ويدلّ شعره على ملكة شاعر متمكن في مضمار الشعر.

ابن الساعاتي⁽¹⁾: (604.553هـ)

نسبه ومولده وعلمه:

أبو الحسن، بهاء الدين، علي بن محمد بن رستم بن هرمز، من مواليد دمشق، ينحدر من سلالة فارسية، كان أبوه خبيراً بصناعة الساعات الفلكية، قرأ الشعر واستكمل حظه من الثقافة، كان طموحاً باحثاً عن المال والرفاهية، رحل إلى مصر بعد أن بلغ الثلاثين، ويبدو أنه حقق ما تمناه.

صفاته وثقافته:

برع في الخطّ والشعر والشطرنج والفروسية، كان علامة ورعاً كاتباً، نادماً كبراء الدولة، فهاموا به حباً، تثقف ثقافة المشرق والمغرب، وهذا يدلّ على أنه كان يتمتع بعلاقات اجتماعية جيدة مع الآخرين أهلته أن يكون من المقربين، فقد قرّبه صلاح الدين، وهو ممن وصف معركة حطين، حيث انتصار المسلمين على الصليبيين.

آثاره:

خلف الشاعر تراثاً غزيراً، فمن مؤلفاته: مجمع البحرين في الفقه، وكتاب شرح مجمع البحرين، والبديع في الأصول، وكتاب الدر المنضود في الردّ على فيلسوف اليهود- ويعني بفيلسوف اليهود ابن كمونة اليهودي صاحب كتاب تنقيح الأبحاث عن الملل الثلاث - وديوان شعر.

¹ - ينظر ابن أبي أصيبعة، عيون الأنبياء في طبقات الأطباء، 183/2-184. وحاجي خليفة، كشف الظنون، 246/2. وابن سعيد الأندلسي، الغصون اليانعة في محاسن المائة السابعة، 118-130. ومحمد بن رافع السلام، تاريخ علماء بغداد المسمى المنتخب المختار، 35-36. وابن تغري بردي، النجوم الزاهرة في أخبار مصر والقاهرة، 59/6. وعمر موسى باشا، الأدب في بلاد الشام عصور الزنكيين والأيوبيين والمماليك، 298-325، والأدب في بلاد الشام من العصر الإسلامي وحتى نهاية العصر العباسي، 370-373. وأحمد أحمد بدوي، الحياة الأدبية في عصر الحروب الصليبية، 189-195. وشوقي ضيف، عصر الدول والإمارات الشام، 156-158. وأنيس المقدسي، مقدمة ديوان ابن الساعاتي، 18-44.

شعره :

جمع الشاعر بين ألفاظ المشاركة الرقيقة، ومعاني المغاربة الدقيقة، ويظهر براعة في الوصف مثلما صنع عندما ساير صلاح الدين إلى حطين، فهو يقول: [الوافر]

جلت عزمــــــــــــــــاتك الفتح المبينا فــــــــــــــــد قرت عيون المؤمنينا
 رددت أخيــــــــــــــــذة الإسلام لما غــــــــــــــــدا صرف القضاء بها ضمينا
 وهان بــــــــــــــــك الصليب وكان قدما يعزّ عليــــــــــــــــ العوالي أن يهونا
 ومــــــــــــــــاطبريــــــــــــــــة إلا هديّ ترفــــــــــــــــع عن أكفّ اللامسينا
 قضيت فريضة الإسلام منها وصدقت الأمانى والظنون⁽¹⁾

ويميل الشاعر إلى الطبيعة واصفا مظاهرها، وما يروق له منها، على أن شعره لا يخلو من التأثير بالزخرفة الفنية والإبداعية خاصة شغفه بفنّ البديع .

ابن جبير⁽²⁾: (539.614 هـ)

نسبه ومولده وعلمه :

محمد بن أحمد بن جبير بن سعيد الكناني، ولد في بلنسية في الأندلس، درس الحديث والفقه على أبيه، وتلقى علوم الأدب في شاطبة، رحل مرتين إلى المشرق، زار في الأولى العراق والشام ثم عاد، وفي الثانية حضر تحرير بيت المقدس من براثن الصليبيين، وقيل إنه رحل ثالثة وقصد فيها الديار الحجازية للحج، ولكنه ما لبث أن لحق بالرفيق الأعلى في طريق عودته إلى وطنه، وكانت وفاته بالإسكندرية.

صفاته وثقافته :

كان صالحا ورعا تقيا، سمح الأخلاق، متدينا، زاهدا، كريم العشرة، برع في الشعر ووصل فيه إلى حدّ الإكثار، كان يعشق السفر والترحال، والدليل على ذلك سفراته المتكررة إلى المشرق.

¹ - ابن الساعاتي، الديوان، 402/2.

² - ينظر ابن الخطيب، الإحاطة في أخبار غرناطة، 231/4. والمقري، نفح الطيب، 142/2. وابن جبير، رحلة ابن جبير، 11. وعمر فروخ، تاريخ الأدب العربي، /608-613. فوزي الخطبا، شعر ابن جبير، 19-4.

آثاره:

ترك ابن جبير من الآثار ما يدل على رجاحة عقله ، وسماحة خلقه ، ونبله وشهامته ، فمنها: رحلته فهي ذائعة الصيت وغنيّة عن التعريف ، ويقال إنه ترك عدّة دواوين شعرية .

شعره :

قال في أغراض متعدّدة منها النسيب وتذكر الأوطان ، ووصف طبائع الناس، ولكنه ينأى بنفسه عن ذكر العورات ، يميل إلى البديع ، وفي المحصلة تظهر في شعره بعض النفحات الدينية .

فتيان الشاغوري⁽¹⁾: (530. 615هـ)

نسبه ومولده وعلمه:

هو فتیان بن علي جمال الدين الأسدي النحوي، ولد في المدينة الساحلية بانياس السورية، عاش حياته في حيّ الشاغور من أحياء دمشق، اكتسب العلوم حتى غدا صاحب حلقة تعقد ويؤمها الطلاب بحثا عن العلم، عمل عند الأيوبيين وقام على خدمتهم، ومدحهم بقصائد كثيرة.

صفاته وثقافته:

اهتمّ بقراءة الشعر، وعمله في حلقاته أهله أن يصبح ذائع الصيت، وصاحب شهرة، وهذا العمل في اللغة وفي التدريس جعل من شعره من القوة بمكان لا يضاهاه على صعيد عصره، أضف إلى ذلك ذكائه وموهبته وعلمه المكين، كان فقيرا وعاش كذلك أغلب حياته، ومع ذلك كان مرحا ، محبا للجمال واللهو والغناء.

¹ - ينظر ابن خلكان، وفيات الأعيان، 408/1. ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة في أخبار مصر والقاهرة، 190/3. العماد الأصفهاني، خريدة القصر، 247/1. عمر رضا كحالة، معجم المؤلفين، 54/8. الزركلي، الأعلام، 137/5. وعمر موسى باشا، الأدب في بلاد الشام عصور الزنكيين والأيوبيين والمماليك، 326-342. وشوقي ضيف، عصر الدول والإمارات الشام، 252-255. وأحمد الجندي، مقدّمة ديوان فتیان الشاغوري، 5-13. وعبد الله فرحان الخطيب، فتیان الشاغوري، حياته وشعره، أطروحة ماجستير مقدّمة إلى جامعة مؤتة، بإشراف شفيق الرقب، 2003م .

آثاره:

لقد أورث لنا الشاعر ديوانا ضخما من الشعر، صبّ فيه ذوب فؤاده، وتحدّث فيه عن نفسه وما كابدت من مشاق ، ولا ننسى أنه كان يشكو من الزمان وأهله، وله دوبيت.

شعره:

نظم الشاعر في أكثر أغراض الشعر العربي، وطبعت الطبيعة كثيرا من قصائده بأبهي الحلل، ولا يخلو شعره من البديع الذي طغى على أغلب شعراء عصره ، حيث وسموا بهذه السمة ، وبعدّ الشاعر من التأثيرين على النظم التقليدية في الشعر عندما قام بالنظم في الدوبيت، وفي الأغلب شعره يميل إلى السهولة ، وقد أثنى ياقوت عليه بقوله: " كان أديبا طبعا، وله أشعار رائعة جدا ، ومعان كثيرة مبتكرة " (1).

يعقوب الدمشقي (2): (.. - 623هـ)

نسبه ومولده وعلمه:

هو يعقوب بن عبد الله، رومي الأصل ، كندي المولى، دمشقي المنشأ، كنيته أبو يوسف، ذكره أبو البركات في تاريخه كما أورد ابن الشعار فقال: " أبو يوسف الكندي يعقوب بن عبد الله عتامة، أبي اليمّن زيد بن الحسن بن زيد النحوي، كان يدعى قبل ذلك ياقوت، فسّمى نفسه يعقوب " (3).

صفاته وثقافته:

كان شيخا ، وافي الجثة، ورد إربل زمن الأيوبيين، درس على شيوخ عصره، حيث سمع من عبد الرحمن الجوزي، عمل موفدا خاصا للملك المعظم عيسى بن أبي بكر بن أيوب، صاحب دمشق.

1 - ياقوت الحموي، معجم البلدان، (شاعور) 310/3.

2 - ينظر ابن الشعار الموصلي، قلاند الجمان في فراند شعراء هذا الزمان، 159-158/10.

3 - نفسه، 159-158/10.

آثاره وشعره:

لقد ترك يعقوب الدمشقي موروثة شعريا، ولكنه مازال بحاجة إلى جمع وتحقيق، فقد ورد أغلبه في الجزء العاشر من قلائد الجمان لابن الشعار، وأغلبه لطيف في المديح النبوي.

عبد المحسن التنوخي⁽¹⁾: (570 - 643 هـ)

نسبه ومولده وعلمه:

أبو الفضل عبد المحسن بن حمود بن علي بن يوسف التنوخي، كانت ولادته في حلب، كان عامياً يقطع الحجارة ويبيعها ويرتزق بها ومنها، نشأ محبا للعلم، راغبا في تحصيله، استظهر الكتاب العزيز، وقرأه للسبعة، وجود قراءته، وقرأ من الكتب الأدبية والشعرية، وكذلك مقامات الحريري وحماسة أبي تمام، ودرس النحو واطلع على كثير من أخبار الناس وأيامهم، وسمع الحديث النبوي الشريف، ولقي المشايخ بحلب وأخذ عنهم.

صفاته وثقافته:

جمع ثروة من العلم أهلته أن يتولى الكتابة الإنشائية وصناعة الترسل، فبرز في ذلك وأجاد، فتح مكتبا يعلم الصبيان في حلب بقي فيه مدة، ثم سافر عن الوطن وتوجه إلى دمشق، خدم خلالها في ديوان بني أيوب، ثم انتقل إلى الديار المصرية، ومنها عاد إلى حمص فحلب حيث توفي فيها، كان يمتاز بالذكاء، وصفاء الذهن.

آثاره:

ترك ابن حمود العديد من المؤلفات، منها: مفتاح الأفراح في امتداح الراح، والأخبار والنوادر، ورسالة الأنوار المقتبسة من أوار النار، ديوان ترسل، وديوان شعر، على أن

¹ - ينظر ابن الشعار الموصلية، قلائد الجمان في فرائد شعراء هذا الزمان، 4/105-107. و البغدادي، هدية العارفين، 1/621. وابن شاکر الكتبي، فوات الوفیات، 2/10. وعمر رضا كحالة، معجم المؤلفين، 6/172. والزرکلي، الأعلام، 4/151.

محسن جمال الدين جمع مختارات من شعره ببغداد⁽¹⁾، ولكن لم يتسنّ لي الإطلاع عليها.

شعره:

وصفه ابن الشاعر بأنه ممن أولع بالشعر حتى بلغ فيه مبلغاً لم يبلغه أحد من أبناء زمانه، وتقدّم على عامّة معاصريه فيه⁽²⁾.

ومن جملة ديوان شعره له عدّة مدائح نبوية، منها واحدة مطولة، عارض فيها بانت سعاد، ويظهر أنّه تأثر بما غلب على عصره فتميّز شعره بطغيان الصنعة، ولكن الألفاظ تميزت بالرشاقة وابتعدت عن الغرابة.

السخاوي⁽³⁾: (558. 643 هـ)

نسبه ومولده وعلمه:

هو علي بن محمد بن عبد الصمد الهمداني، المصري، الشافعي، علم الدين، أبو الحسن، أصله من سخا (بمصر) انتقل إلى دمشق، تتلمذ فيها على يديه خلق كثير، بعدما برع في العلوم واكتسابها.

صفاته وثقافته:

قرأ القرآن بالروايات، وتعلم الأدب حيث كانت تعقد له حلقة خاصّة بدمشق، كان ذكياً، شغوفاً في طلب العلم، أمّ بيته الطلاب ومحبو العلم، حيث استفادوا منه، وأفادهم.

¹ - الزركلي، الأعلام، 151/4.

² - قلاند الجمان في فراند شعراء هذا الزمان، 105/4.

³ - ينظر ابن خلكان، وفيات الأعيان، 340/3. والقفطي، إنباه الرواة، 311/2-312. و السيوطي، بغية الوعاة، 192/2-194. وياقوت الحموي، معجم الأديباء، 376/5-377. وابن تغري بردي، النجوم الزاهرة في أخبار مصر والقاهرة، 354/6. والزركلي، الأعلام، 332/4-333.

آثاره :

ترك السخاوي ثروة هائلة من الكتب، وهذا يدل على طول باع في مجال التأليف والتصنيف، منها: في علم التجويد جمال القراء وكمال الإقراء، هداية المرتاب وهي منظومة في متشابه كلمات القرآن، والمفضل يقع في أربعة أجزاء يشرح فيه المفصل للزمخشري، وسفر السعادة وسفير الإفادة، وله كتب أخرى كثيرة.

شعره:

له شعر متناثر، ولكن المصادر القديمة ذكرت بأن له ديوان شعر، وقد عثرت له على قصيدة مطولة تقع في خمسة وخمسين بيتا من الشعر، وأسمائها ذات الشفا، وهي في مدح سيد الأنام محمد العدنان.

الصرصري (1): (581. 656هـ)

نسبه ومولده وعلمه:

ولد جمال الدين يحيى بن يوسف بن منصور الصرصري الضرير في صرصر على بعد فرسخين من بغداد، تثقف على شيوخ عصره، ونال الإجازة منهم وأصبح مدرسا لعلمي الحديث والفقه، كان حنفي المذهب .

صفاته وثقافته:

نعتة ابن رجب قائلا: "كان صالحا قدوة، كثير التلاوة، عفيفا صبورا قنوعا، محبا لطريقة الفقراء ومخالطتهم، وكان يحضر معهم السماع، وكان شديدا في السنة، منحرفا عن المخالفين" (2).

¹ - ينظر ابن شاکر الکتبی، فوات الوفيات، 298/4. و ابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، 286/5. و اليافعي، مرآة الجنان، 147/4. و المقريزي، السلوك، 503/1. ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة في أخبار مصر والقاهرة، 66/7-67. و ابن رجب الحنبلي، الذيل على طبقات الحنابلة، 212/2-213. و كارل بروكلمان، تاريخ الأدب العربي، 26/3.
² - الذيل على طبقات الحنابلة، 212/2.

أضف إلى ما سبق سرعة خاطر وحدة الذكاء ، وتمكنه من القرآن والفقهاء أهلاه من أن يصبح مقدماً حتى غدا جليس الأمراء والأعيان والوزراء .

آثاره:

أغلب آثار الصرصري عنيت بالرسول - صلى الله عليه وسلم - فقد خلف ثروة هائلة من المدائح النبوية منها: منتقى من مدائح الرسول في معرفة أوائل شهور الروم ومعرفة عددها، المختار من مديح المختار، عقيدة وهي قصيدة في مدح النبي، وصية في العقيدة، الوصية الصرصرية، أضف إلى ذلك ديوانه المحقق من قبل مخيمر صالح .

شعره:

أجمعت المصادر التي عدت إليها على علو كعب الشاعر في النظم ، حتى أنهم أطلقوا عليه حسان زمانه، لما عرف عنه من سيرورة شعره، ونظمه جاء متفاوتا بين الطول والقصر، أطول مدحة تقع في ثمانمائة وسبعة وستين بيتا، وأقصروا جاءت في سبعة أبيات، وشعره كله رائع سائخ.

ابن قزل (1): (602-656هـ)

نسبه مولده وعلمه:

هو علي بن عمر بن قزل بن جلدك التركماني الياروقي المصري، المعروف بالمشد، ولد بمصر ، وكان يتنقل في طلب العلم والجاه، درس الطب والفقهاء والحكمة والمنطق والنحو والعروض وعلم النجوم .

صفاته وثقافته:

تمتع بصفات كثيرة ذكرها ابن شاعر الكتبي ، إذ قال عنه: " كان فاضلا، أديبا جوادا، سمحا كريما ، ذا مروءة، وعنده ستر على الكتاب، وله صنائع وإحسان إلى أهل البلاد،

¹ — ينظر ابن شاعر الكتبي، فوات الوفيات، 51/3. وعيون التواريخ، 120/20. والمقريزي، السلوك، 413/1. وبدر الدين العيني، عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان، 161/1-162، 197. والسيوطي، حسن المحاضرة، 437/1. والزركلي، الأعلام، 315/4. وعمر رضا كحالة ، معجم المؤلفين، 159/7. ومشهور الحبازي، مقدمة ديوان ابن قزل، 47-17.

كثير البرّ والصدقة، وكان كل ليلة جمعة يجتمع عنده جماعة كبيرة من الأعيان والفضلاء والأدباء⁽¹⁾ والصفات السابقة يضاف إليها ما حازه الشاعر من ثقافة الترحال طلباً لحياة كريمة فضلى، وجاها جعله يبحث ليجد لنفسه مكاناً بين الأعيان ويدون اسمه في أهل الزمان.

آثاره وشعره :

ترك ابن المشد ديوان شعر حقق ورأى النور عام 2002م، على يدي مشهور الحبازي ، أما شعره ففي غاية اللطافة والرقّة ، وجمع بين الحسن والجودة والشهرة، ورفض محقق الديوان الحكم على شعره بالضعف الذي نعت به من قبل عمر فروخ.⁽²⁾

الصاحب شرف الدين الأنصاري⁽³⁾: (586 - 662 هـ)

نسبه ومولده وعلمه:

ولد عبد العزيز بن محمد بن عبد المحسن بن منصور الأنصاري في دمشق، كان يعرف بابن الرفاء، رحل برفقة والده رحلات عديدة، حيث كان أبوه يعمل قاضياً، تلقى علمه على يده، رحل إلى بغداد وهناك سمع من مشايخها وعلمائها ومحدثيها.

صفاته وثقافته:

كان طموحاً، ومحباً للعلم، ونبياً، وذكياً، أكسبه حله وترحاله مع تشجيع ملوك حماة ثقافة عالية، لذا أمه طلبة العلم كل حذب وصوب، وسار ذكره في الآفاق، وبروز مكانته

¹ - عيون التواريخ، 120/20.

² - ينظر ابن قزل ، الديوان ، 26.

³ - ينظر السبكي، طبقات الشافعية، 108/5. وابن تغري بردي، النجوم الزاهرة في أخبار مصر والقاهرة، 231/7. وابن إياس، بدائع الزهور، 103/1. واليونيني، ذيل مرآة الزمان، 239/2. وأبو شامة المقدسي، الذيل على الروضتين، 350/5. والسيوطي، بغية الوعاة، 102/2. ابن شاعر الكتبي، فوات الوفيات، 365/1. والصفدي، الوافي بالوفيات، 554-456/18. وعمر موسى باشا، الأدب في بلاد الشام، عصور الزنكيين و الأيوبيين والمماليك، 373-407.

العلمية جعلته يستحق أن يخلع عليه ألقاباً عدة منها " شيخ الشيوخ "

آثاره وشعره:

لقد ترك الشاعر شرف الدين الأنصاري مؤلفات عديدة، منها : نظرة المعشوق إلى وجه المشوق، وتذكار الواجد بأخبار الوالد، وديوان شعره " إزام الصُّروب بالتزام المندوب " وهو ديوان في لزوم ما لا يلزم، الذي أشاد به الصفدي بقوله: " لا أعرف في شعراء الشام بعد الخمسمائة وقبلها من نظم أحسن من شرف الدين، وما رأيت له شيئاً إلا وعلقته لما فيه من النكت والتوريات الفائقة، والقوافي المتمكنة، والتركيب العذب، واللفظ الفصيح، والمعنى البليغ " (1).

¹ - الصفدي، الوافي بالوفيات، 18/546-547.

فهرس المصادر والمراجع :

. القرآن الكريم

أ. المصادر المخطوطة:

- 1- العمري، ابن فضل الله أحمد بن يحيى (ت749هـ) ، مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، مركز المخطوطات - الجامعة الأردنية، رقم الحفظ (1066) .
2. الموصلي ، ابن الشعار المبارك بن أحمد (ت 654هـ)، قلائد الجمان في فرائد شعراء هذا الزمان، طبع بالتصوير عن مخطوطة (2325) مجموعة أسعد أفندي، مكتبة السليمانية، استنبول، الجامعة الأردنية، عمان(10.1).

ب. المصادر والمراجع المطبوعة:

1. الأبيوردي، محمد بن أحمد (ت507هـ)، الديوان، تحقيق عمر الأسعد، مؤسسة الرسالة، ط2، بيروت، 1987م.
2. ابن الأثير، ضياء الدين، المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، تحقيق أحمد الحوفي وبدوي طبانة، مطبعة نهضة مصر، ط1، القاهرة، 1960م.(4.1)
3. ابن الأثير، عزّ الدين، التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية بالموصل، تحقيق عبد القادر طليمات، دار الكتب الحديثة،(د.ط) القاهرة، 1963م.
- 4- الأسد، ناصر الدين، القيان والغناء في العصر الجاهلي، دار المعارف بمصر، ط2، 1968م.
- 5- الأسدي، الكميت بن زيد، القوائد الهاشميات، تصحيح أحمد محمد شاكر، القاهرة، مصر 1321هـ. ومطبعة الأعلمي، (د.ط)، بيروت، 1972م.
- 6 - إسماعيل، عزّ الدين، الأدب وفنونه دراسة ونقد، دار الفكر العربيّ، ط8، القاهرة، 2002م.

7. الأصبهاني، عماد الدين محمد بن محمد (ت 597هـ)، خريدة القصر وجريدة العصر، (قسم شعراء العراق)، تحقيق محمد بهجة الأثري، دار الحرية للطباعة، (د.ط)، بغداد، 1976م.
8. الأصبهاني، عماد الدين الكاتب، الفتح القسي في الفتح القدسي، تقديم إبراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمية، ط1، بيروت، 2003م.
9. الأصفهاني، أبو الفرج، الأغاني، عن طبعة بولاق الأصلية، الناشر صلاح يوسف الخليل، دار الفكر للجميع، (د.ط) بيروت، 1970م، (26.1).
10. ابن أبي أصيبعة، أحمد بن القاسم (ت 668هـ)، عيون الأنباء في طبقات الأطباء، تحقيق نزار رضا، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، 1965م، (2.1).
11. الأعشى، ميمون بن قيس، الديوان، تحقيق محمد محمد حسين، دار النهضة العربية، بيروت، 1974م.
12. الأعشى، ميمون بن قيس، الديوان، شرحه وعلق عليه محمد ناصر الدين، دار الكتب العلمية، ط2، بيروت، 1993م.
13. إقبال، أحمد الشرقاوي، بانة سعاد في إمامات شتى، دار الغرب الإسلامي، ط1، بيروت، 1991م.
14. أمين، بكرى شيخ، مطالعات في الشعر المملوكي والعثماني، دار العلم للملايين، ط4، بيروت، 1986م.
15. الأنباري، كمال الدين عبد الرحمن بن محمد (ت 577هـ)، نزهة الألباء في طبقات الأدباء، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية، ط1، بيروت، 2003م.
16. الأندلسي، ابن جابر محمد بن أحمد (ت 780هـ)، الحلة السيرا في مدح خير الوري، تحقيق علي أبو زيد، عالم الكتب، ط2، بيروت، لبنان، 1985م.
17. الأندلسي، أبو الحسن علي بن موسى (ت 685هـ)، الغصون اليبانة في محاسن شعراء المائة السابعة، تحقيق إبراهيم الأبياري، دار المعارف، ط4، القاهرة، 1990م.
18. الأنصاري، جمال الدين عبد الله (ت 761هـ)، شرح قصيدة بانة سعاد، ضبط وفهرسة محمد الصباح، المكتب العالمي للطباعة والنشر والتوزيع، (د.ط)، (دون مكان)، 1996م.

- 19- الأنصاري، شرف الدين عبد العزيز بن محمد (ت 662هـ)، الديوان، تحقيق عمر موسى باشا، المطبعة الهاشمية، دمشق، 1967م.
- 20- أنيس، إبراهيم، موسيقى الشعر، (دون مكان)، ط5، 1981م.
- 21- ابن إياس، محمد بن أحمد الحنفي (ت 930هـ)، بدائع الزهور في وقائع الدهور، تحقيق محمد مصطفى، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط2، القاهرة، 1984م.
- 22- الأيوبي، بهرام شاه، الديوان، تحقيق غريب محمد علي أحمد، الهيئة المصرية العامة للكتاب، (د.ط)، القاهرة، 1991م.
- 23- الأيوبي، ياسين، آفاق الشعر العربي في العصر المملوكي، جروس برس، ط1، طرابلس، 1995م.
- 24- باشا، عمر موسى، الأدب في بلاد الشام عصور الزنكيين والأيوبيين والمماليك، دار الفكر، ط1، دمشق، 1989م.
- 25- باشا، عمر موسى، الأدب في بلاد الشام من العصر الإسلامي وحتى نهاية العصر العباسي، دار طلاس للدراسات والترجمة والنشر، ط1، دمشق، 1986م.
- 26- باشا، عمر موسى، تاريخ الأدب العربي العصر المملوكي، دار الفكر، ط1، دمشق، 1989م.
- 27- البخاري، محمد بن إسماعيل (ت 256هـ)، صحيح البخاري، ترقيم وتبويب محمد فؤاد عبد الباقي، مكتبة الصفا، ط1، القاهرة، 2003م (3.1).
- 28- بدوي، أحمد، الحياة الأدبية في عصر الحروب الصليبية بمصر والشام، دار نهضة مصر، ط8، القاهرة، 1979م.
- 29- بدوي، أحمد، الحياة العقلية في عصر الحروب الصليبية بمصر والشام، دار نهضة مصر للطبع والنشر، (د.ط) القاهرة، مصر (د.ت).
- 30- البردوني، عبد الله، الديوان، دار العودة، (د.ط) بيروت، 1986م.
- 31- البرعي، عبد الرحيم، شرح ديوان البرعي، مكتبة القاهرة، ط6، القاهرة، 2002م.
- 32- بروكلمان، كارل، تاريخ الأدب العربي، ترجمة رمضان عبد التواب، دار المعارف، (د.ط) القاهرة، 1975م. (1.6)
- 33- البطل، علي، الصورة في الشعر العربي حتى أواخر القرن الثاني، دار الأندلس للطباعة والنشر، ط1، بيروت، 1980م.

- 34- البغدادي، إسماعيل باشا، (ت 1920م)، إيضاح المكنون في الذيل على كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، بيروت، 1982م (2.1).
- 35- البغدادي، إسماعيل باشا، هدية العارفين وأسماء المؤلفين والمصنفين، بيروت، 1982م (2.1).
- 36- البغدادي، عبد القادر بن عمر (ت 1093هـ)، حاشية على شرح بانة سعاد لابن هشام، تحقيق نظيف محرّم خواجه، دار النشر فرانزشتاينر، شتوتغارت، ط1، ألمانيا، 1990م (3.1).
- 37- بكار، يوسف حسين، بناء القصيدة في النقد العربي القديم (في ضوء النقد الحديث)، دار الأندلس للطباعة والنشر، ط2، بيروت، 1982م.
- 38- البكري، عبد الله بن عبد العزيز (ت 487هـ)، معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع، تحقيق مصطفى السقا، عالم الكتب، (د.ط)، بيروت، (د.ت). (4.1).
- 39- البوريني، حسن وعبد الغني النابلسي، شرح ديوان ابن الفارض، دار التراث، (د.ط) بيروت، (د.ت). (2.1).
- 40- البوصيري، محمد بن سعيد، (ت 696هـ)، الديوان، قدّم له أحمد حسن بسج، دار الكتب العلميّة، ط1، بيروت، 2001م.
- 41- تايه، خضر عبد الله، ونبيل خالد الأغا، شعراء حول الرسول، دار البشير، ط1، عمّان، 1998م.
- 42- ابن تغري بردي، جمال الدّين أبو المحاسن يوسف (ت 874هـ)، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، دار الكتب، (د.ط) القاهرة، (د.ت). (16.1).
- 43- التونجي، محمد، شاعرات في عصر النبوة، دار المعرفة، ط1، بيروت، لبنان، 2002م.
- 44- ثابت، حسّان، الديوان، قدّم له عبداً مهنا، دار الكتب العلميّة، ط2، بيروت، لبنان، 1994م.
- 45- ثابت، حسّان، الديوان، تحقيق وليد عرفات، دار صادر، (د.ط) بيروت، 1974م (2.1).
- 46- الجاحظ، عمرو بن عثمان (ت 255هـ)، الحيوان، تحقيق عبد السلام هارون، دار الكتاب العربي، ط2، بيروت، 1969م (7.1).

47. ابن جبير، أبو الحسين محمد بن أحمد الكناني الأندلسي (ت614هـ)، رحلة ابن جبير، طبعة دار صادر ودار بيروت، (د.ط) بيروت، 1964م.
48. جحا، ميشال خليل، الشعر العربي الحديث من أحمد شوقي إلى محمود درويش، دار العودة - دار الثقافة، ط1، بيروت، 1999م.
49. الجرجاني، علي بن عبد العزيز (ت392هـ)، الوساطة بين المتبني وخصومه، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم وعلي الجاوي، دار إحياء الكتب العربية، ط3، بيروت. (د.ت).
50. ابن جعفر، قدامة (ت337هـ)، نقد الشعر، تحقيق كمال مصطفى، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر بمصر، والمثنى، ط2، بغداد، 1963م.
51. الجمحي، محمد بن سلام (ت232هـ)، طبقات فحول الشعراء، تحقيق محمود محمد شاكر، دار المعارف للطباعة والنشر، (د.ط)، القاهرة، 1952م.
52. حاجي خليفة، مصطفى بن عبد الله القسطنطي (ت1067هـ)، كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، دار الكتب العلمية، (د.ط)، بيروت، 1992م. (2.1).
53. ابن حجة، تقي الدين أبو بكر علي الحموي (ت837هـ)، خزانة الأدب وغاية الأرب، دار القاموس الحديث، (د.ط)، 1304هـ جريّة.
54. ابن حجة، تقي الدين، خزانة الأدب وغاية الأرب، شرح عصام شعيتو، دار ومكتبة الهلال، (الطبعة الأخيرة)، بيروت، 2004م. (2.1).
55. ابن حجر، امرؤ القيس (ت545م)، الديوان، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، القاهرة، مصر، ط2، 1964م.
56. ابن أبي حديد، عبد الحميد المدائني، شرح نهج البلاغة، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية، ط1، القاهرة، 1959م.
57. حسين، طه، حديث الأربعاء، دار المعارف، (د.ط) القاهرة، 1962م. (3.1).
58. حسين، طه، في الأدب الجاهلي، دار المعارف، ط2، القاهرة، 1927م.
59. حسين، علي صافي، الأدب الصوفي في مصر في القرن السابع الهجري، دار المعارف، (د.ط)، القاهرة، 1964م.
60. الحلاج، الحسين بن منصور (ت309هـ)، الديوان وبلية كتاب الطواسين، أصلحه أبو طريف الشيبلي، منشورات الجمل، ط1، كولونيا، ألمانيا، 1997م.

61. الحلبي صفي الدين، عبد العزيز بن سرايا (ت 750هـ)، الديوان، شرحه وضبط نصوصه عمر فاروق الطباع، شركة الأرقام بن أبي الأرقام، ط1، بيروت، 1997م.
62. الحلبي، صفي الدين، شرح الكافية البديعة في علوم البلاغة ومحاسن البديع، تحقيق نسيب نشاوي، دار صادر، ط1، بيروت، 1991م.
63. حمزة، عبد اللطيف، الحركة الفكرية في مصر في العصرين الأيوبي والمملوكي الأول، دار الفكر العربي، ط8، القاهرة، 1968م.
64. حمزة، عفت وصال، شعر النساء زمن النبوة، دار ابن حزم، ط1، بيروت، 2001م.
65. الحموي، ابن قسيم، الديوان، تحقيق سعود محمود عبد الجابر، دار البشير للنشر والتوزيع، ط1، عمان، 1995م.
66. الحموي، ابن واصل جمال الدين محمد، مفرج الكروب في أخبار بني أيوب، الجزء الثاني، تحقيق جمال الدين الشيال، المطبعة الأمريكية، (د.ط)، القاهرة، 1957م.
67. الحموي، ياقوت بن عبد الله (ت 626هـ)، معجم الأدياء إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب، تحقيق عمر فاروق الطباع، مؤسسة المعارف، ط1، بيروت، 1999م. (7.1).
68. الحموي، ياقوت بن عبد الله، معجم البلدان، دار صادر، (د.ط) بيروت، 1986م. (5.1).
69. الحنبلي، أحمد بن رجب (ت 876هـ)، شفاء القلوب في مناقب بني أيوب، تحقيق مديحة الشراقوي، مكتبة الثقافة الدينية، (د.ط) مصر، 1996م.
70. الحنبلي، ابن رجب، الذيل على طبقات الحنابلة، وضع حواشيه أسامة بن حسن، دار الكتب العلمية، ط1، بيروت، 1997م. (4.1).
71. الحنبلي، ابن العماد، (ت 1089هـ)، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، بيروت، لبنان، 1979م. (6.1).
72. خالد، محمد خالد، رجال حول الرسول، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، ط1، بيروت، 1996م.
73. الخطبا، فوزي، شعر ابن جبير، دار الينابيع للنشر، ط1، عمان، 1991م.
74. ابن الخطيب، لسان الدين، الإحاطة في أخبار غرناطة، تحقيق محمد عبد الله عنان، مكتبة الخانجي، (د.ط)، القاهرة، 1973.1977م.
75. خفاجي، عبد المنعم، الأدب في التراث الصوفي، مكتبة غريب، (د.ط) مصر، (د.ت).

- 76- خفاجي، عبد المنعم، الحياة الأدبية عصر بني أمية، دار الكتاب اللبناني، ط2، بيروت، 1973م.
- 77- خفاجي، عبد المنعم، الشعر الجاهلي، دار الكتاب اللبناني، ط2، بيروت، 1973م.
- 78- ابن خلدون، عبد الرحمن (ت 808هـ)، مقدمة ابن خلدون، دار القلم، ط11، بيروت، 1992م.
- 79- ابن خلكان، أحمد بن محمد، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق إحسان عباس، دار صادر، (د.ط) بيروت، 1977م. (8.1).
- 80- أبو الخير، محمود عبد الله، الشعر الشامي في مواجهة الصليبيين، دار الإسراء، ط1، عمان، 2003م. (2.1).
- 81- دائرة المعارف الإسلامية، إعداد إبراهيم زكي خورشيد وزملائه، الهيئة العامة للكتاب، ط2، القاهرة، (د.ت).
- 82- درنيقة، محمد أحمد، معجم أعلام شعراء المدح النبوي، قدّم له وضبط أشعاره ياسين الأيوبي، دار ومكتبة الهلال، (د.ط)، بيروت، 2003م.
- 83- الديلمي، مهيار أبو الحسن، الديوان، تحقيق أحمد نسيم، دار الكتب المصرية، (د.ط)، القاهرة، 1930م. (3.1).
- 84- الدينوري، ابن قتيبة (ت 276هـ)، الشعر والشعراء، تحقيق أحمد محمد شاکر، دار الحديث، ط3، القاهرة، 2001م. (2.1).
- 85- الرافعي، مصطفى صادق، تاريخ آداب العرب، دار الكتب العلمية، ط1، بيروت، 2000م. (3.1).
- 86- رشيد، ناظم، المدائح النبوية في أدب القرنين السادس والسابع للهجرة، دار الشؤون الثقافية، ط1، بغداد، 2002م.
- 87- رضا، علي، الإمام علي بن أبي طالب كرم الله وجهه رابع الخلفاء الراشدين، دار الكتب العلمية، (د.ط)، بيروت، (د.ت).
- 88- الرقب، شفيق محمد عبد الرحمن، الشعر العربي في بلاد الشام في القرن السادس الهجري، دار صفاء للطباعة والنشر، ط1، عمان، 1993م.
- 89- زايد، مصطفى محمود، النثر الفني في عهدي الدولتين الزنكية والأيوبيّة في مصر والشام، مؤسسة الرسالة، ط1، بيروت، 2004م.

90. الزبيدي، المرتضى (ت 1205هـ)، ترويح القلوب في ذكر مناقب بني أيوب، تحقيق صلاح الدين المنجد، مطبعة الترقى، (د.ط)، دمشق، 1971م.
91. الزركلي، خير الدين (ت 1976م)، الأعلام قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين، دار العلم للملايين، ط15، بيروت، 2002م. (8.1).
92. الزهراء، فاطمة (ت 11هـ)، الديوان، جمع وتحقيق محمد عبد الرحيم، دار قتيبة للطباعة والنشر والتوزيع، ط1، دمشق وبيروت، 2000م.
- 93- ابن زهير، كعب بن زهير المازني (ت 26هـ)، الديوان، صنعة أبي سعيد الحسن العسكري (ت 275هـ)، وضع حواشيه حنا نصر الحتي، دار الكتاب العربي، ط2، بيروت، 1996م.
94. أبو زيد، علي، البديعيات في الأدب العربي نشأتها. تطورها. أثرها، عالم الكتب، ط1، بيروت، 1983م.
- 95- زيدان، جورجى، تاريخ آداب اللغة العربيّة، مطبعة الهلال (د.ط)، القاهرة، 1913م. (4.1).
96. الزيات، أحمد حسن، تاريخ الأدب العربيّ، دار المعرفة، ط5، بيروت، 1999م.
- 97- السّاريسي، عمر عبد الرحمن، نصوص من أدب عصر الحروب الصليبيّة - دراسة وتحليل، دار المنارة، جدّة، السعودية، ط1، 1985م.
98. ابن السّاعاتي، علي بن رستم (ت 604هـ)، الديوان، تحقيق أنيس المقدسي، كلية العلوم والآداب، الجامعة الأمريكيّة، (د.ط)، بيروت، 1938م.
99. السّخاوي، محمد بن عبد الرحمن، (ت 902هـ)، الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، دار مكتبة الحياة، (د.ط)، (د.ت)، (12.1).
- 100 السّرطاوي، معاذ، ومروّح الرّفاعي، مختارات من الشعر العربي القديم، دار الفكر للنشر والتوزيع، ط1، عمان، 1989م.
- 101 السّرطاوي، محمود فايز إبراهيم، نور الدين زنكي في الأدب العربي في عصر الحروب الصليبيّة، دار البشير للطباعة والنشر، ط1، عمان، 1990م.
- 102 بن سعد، أبو عبد الله محمد بن سعد بن منيع (ت 230هـ)، الطبقات الكبرى، بيروت، 1968م.

103. سلام، محمد زغلول، الأدب في العصر الأيوبي، منشأة المعارف، (د.ط)، الإسكندرية، 1997م.
104. سلام، محمد زغلول، تاريخ النقد العربي من القرن الخامس إلى العاشر الهجري، دار المعرفة الجامعية، (د.ط)، القاهرة، (د.ت).
105. السّلامي، محمد بن رافع (774هـ)، تاريخ علماء بغداد (منتخب المختار)، صحّحه وعلق حواشيه عباس العزاوي، مطبعة الأهالي، (د.ط)، بغداد، 1938م.
106. سليم، محمود رزق، عصر سلاطين المماليك ونتاجه العلمي والأدبي، مكتبة الآداب، (د.ط)، القاهرة، 1965م. (8.1).
107. السيوطي، جلال الدين (ت 911هـ)، بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية، (د.ط)، بيروت، 1998م. (2.1)
108. السيوطي، جلال الدين، تاريخ الخلفاء، تحقيق طه عبد الرؤف سعد وياسر صلاح عذب، المكتبة التوفيقية، (د.ط)، القاهرة، (د.ت).
109. السيوطي، جلال الدين، حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية، ط1، بيروت، 2004م. (2.1).
110. الشاغوري، فتیان بن علي الأسدي (ت 615هـ)، الديوان، تحقيق أحمد الجندي، مطبوعات مجمع اللغة العربية، (د.ط)، دمشق، (د.ت).
111. الشايب، أحمد، أصول النقد الأدبي، مكتبة النهضة المصرية، ط6، القاهرة، 1960م.
112. شبيب، غازي، فنّ المديح النبويّ في العصر المملوكي، المكتبة العصرية، ط1، بيروت، 1998م.
113. ابن شدّاد، بهاء الدين يوسف بن رافع (ت 632هـ)، النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفيّة، تحقيق جمال الدين الشيال، دار المصرية للتأليف والترجمة، (د.ط)، القاهرة، 1964م.
114. شير، آدي، معجم الألفاظ الفارسيّة المعرّبة، مكتبة لبنان، (د.ط)، بيروت، 1980م.
115. أبو شريفة، عبد القادر وحسين لافي، مدخل إلى تحليل النصّ الأدبي، دار الفكر للنشر والتوزيع، ط1، عمّان، 1990م.
116. شوقي، أحمد، صفوة المؤلفات الكاملة - الشوقيّات، تحقيق علي عبد المنعم عبد الحميد، الشركة المصرية العالمية - لونجمان، ط1، القاهرة، 2000م. (2.1).

117. شوقي، أحمد، نهج البردة، شرح سليم البشري، مكتبة الآداب، (د.ط)، القاهرة، 1999م.
118. الصّابوني، محمد ضياء الدين، نفحات من الأدب الإسلامي، دار الصّابوني، ط1، حلب، 1996م.
119. صالح، بشرى موسى، الصّورة الشعرية في النقد العربي الحديث، المركز الثقافي العربي، ط1، بيروت، 1994م.
120. صالح، مخيمر، المدائح النبوية بين الصّرصريّ والبوصيريّ، دار ومكتبة الهلال، ط1، بيروت، 1986م.
121. الصّرصريّ، يحيى بن يوسف (ت 656هـ)، الديوان، تحقيق مخيمر صالح، منشورات جامعة اليرموك، (د.ط)، إربد، 1989م.
122. الصّفي، صلاح الدّين خليل بن أيبك (ت 764هـ)، الغيث المسجم في شرح لامية العجم، دار الكتب العلميّة، ط2، بيروت، 2003م. (2.1).
123. الصّفي، صلاح الدين، الوافي بالوفيات، المجلدات الأولى، بعناية هلموت ريتز، المعهد الألماني للدراسات الشرقية، (د.ط)، بيروت، 1980م. (30.1).
124. الصّفي، صلاح الدين، الوافي بالوفيات، جزء12، باعثناء رمضان عبد التواب، دار النشر فرانزشتاينر، شتوتغارت في دار صادر، بيروت، 1992م.
125. ضيف، شوقي، البارودي رائد الشعر الحديث، دار المعارف، القاهرة، 1964م.
126. —، تاريخ الأدب العربي، العصر الجاهلي، دار المعارف، ط8، القاهرة، 1960م.
127. —، العصر الإسلامي، دار المعارف، ط7، القاهرة، 1963م.
128. —، العصر العباسي الأوّل، دار المعارف، ط6، القاهرة، 1966م.
129. —، عصر الدول والإمارات - الشام، دار المعارف، ط2، القاهرة، 1990م.
130. —، عصر الدول والإمارات - مصر، دار المعارف، ط2، 1990م.
131. —، الشعر وطوابعه الشعبية على مرّ العصور، دار المعارف، ط2، القاهرة، 1977م.
132. —، فصول في الشعر ونقده، دار المعارف، ط2، القاهرة، 1971م.
133. —، الفنّ ومذاهبه في الشعر العربيّ، دار المعارف، ط9، القاهرة، 1960م.
134. —، في النقد الأدبيّ، دار المعارف، مصر، ط8، 1962م.

- 135- ضيف، عبد الستار، محمود بن عمر الزمخشري حياته وشعره، عالم الكتب، ط1، القاهرة، مصر، 1994م.
136. طاش كبري زادة، أحمد بن مصطفى (968هـ)، مفتاح السعادة ومصباح السيادة، دار الكتب الحديثة، مطبعة الاستقلال الكبرى، (د.ط) القاهرة، مصر، 1968م.
137. أبو طالب، عبد مناف بن عبد المطلب (ت 3ق.هـ) الديوان، تحقيق محمد حسن آل ياسين، دار ومكتبة الهلال، ط1، بيروت، 2000م.
138. ابن طباطبا، محمد بن أحمد العلوي (ت 360هـ)، عيار الشعر، تحقيق عبد العزيز بن ناصر المناع، دار العلوم للطباعة والنشر، (د.ط)، الرياض، 1985م.
139. عاشور، سعيد عبد الفتاح، الحركة الصليبية (صفحة مشرقة في تاريخ الجهاد العربي في العصور الوسطى) مكتبة الإنجلو المصرية، ط3، القاهرة، 1978م.
140. أبو العتاهية، إسماعيل بن القاسم (ت 211هـ)، أشعاره وأخباره، صنعة أبو بكر الصولي، تحقيق شكري فيصل، (د.ط)، دمشق، 1965م.
141. عباس، إحسان، فنّ الشعر، دار صادر، ط1، بيروت، لبنان، 1996م.
- 142- ابن عبد ربّه، أحمد بن محمد (ت 328هـ) العقد الفريد، تحقيق أحمد أمين ورفاقه، (د.ط) القاهرة، 1983م. (8.1).
- 143- عبد الله، محمد حسن، الصورة والبناء الشعري، دار المعارف، (د.ط)، القاهرة، 1981م.
- 144- العبود، عبد الكريم توفيق، الشعر العربي في العراق من سقوط السلاجقة حتى سقوط بغداد، المكتبة الوطنية، (د.ط)، بغداد، 1976م.
- 145- عتيق، عبد العزيز، علم العروض والقافية، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، (د.ط)، بيروت، لبنان، 1987م.
146. ابن العديم، كمال الدين (ت 660هـ)، بغية الطلب في تاريخ حلب، تحقيق سهيل زكار، دار الفكر للطباعة، (د.ط) بيروت، لبنان، 1988م. (12.1).
147. ابن العديم، كمال الدين، زبدة الحلب من تاريخ حلب، وضع حواشيه خليل المنصور، دار الكتب العلميّة، ط1، بيروت، لبنان، 1996م.
148. ابن عربي، محيي الدين محمد بن علي (ت 638هـ)، الديوان، شرحه أحمد حسن بسج، دار الكتب العلميّة، ط1، بيروت، لبنان، 1996م.

- 149- ابن عساكر، علي بن الحسن، تهذيب ابن عساكر، ترتيب عبد القادر بدران (ت 1927م)، مطبعة روضة الشام، (د.ط)، بيروت، 1329هـ. (4.1).
- 150- العسقلاني، ابن حجر(ت 852هـ)، الإصابة في تمييز الصحابة، القاهرة، (د.ط)، 1328هـ.. (8.1).
- 151- العسقلاني، ابن حجر، الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، دار الجيل، (د.ط)بيروت، (د.ت). (1-5).
152. العسكري، الحسن بن عبد الله (ت 395هـ)، كتاب الصناعتين الكتابة والشعر، تحقيق مفيد قميحة، دار الكتب العلميّة، ط2، 1984م.
- 153- العشماوي، محمد زكي، قضايا النقد الأدبي بين القديم والحديث، دار الشروق، ط1، القاهرة، 1994م.
154. ابن عصفور، علي بن مؤمن الحضرمي الإشبيلي(ت 663هـ)، ضرائر الشعر، وضع حواشيه خليل عمران المنصور، دار الكتب العلميّة، ط1، بيروت، 1999م.
155. العطوي، مسعد بن عيد، الاتجاهات الفنيّة في الشعر إبان الحروب الصليبيّة، مكتبة التوبة، ط1، الرّياض، 1995م.
156. العظم، يوسف، شعراء الدعوة الإسلاميّة في عهد النبوة، دار الفرقان، (د.ط)، عمّان، 1994م.
- 157- العقاد، عباس محمود، موسوعة عبّاس العقاد الإسلاميّة، دار الكتاب العربيّ، (د.ط)، بيروت، (د.ت). (4.1)
- 158- العلوجي، عبد الحميد، مؤلفات ابن الجوزي، منشورات مركز المخطوطات والتراث و الوثائق، ط1، الكويت، 1992م.
159. عيسى، حسن عبد الهادي، دراسة شعر تاج الملوك بوري بن أيّوب مع تحقيق ديوانه، دار الينايع للنشر، ط1، عمّان، 1997م.
160. العيني، بدر الدين محمود(ت 855هـ)، عقد الجمان في تاريخ أهل الزّمان، تحقيق محمد محمد أمين، الهيئة المصريّة العامة للكتاب(د.ط)، القاهرة، 1987م.(4.1).
- 161- الغرناطي، شهاب الدين أحمد بن يوسف(ت 779هـ)، كتاب طراز الحلة وشفاء الغلة، تحقيق رجاء السيد الجوهرري، مؤسسة الثقافة الجامعيّة، الإسكندريّة، القاهرة، 1990م.

162. غطاشة، داود وحسين راضي، قضايا النقد العربي قديمها وحديثها، دار القدس للنشر والتوزيع، ط1، عمان، 1989م.
163. ابن الفارض (ت632هـ)، الديوان، دار بيروت للطباعة والنشر، بيروت، 1979م.
164. فروخ، عمر (ت1987م)، تاريخ الأدب العربي، دار العلم للملايين، ط1، بيروت، 1981م. (6.1).
165. الفنسيان، سعود بن عبد الله، توثيق قصيدة بانت سعاد في المتن والإسناد، مكتبة الرشد، ط1، الرياض، 1999م.
166. فهمي، ماهر حسن، شوقي شعره الإسلامي، دار المعارف، (د.ط)، القاهرة، 1959م.
167. ابن الفوطي، كمال الدين عبد الرزاق البغدادي (ت723هـ)، الحوادث الجامعة والتجارب النافعة في المائة السابعة، تحقيق مهدي النجم، دار الكتب العلمية، ط1، 2003م.
168. الفيروزآبادي، محمد بن يعقوب (ت817هـ)، البلغة في تراجم أئمة النحو واللغة، تحقيق محمد المصري، منشورات مركز المخطوطات والتراث، ط1، الكويت، 1987م.
169. الفيروزآبادي، القاموس المحيط، تقديم محمد عبد الرحمن المرعشلي، دار إحياء التراث العربي، ط1، بيروت، 1997م. (2.1).
170. فيود، بسيوني عبد الفتاح، علم البديع دراسة تاريخية وفنية لأصول البلاغة ومسائل البديع، مؤسسة المختار، ط2، القاهرة، 1998م.
171. ابن قاضي شعبة، محمد بن تقي الدين (ت874هـ)، الكواكب الدرية في السيرة النورية، تحقيق محمود زايد، دار الكتاب الجديد، ط1، (د.مكان)، 1971م.
172. ابن قاضي شعبة، طبقات الشافعية، تحقيق علي محمد عمر، مكتبة التراث الثقافية الدينية، (د.ط) القاهرة، (د.ت). (2.1).
173. القاعود، حلمي، محمد صلى الله عليه وسلم في الشعر الحديث، دار الوفاء للطباعة والنشر، ط1، المنصورة، مصر، 1987م.
174. أبو زيد القرشي، محمد بن أبي الحطاب (ت في القرن الخامس)، جمهرة أشعار العرب في الجاهلية والإسلام، تحقيق علي محمد البجاوي، (د.ط) القاهرة، 1967م.
175. القرطاجني، حازم بن محمد (ت684هـ)، منهاج البلغاء وسراج الأدباء، تحقيق محمد الحبيب خوجة، دار الكتب الشرقية، (د.ط)، تونس، 1966م.

176. ابن قزل، علي بن عمر (ت656هـ)، الديوان، تحقيق مشهور الحبازي، مركز التعاون و السلام الدولي، (د.ط) القدس، فلسطين، 2002م.
177. القيرواني، ابن رشيق (ت456هـ)، العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، تحقيق عبد الحميد الهنداوي، المكتبة العصرية، ط1، بيروت، 2001م. (2.1).
178. القيسي، نوري حمودي وهلال ناجي، أربعة شعراء عباسيون، دار الغرب الإسلامي، ط1، بيروت، 1994م.
179. الكاندهلوي، محمد يوسف، حياة الصحابة، مكتبة دار التراث، (د.ط)، القاهرة، 1965م. (3.1).
180. الكتبي، محمد بن شاعر (ت764هـ)، عيون التواريخ، تحقيق فيصل السامر وزميلته، دار الرشيد ودار الحرية، (د.ط)، بغداد، 1980م.
181. فوات الوفيات والذيل عليها، تحقيق إحسان عباس، دار الثقافة، (د.ط)، 1974م. (5.1).
182. ابن كثير، عماد الدين أبو الفداء إسماعيل (ت774هـ)، البداية والنهاية، تحقيق أحمد عبد الوهاب فتيح، دار الحديث، (د.ط)، القاهرة، 1992م. (9.1).
183. ابن كثير، عماد الدين أبو الفداء إسماعيل، البداية والنهاية، تحقيق أحمد أبو ملحمة ورفاقه، دار الكتب العلمية، ط3، بيروت، 1988م. (8.1).
184. ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، دار إحياء الكتب العربية، (د.ط) القاهرة، (د.ط). (4.1).
185. كحالة، عمر رضا، أعلام النساء في عالمي العرب والإسلام، مؤسسة الرسالة، ط10، بيروت، 1991م. (5.1).
186. كحالة، عمر رضا، معجم المؤلفين، دار إحياء التراث العربي، (د.ط)، بيروت، (د.ت). (15.1).
187. كيلاني، محمد سيد، الحروب الصليبية وأثرها على الأدب العربي في مصر والشام، دار الكتاب العربي، ط2، القاهرة، 1984م.
188. مالك، كعب بن مالك، الديوان، تحقيق مكي العاني، مكتبة النهضة، ط1، بغداد، 1966م.

- 189- مبارك، زكي (ت 1952م)، المدائح النبوية في الأدب العربي، دار الجيل، ط1، بيروت، 1992م.
- 190- محمد، محمود سالم، المدائح النبوية حتى نهاية العصر المملوكي، دار الفكر، ط1، دمشق، 1996م.
- 191- مجمع اللغة العربية، المعجم الوسيط، مطبعة المجمع، ط3، القاهرة. (2.1).
- 192- مراد، مصطفى، معجزات الرسول ألف معجزة من معجزات الرسول، دار الفجر للتراث، ط1، القاهرة، 2002م.
- 193- المرتضى، الشريف أبو الحسن محمد بن الحسين الموسوي، الأمالى، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية، (د.ط)، القاهرة، 1954م.
- 194- المرزباني، محمد بن عمران (ت 384هـ)، أشعار النساء، تحقيق سامي مكي العاني وهلال ناجي، عالم الكتب، ط1، بيروت، 1995م.
- 195- المرزباني، محمد بن عمران، معجم الشعراء، تحقيق عبد الستار فراج، مكتبة النوري، (د.ط)، دمشق، (د.ت).
- 196- مطلوب، أحمد، معجم المصطلحات البلاغية وتطورها، مكتبة لبنان، ط2، بيروت، 2000م.
- 197- المعري، أبو العلاء (ت 449هـ)، اللزوميات، شرح عمر أبو النصر، دار الجيل، (د.ط) بيروت، 1969م.
- 198- المقدسي، أنيس، أمراء الشعر العربي في العصر العباسي، دار العلم للملايين، ط15، بيروت، 1983م.
- 199- المقدسي، شهاب الدين عبد الرحمن أبو شامة (ت 665هـ)، كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية، وضع حواشيه وعلق عليه إبراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمية، ط1، بيروت، لبنان، 2002م. (5.1).
- 200- المقري، أحمد بن محمد التلمساني (ت 1041هـ)، أزهار الرياض في أخبار عياض، تحقيق مصطفى السقا وآخرين، المعهد الخلفي للأبحاث المغربية، (د.ط)، القاهرة، 1939م. (5.1)
- 201- المقري، أحمد بن محمد، نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تحقيق إحسان عباس، دار صادر، (د.ط)، بيروت، 1968م. (8.1).

202. المقرئزي، أحمد بن علي بن عبد القادر (ت 845هـ)، السلوك لمعرفة دول الملوك، صححه محمد مصطفى زيادة، مطبعة دار الكتب المصرية، القاهرة، 1936م. (8.1).
203. مكى، محمود علي، أدبيات المدائح النبوية، الشركة المصرية العالمية للنشر- لونغمان، ط1، الجيزة، مصر، 1991م.
204. مندور، محمد، الأدب وفنونه، دار المطبوعات العربية، (د.ط.)، بيروت، (د.ت)
205. ابن منقذ، أسامة بن مرشد بن علي (ت 584هـ)، البديع في البديع في نقد الشعر، تحقيق عبدأ مهنا، دار الكتب العلمية، ط1، بيروت، 1987م.
206. ابن منير الطرابلسي، أحمد بن مفلح الطرابلسي (ت 548هـ)، الديوان، قدم له عمر عبد السلام تدمري، دار الجيل، ط1، بيروت، 1986م.
207. الموصلي، ابن الشعار (ت 654هـ)، قلائد الجمان في فرائد شعراء هذا الزمان، جزء3، تحقيق نوري حمودي القيسي و محمد نايف الدليمي، دار الكتب للطباعة والنشر، ط1، جامعة الموصل، العراق، 1992م.
208. النابلسي، عبد الغني (ت 1140هـ)، نفحات الأزهار على نسيمات الأسحار في مدح النبي المختار، عالم الكتب، ط3، بيروت، 1984م.
209. ناصف، إميل، أروع ما قيل في مديح الرسول، دار الجيل، ط1، بيروت، 1999م.
210. ابن نباتة، جمال الدين محمد (ت 768هـ)، الديوان، نشر محمد القليلي، دار إحياء التراث العربي، (د.ط.) بيروت (د.ت).
211. النبھاني، يوسف بن إسماعيل (ت 1350هـ)، المجموعة النبھانية في المدائح النبوية، دار الكتب العلمية، ط1، بيروت، 1996م. (4.1).
212. النبھاني، يوسف بن إسماعيل، وسائل الوصول إلى شمائل الرسول، مراجعة حسن تميم، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، 1970م.
213. النعيمى، عبد القادر (ت 927هـ)، الدّارس في تاريخ المدارس، تحقيق جعفر الحسني، مطبعة الترقى، (د.ط.)، دمشق، 1951م. (2.1).
214. النواجي، شمس الدين محمد بن حسن (ت 859هـ)، المطالع الشمسية في المدائح النبوية، تحقيق حسن عبد الهادي عيسى، دار الينابيع للنشر والتوزيع، ط1، عمان، الأردن، 1999م.

215. أبو نواس، الحسن بن هاني (ت200هـ)، الديوان، شرح وضبط علي فاعور، دار الكتب العلميّة، ط2، بيروت، 1994م.
216. نوفل، محمد محمود قاسم، تاريخ المعارضات في الشعر العربي، مؤسسة الرّسالة، ط1، بيروت، 1983م.
217. النويري، شهاب الدين أحمد (ت733هـ)، نهاية الأرب في فنون الأدب، المجلد الثالث، تحقيق يحيى الشامي وآخرون، دار الكتب العلميّة، ط1، بيروت، لبنان، 2004م. (33.1).
218. النويري، شهاب الدين، نهاية الأرب في فنون الأدب، جزء 16، تحقيق علي محمد هاشم، دار الكتب العلميّة، ط1، بيروت، 2004م.
219. النويري، شهاب الدين، نهاية الأرب في فنون الأدب، جزء 18، تحقيق عبد المجيد ترحيني، دار الكتب العلميّة، ط1، بيروت، 2004م.
220. النيسابوري، مسلم بن الحجاج (ت261هـ)، صحيح مسلم، خرّج الأحاديث على كتب الصّحاح والسنن الستّة صدقي جميل العطار، دار الفكر للطباعة والنشر، ط1، بيروت، لبنان، 2003م.
221. الهرفي، محمد علي، الحروب الصليبيّة وأثرها على الشعر العربي، النادي الأدبي، (د.ط)، الرّياض، 1980م.
222. الهرفي، محمد. شعر الجهاد في الحروب الصليبيّة في بلاد الشام، مؤسسة الرّسالة، ط3، بيروت، 1980م.
223. ابن هشام، محمد بن عبد الملك (ت213هـ)، السيرة النبويّة، تحقيق محمد بيومي، مكتبة الإيمان، ط1، القاهرة، مصر، 1995م. (4.1).
224. هلال، محمد غنيمي، الأدب المقارن، دار العودة، ط2، بيروت، لبنان، 1970م.
225. الهاللي، حميد بن ثور (ت30هـ)، الديوان، تحقيق عبد العزيز الميمني، الدار القوميّة للطباعة والنشر، ط1، القاهرة، 1965م.
226. الهواري، صلاح الدين، المولد النبوي الشريف، دار ومكتبة الهلال، بيروت، ط1، 2003م.
227. هيكل، محمد حسين، حياة محمد، (د.ط)، القاهرة، 1358هـ.

- 228- ابن الوردي، زين الدين عمر (ت749هـ)، تتمة المختصر في أخبار البشر، دار المعرفة، ط1، بيروت، 1970م. (1.2).
229. الياضي، عفيف الدين عبد الله بن أسعد (ت768هـ)، مرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة حوادث الزمان، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، (د.ط)، بيروت، 1970م. (1.4).
230. اليعمري، ابن سيّد الناس، (ت734هـ)، منح المدح أو شعراء الصحابة ممن مدح الرسول أورثاه، تحقيق عفت وصال حمزة، دار الفكر، ط1، دمشق، 1978م.

ج - الدّوريات :

1. الألوسي، نوري شاكر، حالة الشعر في القرن السابع الهجري، مجلة الأستاذ، كلية التربية، جامعة بغداد، العدد الأوّل، بغداد، 1978م.
2. جبري، شفيق، شعرا بن الساعاتي، مجلة المجمع العلمي العربي، دمشق، مجلد18، الجزء 11.12، تشرين الثاني وكانون أوّل 1943م.
- 3- رشيد، ناظم، الأدب عند بني أيّوب، مجلة المورد، وزارة الثقافة والإعلام، العدد الثالث، بغداد، مجلد5، 1976م.

د - الرّسائل الجامعية :

1. البداينه، نعمات جمال، صفوان بن إدريس حياته وشعره، رسالة ماجستير، الجامعة الأردنية، عمّان، الأردن، 1997م.
2. الحمود، نجيه فايز حافظ، البهاء زهير حياته وشعره، رسالة ماجستير، جامعة اليرموك، إربد، الأردن، 1988م.
3. الخطيب، عبد الله فرحان، فتيان الشاغوري حياته وشعره، رسالة ماجستير، جامعة مؤتة، الأردن، 2003م.
4. الديك، محمد ساري، العباس بن مرداس السلمي حياته وشعره، رسالة ماجستير، جامعة الكوفة، العراق، 1996م.

5. الصايغ، هنريت زاهي سابا، اتجاهات الشعر العربي في القرن السابع الهجري في بلاد الشام، رسالة دكتوراه، جامعة القاهرة، مصر، 1980م.
6. صياد، حسين خضر، ديوان (أهنا المنايح في أسنى المدائح) لشهاب الدين الحلبي تحقيق ودراسة، رسالة ماجستير، جامعة الخليل، فلسطين، 2002م.
7. العميرة، أيمن فرحان، المدائح النبوية عند شهاب الدين محمود الحلبي دراسة موضوعية وفنية، رسالة ماجستير، جامعة مؤتة، الأردن، 1991م.
8. عمرو، علي عبد الله، تحقيق ديوان الزمخشري ودراسة شعره، رسالة دكتوراه، جامعة الأزهر، مصر، 1979م. (2-1).
9. عيد، محمد صلاح الدين، المدائح النبوية في الشعر العربي، رسالة دكتوراه، جامعة القاهرة، مصر، 1975م.
10. عيسى، حسن محمد عبد الهادي، دراسة شعر شمس الدين النواجي مع تحقيق ديوانه، رسالة دكتوراه، كلية دار العلوم، جامعة القاهرة، مصر، 1980م.

ملخص الرسالة:

قامت هذه الدراسة خدمة للرسول الأكرم، فقد مدح النبي في عصور مختلفة منذ فجر الإسلام حتى عصرنا الحاضر، ولكن أغلب الدراسات التي قامت لم يعن فيها أصحابها بمدح الرسول في عصر ظل مغيباً إلى فترات قريبة، والعصر الذي نعنيه العصر الزنكي والأيوبي.

وبما أن هذا العصر قد شهد أحداثاً مختلفة، ففيه تسنى للمسلمين صد تلك الغارات التي شنها أبناء الصليبيين على ديار الإسلام، ووجد فيه من القادة الأفاضل الذين عملوا على توحيد شؤون الأمة، وجمع شتاتها، بعد أن دبّت فيها نار الفرقة والخلاف، نظراً للصراعات المتعاقبة بين أبناء الأمة، فالحكام شغلوا بتثبيت دعائم حكمهم، فاستغل أبناء الصليب هذه الأجواء، وقاموا بالإغارة على بلاد المسلمين مستغلين حالة التفكك والضعف اللتين كانتا سائدتين.

ولكن العلماء والفقهاء انبروا لتلك المحاولات التي كان الهدف جلياً من ورائها، وهو دثر معالم الإسلام أولاً، وبتّ نار الفرقة ثانياً، وتوطيد دعائم الصليب في أرض الإسلام، وهو حلم طالما راود النصارى، فكان مبتغاهم تخليص قبر المسيح من أيدي المسلمين، وتلك الفرية لم تدخل إلى عقول الطبقة الخاصة التي كان تأثيرها كبيراً على العامة، فانطلقت أسنة الشعراء والمدّاح ترفع أيديها ضارعة إلى الربّ، مستشفعة بالرسول محمد من خلال صفاته وفضائله وذكر معجزاته، ومعاركه وبطولاته، فضمنتها في قصائد اتخذت طابعا خاصاً، ولاقت القبول والاستحسان من أبناء الأمة الغيارى، على دينهم ووطنهم، وكانت تلك المدائح بمثابة إعلان النفي العام ضدّ المحتلين الغاصبين الذين أرادوا القضاء على ما هو إسلامي.

وتميّزت تلك المدائح بخصائص ومزايا خاصة، فقد جاءت فاتحة فتحاً عظيماً، وأساساً لما جاء بعدها في العصور اللاحقة، فالمقدّمة الحجازية التي حلت محلّ المقدّمة الطليّة، وتمجيد الذات الإلهية، وإدخال مظاهر الطبيعة بأغرب أشكالها، وأجمل صورها

وهيئاتها كان ما يميّز المدائح النبويّة في العصرين الزنكيّ والأيوبيّ، وما إلى ذلك من المفردات المختلفة التي وردت وكان شعراء المديح في ذينك العصرين هم السّباقون للإبداع والتفنن.

وقد قسم الباحث بحثه إلى أربعة فصول مسبقة بمقدّمة وتمهيد، ثمّ تحدّث في الفصل الأول عن الرسول ومديحه في فجر الإسلام، ثمّ في العصرين الأمويّ والعباسيّ، أمّا الثاني فقد خصّصه لأشهر شعراء المديح النبويّ في العصرين الزنكيّ والأيوبيّ، وبين أثر تلك المدائح في العصور اللاحقة من خلال الفصل الثالث، وجعل الفصل الرابع تبياناً للخصائص والمزايا الفنيّة لقصائد المديح النبويّ في العصرين الزنكيّ والأيوبيّ، وختم البحث بخاتمة تحدّث فيها عن أهمّ ما توصل إليه.

أمّا ما يخصّ المدائح النبويّة من الناحية الفنيّة، فقد تأثر الشعراء بطابع العصر، من حيث السهولة والوضوح، وهما الشعار الذي من خلاله تسللت المدائح إلى قلوب العامّة، التي شغفت بها وردّتها في مناسبات مختلفة، أضف إلى ذلك أنّ موضوع تلك المدائح الرئيس شخصيّة النبيّ محمد، فشخصيّته تحتلّ الصّدارة على صعيد العامّة والخاصّة، فهو النبيّ الخاتم، ونزلت عليه المعجزات العظيمة الباهرة، وهدى الأمتّة من بعد جهل وطول شقاء، وأخرجها عبادة العباد إلى عبادة ربّ العباد، وكان القرآن فخرها، وبه سمت أمتّة الإسلام وأصبحت الأمم جميعاً تحسد الأمتّة على ذلك النبيّ وذلك القرآن.

ويشتمل هذا البحث العلمي على قصائد ومقطوعات اعتمد الباحث فيها على التحليل والمناقشة للاستدلال على الظاهرة والمفردة، أمّا عدد الشعراء الذين عرفّ بهم الباحث فهم يزيدون على سبعة عشر شاعراً في العصرين الزنكيّ والأيوبيّ ممن مدح النبيّ، وغيرهم الكثير ممن عاصر النبيّ في فجر الإسلام، وفي العصرين الأمويّ والعباسيّ، والعصر الحديث.

وما توفّيقني إلا بالله، إنه نعم المؤمّل .

Abstrat

This thesis provides a great favor to our prophet Mohammed peace be upon him. From the rise of Islam our prophet has been praised till the current time. My concern is a researcher in this study is to discuss the Zinchin and Ayubian age which does not take the favor of our prophet peace be upon him before.

This age witnesses different issues in which Muslims defend their land from invaders . in the Zinkin and Ayubian age we found a lot of great leaders whom great target work is to bring unity to the Islamic country. Leaders in this age spend a lot of time to reinforce their country. In that time Christians attack the Islamic world.

Thinkers and jurist work very hard in defending al Islam from those whom great aim is to strengthen Christianity in the Islamic world which is dream for all Christians. Christians main work was and still is to release Jess's tomp. This issues was faced by poets whom wrote a lot of

poems in which they ask a help from God by our prophets help. In these poems poets give detailed description to our prophets. Miracles, battles and heroic deeds. Poems were as an advertisement of war in order to defend the Islamic world from those invaders whose goals to destroy or demolish the country.

These poems have special characteristics. These poems were a great entrance, and a solid base from the coming ages. The Hijazian introduction which replace the Talalyan introduction, Allah's respect, and the introduction of nature with its strange forms and beautiful pictures which discriminate the Zinkin and Ayubian ages in addition to many other words used by poets whom were the first to invasion.

The researcher divided his study into four chapters and an introduction. The first chapter was about the praise of our prophet Mohammed peace be upon him at the beginning of the raise of al Islam, Aumayad and abased age. Chapter two was about the most important poets in the Zinkin and Ayubian ages. Chapter three is about the effect of the prophetic poems in the coming ages. Chapter four is about the characteristic of the prophetic poems in the Zinkin and Ayubian ages. The researcher concludes his study with a summary in which he talks about the most important findings of the study.

The prophetic pomes were affected by the nature of the age from ease and difficulty, this slogan is the gate way through which these poems inter to the people's heart. The prophetic poems main concern is our prophets character and his great miracle (al qur'an).

This study contains poems and stanzas which the researcher main concern is to discuss and analysis words and phenomenon. The number of poets in the Zinkin and Ayubian age is more than seventeen whom praise our prophet Mohammed peace be upon him.

The end.

Talal abu sheickha.

